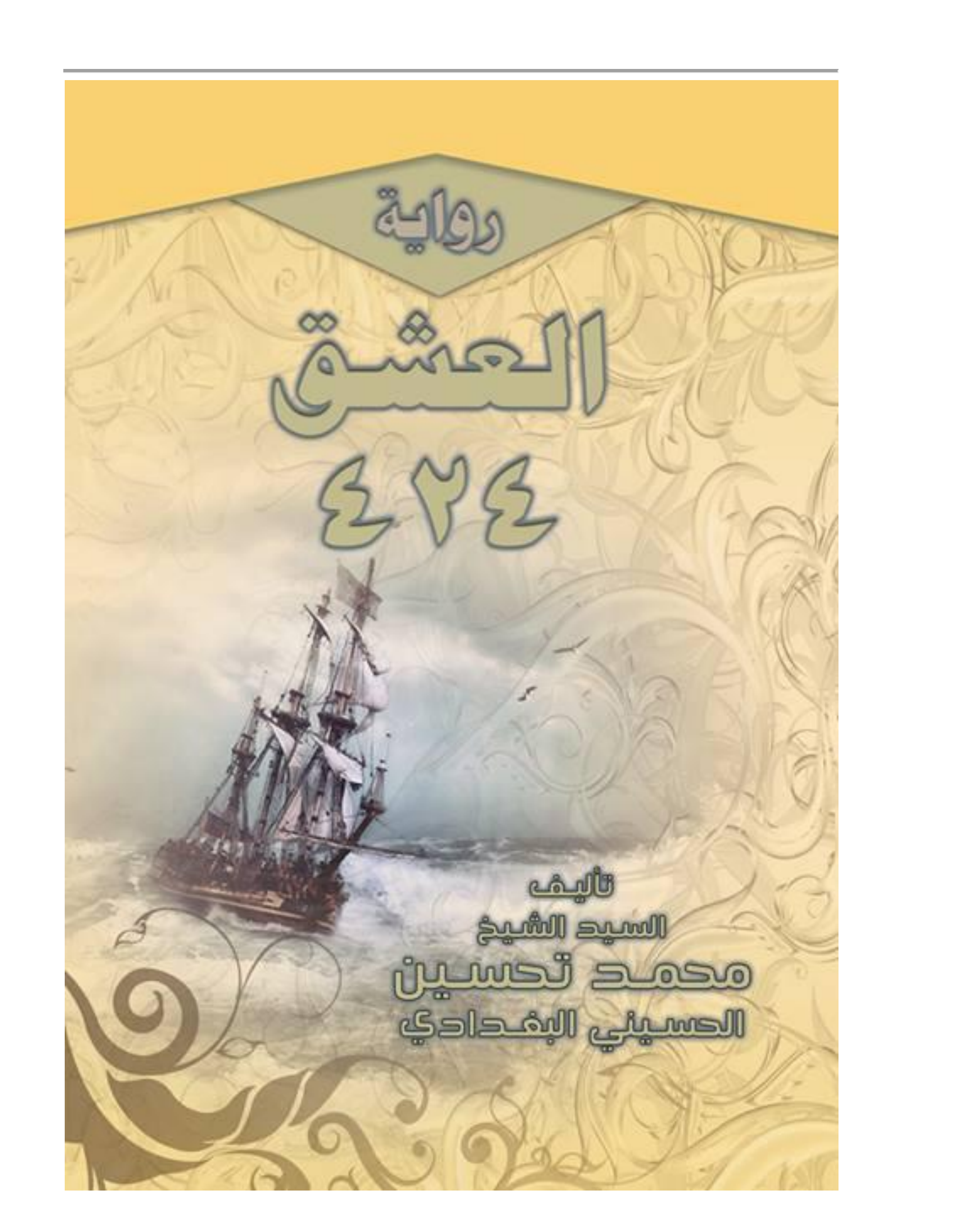

رواية
العشق
٤٢٤
تأليف
السيد الشيخ
محمد تحسين
الحسيني البغدادي

إهداء

إلى العُرفاء والعاشقين والمُحبين ..
إلى الذين نَـبَذوا التمذهُبَ والطَـائفية والقومية وما أشدّها من ثلاثة ..
إلى أهل الحق والعدل والإنسانية ..
إلى الذين يُحرِّمون الدِّماء، ويُقَدّسُونَها؛ لأنَّها تجري في عُرُوق خليفة الله على أرضه ..
إلى الذين يَرْسمونَ الابتسَامَةَ على وجوه الأَطفال والأمهات والآباء ..

إلى الذين يَبْكُونَ على بُكاء من يَبكي أَلمـًا من فاجعة، أو كارثة، أو مرض ..

إلى الذين يَنشُرونَ شَذَى العشق بين النَّـاس ..

إلى الذين يحملون الحُبَّ لأعدائهم قبل مُحبيهم ..

إلى الذين دَيْدنُهُم السَّماحة والعفو عن الناس ..

إلى الذين إذا تمكنوا قالوا: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء» ..

إلى أهل الاقتداء بمشكاة مدينة العشق الموصوف: (ودَاعِيًا إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنيرًا).

لُطْفًا يا جَدَّنَا التاريخ

انشُر الحق .. واضرب على يد المُنتصر

الذي

يكتبُ التاريخَ على هَوَاه

وأَقـول

إلهي

كيف الوصولُ لبابك دُلَّني ..

يا كلّ مقصدي .. وغاية مطلبي

إليك أتوق .. ونحوك أتوجه ..

يا الله .. يا لطيف

....

قاعدة(١)

مَنْ أحبَّ الكُلَّ جَمَعَ الكُلَّ تَحت سَقْفٍ واحد ...

المُؤلِّفُ في سُطُور

هو أبو عبد الله محّمد تحسين «شمس الدين» عصام أبو بكر محّمد ابن إسماعيل بن شيوة جبرائيل بن عبد الصَّمد بن محمود بن صالح البصير الصالحي من أولاد إبراهيم المرتضى بن سيدنا موسى بن جعفر الصادق الذي يعود نَسَبُه إلى سيد شباب أهل الجنة الإمام الحُسين ..

وقد دَرَس على يد طائفة من كبار علماء العراق من أبرزهم الشيخ محمد الجارودي، والشيخ عبد الكريم المُدرّس «بيارة»، والشيخ عبد الكريم الدَّبَان، والشيخ عبد الكريم سِنَـهْ، والشيخ عبد المجيد شَقْلاوة، والشيخ المُلا أيوب السامرائي ، والشيخ الخواجة عارف .

وقد تربَّى في الأَدب والسلوك وأخذ العهد والإجازة من الشيخ العارف عثمان سراج الدين الثاني، وقد تولَّى تربيته الشيخ طالب أبو العباس .

ولد في بغداد في منطقة باب الأَزج، ودَرَس علوم الكيمياء والنباتات والفلك وأصول الدين والنحو والصرف والمنطق والعلوم السياسية وغير ذلك، وتفقه على المذاهب الثمانية، ورحَلَ إلى بلدان كثيرة ، وهُو في ترحال دائم إلى يومنا هذا.

يَاعاشِقًا بقَطَراتِ النَّدَى تَحْيَا
وَيَا جَلَالاً من الجَمَال لا حُدود
أُناديكَ حتى بِعطْرِكَ أحيا

وأَصْرُخُ وباطنُ الأَرضِ يكْشِفُ الحُدود

....

أشكو أنني لاَ أعْرف الحُب

ولكنَّ الدَّرْسَ لن يطُول

وسيأتي اليومُ الذي أزرعُ الحُب

وأغدْو بين النَّاس طُول

....

هلاّ تذوقونَ معي هذا الشَّرَاب

أم إنكم لا تُريدون أن أعرف

بلى إنيّ لا أسير نحو السراب

قلبي قبل عَيْنى يَذرِف

....

عَالَمُ السُّكون من جديد

أم الصَّخَبُ المجُلجل

إنهُ العُمْقُ يظل بالوجود

أم الزَّمن المُتوقّفُ المُبَجَل !!

....

الأَناشيدُ تُحييها العصافير

والحرير والخَفيف يُبقيان

أجمل اللحن بهذه التعابير

والنَّغَمُ والخيَّالُ يُنْجيَان.

الوُصولُ إلى حِجْر العِناية

مُنذُ الوعي الأول وقد سمعتُ قولين .. ما أجملهما !!

الأَول : «أَمِت نفسك كي تحيا»

والثاني : «كيفية الوصول إلى حِجْر العِنَاية » .

وأتذكرُ ذلك الثوبَ الدَّاكن بلون التُّراب، والعِمامة الصغيرة السوداء، إرْثُ جدتي، وأنا أبحثُ عن القول الثالث: «الكمالُ البشري» .. يا لهُ من غاية، السُبُل إليه كثيرة، والخلافاتُ أكثر، والكل يقول: «من هنا الطريق» ...

وبعد سنين من السّبْر والصَّبْر تبين لي كما يتبيّن للنَّاظر ضوء الصباح من خلال نافذته إلى أوراق الشجر، وقطرات الندى تنسابُ عليها ، فقلتُ في نفسي : إنها البداية، لنخطو في بحر الأنفس .

فبدأتُ أجمعُ قصاصات الورق من الكتب الصفراء وأفواه السائحين وأهل الجَذْب والعرفان ما بين بوابة الأَزَج ورُكن الخِلاّني، وقُبة الإمام الكاظم، ومقبرة المحاسبي، وعلى رأس الجسر الإمام معروف الكرخي، وقباله الإمام الحبيب العجمي، وما إن انتقلتَ إلاَّ وكان الإمام السري السَّقطي والإمام الجنيد البغدادي محاطين ببُراثا، والامتداد إلى جدي الإمام موسى الكاظم .

وما إن تنتقل إلى الجانب الآخر إلاَّ والسهروردي ناصِبٌ مَنَارتَهُ، وإن تدرجتَ في النزول شاهدت موضع الإمام أبي حامد الغَزاليّ ، وإن تبحّرتَ قليلاً رأيتَ بوابة المدرسة النّظامية .. إنها مدرسة الأحوال ..

وما بين هذه النقط بَيْتُ عمي المواجه للمدرسة الجيلانية، فإذا خَرَجْنا باستقامة وجَدَنا قبْر قَنْبَر ـ خادم الإمام علي ـ .

وإذا انحرفنا شمالاً باتجاه الميدان كان قبر الإمام أحمد بن حنبل، وعلى جانبه قبر عثمان بن سعيد، فإذا أكملنا المسير سندخلُ الأسواقَ الرئيسية لبغداد حتى نقرأ ما بين الميمنة والميسرة وما بين الحارات والأزقة بعض قبور الصالحين، وهناك وقريبًا من حافة النهر هناك مسجد صغير فيه غرفة سكنها كثير من العلماء، وعند بوابتها التقيتُ بأستاذي السيد الطالب عليه سحائبُ رحمة الله فقال لي: اسمع .. فقلتُ: سَمَعًا، فقال: «احمل قَلَمَ العِلْم، واكتب على قرطاس المعرفة هذه الأبواب، والانتقال في المَنَازل وكسْب المقام لنيل الحال».

وقال :

قاعدة (٢)

اعلم أنّ التَّجْريدَ هُو بِدَايةُ الطريق للوُصول إلى التَّوحيد وَمَعْرفة التَّفْريد .

قاعدة (٣)

الُّلغزُ لمن دَرَسَ وَفهِم بالقبول والحِسَاب والمنازل حتى عاد كالعرجون القديم، فالأَنفس الجبّارة والجامعة والأمّارة والمنتقلة والمنتفلةُ واللوامةُ والصوامة والمُلْهِمة والمُلزمة والساكنة والتامة والمعطية، فإن حسبتها بالمثلث أزلتَ ران القلوب تثليث تكعيبي، وإن أخذتَهَا بالمُربَّع والتفصيل وبالذاتي مُلزم وإن أنقصْتَ من تثليثه على المُسبّع نِلتَ الجواهرَ فرائدا، واحسب من ذاك وذي وهذين وهذا خمساً تمامه .

ثم أَطْرقَ رأْسَهُ وقال: «هيا بنا نذهب فنشرب من النهر» .

فقلتُ ـ في نفسي وكُلي حيرة ـ : «كيف أشربُ من ماء قد اختلط بالطين والرَّمل» ، فالتفتَ إليّ وقال :

قاعدة (٤)

الدَّوَابُّ لَا تتأثر والدَّاء يَسْري ،

والعِلّةُ لا مِن طعامٍ إلا من جَشَعِ الأَنْفُسِ .

فذهبنا وجلسنا على النهر، وفي ذلك المكان كان هنالك مقام مكتوب عليه: «مقام السيد الخضر»، فَغَرَف بيديه غرفةً وشرب، ثم قال لي : «اغرف واشرب»، فَدَمْدَمتُ مُحاولاً أن لا أشرب، فقال لي بصوت الرّعد: «اشرب» ، فشربتُ خوفًا، ولكنّي ما إن شربتُ إلاّ ووجدتُ لهذا الماء طعماً غريبًا كأنَّه مُحلّى بالعسل ومُصفّى بالحجارة في كوز ماء قد وُضع في شقٍ من جَبَل، ماءٌ لَذيذٌ أَغنْاني عن الطعام.

ثم قال : الآن اجلس واكتب الحروف النّورانية وكيف تبدأ /فقـــال:

قاعدة(٥)

ابدأ بالتَّوبَةِ والإنَابَةِ والشُّكْرِ والتَّوكلِ والرّضا وتنقية السُّلُوك، وجوع الرّياضة، والتّمييز بالحَلال والحَرام، والعُزلة في نَفْسكَ، والصَّمْت والتّمعن والسَّمَاع والسَّهر والتذكر ، فاحفظها فإنَّها التَّـمام .

وقال:

قاعدة (٦)

تبدأُ بأشكالها مُتساوي الأَضْلاع ثَلاثَة، ودَائرةُ الإِحَاطَة مُحَاطَة وَمُربَّعُ التركيز حيّاكَة، واستِطَالَةُ هجْرة وكهف أضل، و نقطة تثليث من دائرة الأوهام، فما إن استقبلتَ إلاّ وشددتَ، وما إِن جَلَسْتَ إلاّ وتمعنْتَ، وما إن خَلَوْتَ إلاّ وجَلَوْتَ، فالزم التخليةَ والتَّحْلية وَهكذا في الاستمرار.

وقال لي: «قم لنذهب»، فقُمتُ وقد دَاهَمَنا الغُروب، فقلتُ: «ألا نُصلي؟؟»

قال : بلا ـ من البلاء، وليس من نعم ـ .

فدخلنا في منطقة تسمى: «كعبة البَهَائية»، فقال السيد لي: «أتنظُرُ هذا البيتَ القديم ؟؟» قلتُ: «نعم» ..

قال: «قد قَتَلوا صَاحِبَهُ، وفي داخله نخلةٌ تحتها كنز علاء الدين» .

فشعرتُ أنه يلعبُ بعقلي .. ولكن لم أفهم هذا الكلام ولا هذه الإشارة.

فدخلنا مسجدًا بالقرب وصلينا .. وبعد الصلاة قال السيد: «اجلس هنا واكتبُ» ، وقال:

قاعدة (٧)

البَاطِنُ مُرَاقَبَةٌ وإِخْلاَص، وَالظَّاهِرُ جهاد واتبَاعٌ وَاجتهاد، والرياضةُ جَسَدية وَروحية، وهي مَدْرَجُ السَّالِك إلى المقام لِينَالَ الحَالَ، والأَحوالُ مَدَارِجُ ومَدَارك، فإن تَدَرجتَ عَلَوْتَ، وإن كُنتَ للدَّرْكِ فَهَويْت .

إنّ أمرنا هذا بالقلب لا باللسان **واعلم:**

قاعدة (٨)

إنَّ الدُّنيا مِثْلُ النّارِ خُذ مَا يكفيكَ منها، وَلاَ تَلعبْ بِهَا فَتَحترِقَ، وكُن من أهل الاطْمئنان بِمَا وَعَدَ الله .

وقال :

قاعدة (٩)

التِّصديقُ هُوَ التَّوكل، وإيَّاكَ أَن يَفوتَكَ الأَمرُ ، فإن فَاتَكَ لا يعود ، فَلا تلتحق بالرَّكْبِ فَلاَ تَنَال .

ثم سكت، ثم قال: «اَلبقَّال»، وقال: «اكتبُ»، فتعجبتُ، فقال: «اكتُب مَا لَكَ مَبْهوت؟؟»

قلتُ : «يا حضرة السيد : ما البقال ؟»

فابتسم ، وقال : «حَظُّكَ من العلم» ، وقال:

قاعدة (١٠)

جَرِّدْ نَفسكَ،

وعَلامَتُهُ : بأن يَتَسَاوى عِنْدكَ التِّبْرُ والتُّراب، وَنَيْلُ عِلْمِ الْعرفَان وَسُلُوكُهُ بالأَدَب، وأن تَجْعَلَ نَفْسَكَ في المكان الصحيح،

وأن لا يَراكَ اللهُ في مَعْصية، وكُن جَلِيسَ التَّفكُر فإنهُ مَاءُ الحيَاة وفُروضُكَ أَسَاسُها .

ثم سألني بهدوء : «ما السماع؟» ، فنظرتُ إليه وقلتُ : «أن نسمع»

فقال: «وماذا نسمع ؟؟» ، قلتُ: «القرآن، وما شاء الله أن نسمع» ..

فابتسم وقال:

قاعدة (١١)

السَّمَاعُ ذَوْقُ الْقَلْبِ لِمَعَانِي مَا خَلَقَ اللهُ ، فَلَا تَتأَثَّرْ بِهَذِهِ الدُّنْيا، فَتَؤثِر فِي الصَّخْرَةَ الصَّمَّاَء بِأَنْ تُخْرِجَ مِنْهَا نَاقَةَ صالح .

فقلتُ: «لا أكْتبُ هذا الكلام ، أليس هذا الكلام كُفراً ؟»

قال: «رمز الإشارة، لا عبارة ، فمقصودي : قلبُك يا غُلام » ..

أَفِقْ ... إنَّ الأَمر ليس بهذه البَسَاطَة وسَذَاجة الفُقهاء.

فقلتُ : «يا شيخي ... ألسْتَ فقيهًا ؟؟»

قال: «بلى ... إنّي الفقيه، وللفقه أنتمي ، ولكن أَعبدُ الله» ..

وقال: «لا تقاطعني، واكتُب» وقال:

قاعدة (١٢)

حَاسِبْ نَفْسَكَ فَإِنَّكَ مُحَاسَبٌ، وَإِيَّاكَ وَاللَّمَم فَإِنَّهَا الطَّرِيقُ إِلى الْكَبَائِرِ ..

قال: واعلم :

قاعدة (١٣)

أَنَّ الانِقطَاعَ بَيْعُ الدنيا بدراهِم مَعْدودَة ، والاستواء أن تَشْتريَ نَفْسَكَ بحظِّك مِنَ الدنيا ..

ثم قال : «أتعلم لو الآن لدينا رغيف خبز مع بعض الكُرَّاث ؟؟»

فقلتُ : «أذهبُ إلى السوق لأجلبهُ» ..

قال: «لا .. إنّي شَمَمْتُ رائحةَ الخُبز كأنَّ أَحدهُم يخبز حول المسجد»، فدخل رجل فأعطانا خُبزًا مع معدنوس وكرفس وقليل من التمر.

قلتُ: «يا شيخِي .. طلبتَ الكُرَّاثَ فَنِلْنَـا الكرفس !! »

قال: «يا بني .. إن أهل هذه المنطقة يُكْرمونَ الغُربَاء، ويُقدّمون لهم الطعام فاحمد الله وكُل ..» ، ثم قال بعدها: «اكتب» :

قاعدة (١٤)

إيّاك وَصَدأ القُلوب، فإنهُ الظُّلمةُ الكبرى وانجلاؤهُ بالتفكر، والإخلاصُ يُسقِطُ هذا الرَّان ..

وقال :

قاعدة (١٥)

عَلِّم الحَشَا البُكا، والرُّوح الوَجْد، والغاية النَّقَاء، فإنَّ صَاحبَ الحُبّ مُسَهَّد ، لَيْلُهُ نَهار ، ونَهارهُ لا ليل ولا نهار ، نَهارهُ مَرْفوعُ القلَمَ، ولَيْله قَلَمٌ وَقَلَم .

وقال:

قاعدة (١٦)

احْذَرْ أنْ يراكَ اللهُ إلاّ وَأنْتَ تطلبُ المغفِرَةَ ،
فَدُخُولُ سَاحَةِ الهَيبَةِ يَجْعَلُ لِلذكْرِ حَلاوَةً لَا خَيْبَةَ ..
واعلَمْ: أنَّ الذكر : انقطَاعُ الفِكْرِ ، وَنِسْيانُ ما في الوَجْد ..

وقال:

قاعدة (١٧)

العُنْصُرُ قَيْدٌ، والرَّسْمُ غُرور، والحَد كِبْر ، فاخرُج من حَدِّ عُنْصُرِ الرَّسْمِ، واجلس فإنَّكَ الضَيْف .

واعلم يا صغير:

قاعدة (١٨)

الاضطرابُ في الخلْوة دليل أنَّكَ في نَجْوَة ،
وقَدَّمْتَ نفسكَ للشَّهوة .

وقال :

قاعدة (١٩)

الطَّالِبُ في الحق سَلاَمة وهو المريد ، وجُلوسُكَ للوَعْظِ نَدَاَمة وَهُو المراد، فابْقَ بالحياة مُرِيدًا تَعِشْ سَالماً ،
فإن وَصَلْتَ فاربط عَيْنَ جَبينكَ بصُرَّة الأَرض إن كانَت للأَرْضِ صُرَّة فَما فَهِمتُها ، وإنّي لأَبْحَثُ عن صُرّة الأَرض ..

وقال:

قاعدة (٢٠)

التوبةُ رضا ، والتَّوكلُ قَنَاَعَة ، والمُعَامَلةُ تركٌ وسُهولة ، والمحبة حَرْق ، والحقيقةُ ليست من جنس الدُّنيا ، فمن استقامَ وأخطأ لا ينال ، فكن على الطريق الواضح ..

وقال:

قاعدة (٢١)

الحَالُ لاَ وَقْت ، وَالمَقَامُ زَمَان ،

وَمَـقامُ الحَال لاَ مَـكَاَن وَلا زَمَان ..

وقال :

قاعدة (٢٢)

آفَةُ الطَّرِيقِ خَوَاطِرُ الْقَلْبِ إِصْلاحُهَا الاِجتِمَاعُ

بِأَهْل الطَّرِيق وَالعِرْفَان ..

واعلم يا هؤلاء :

فضحكتُ .. وقلتُ : «يا سيد أليس الأحسن أَن تَقولَ لي يا هذا ؟؟»

فلم يقل شيئًا، وقال بعدها :

قاعدة٢٣:

لسانُكَ مفتاحُ دُعائكَ، فاحرِصْ عن ذِكْرِ الغافل،

وافتح أبوابَ النَّصيحة ، وكُن للجهْلِ عدوا ، وللعِلْمِ خَدُومًا .

وقال :

قاعدة (٢٤)

ذِكْرُ الله حقاً بِالْقَلْب وَبِاللّسَان نَفَس، وَالنَّفيُ وَالْإِثْبَاتُ زَمْجَرَةُ الصَّدْر،

سياحَةُ الأَبْدان عِلْمُ الأَكوان،

وَسِياحَةُ القُـلوبِ مَعْـرِفَةٌ بلاَحُدود ..

وقال :

قاعدة (٢٥)

اعلم أن الطَّريقَ صُحْبَة، فَمَا زَالَ الأَخيارُ يحملونَ عنكَ الأَثقالَ، والأَشرارُ يَزيدونَ على الكَاهِلِ الأَحْمَال.

وقال :

قاعدة (٢٦)

التَّفريد مَعْرِفَةُ علمِ التَّوحيد، وَتحقيقُهُ بالتَّجريد، من هُموم الهَوَى وَالتقليد، فَمَن أماتَ أنفُسَ الشَّهْوة سَلَك طَريقَ الحيَاة والنَّجَاة .

واعلــم :

قاعدة (٢٧)

أنَّ الغَايَة القُصْوى مَعْرِفَةُ الأوامِرِ والنَّواهي ؛ فَهي ميزانُ السَّالك إلى نَيْلِ المَعَالي .

بغداد / بابُ الأَزَج / ١٩٨٠م

تَخَيل أَنّك تمشي في صحراء ، والليل دامس ، والبردُ قارس ، وأنتَ تَلبَسُ ثوبًا خفيفًا وتحمل معك قلم رصاص، وعند المسير في هذه الأجواء بدأتَ تُشاهدُ من على جانبيك ومن خلفك أنك مُحاطٌ بالذئاب، والطامَّةُ الكبرى ليس في هذا المشهد المُرعب ، بل إنك تصطدم بأنَّ الذي تسيرُ نحوهُ ما هو إلاّ البحر.

هنا نسأل : هل تستطيع أن تقطع البحر بهذا الزورق ، وأنت تُجدفُ بقلم الرصاص ، وأنت بقوة الأسود ، وتخلع ثوبَ الخوف والبرد .

وفي الصورة الأخرى تخيل أنك أمام مدفأة، وبيدك كتاب، وأنت ترتشفُ من قدح فيه عصير الفواكه الاستوائية، أو قدح من شاي الأعشاب الساخن، مع تكرار بعض الجمل التي قرأتَها، ويغمرك السرور والدفيء بما أنجزتَ من القراءة ، فتخيل الصورتين.

إنَّ الطمأنينة والخوف أحوال تحيط بمن تأثر بالحياة، أو دلت به بعض الظروف، ولكن الذي يبحثُ عن الهدوء هو دائماً من يحبُ الحياة ، والذي يُجازف لا يهتم بالحياة.

فالعاشقُ هو الذي يقطعُ البحر، ويفتحُ نفقًا في جبلٍ بإبرة وأهل الحب يبحثون كيف يستقرون، وكيف يضع الواحد منهم وسادةً من الريش تحت رأسه أو تحت مرفقه ... إنها معاني للحياة والموت، والموت والحياة؛ فمن أراد الحياة لا يرى الموت ، ومن أراد الموت سيحيا.

هيا: لنتحدث عن منطقتي باب الأزج والصدرية ومسجد الخلاني ومسجد الجيلاني، وما بينهما شارعٌ فرعيٌ يُسمى (رأس السَّاقية) وعلى الجانب الآخر مُقابل المدرسة الجيلانية منطقة (فَضْوَة عَرَب) و(تَحْتَ التَّكْية) و(مقهى شُكُر).

وبعد اللقاء بالسيد طالب أبي العباس الرجل غريب الأطوار الذي لا نعرفُ لهُ من الأَقرباء إلاَّ رجل واحد يدّعي أنَّهُ أخوه ، وقد وافقَهُ السيد طالب تلطفاً وكَرَامة...

وفي الحقيقة لا نعرفُ له أحداً.

والسيد يسكُنُ غرفةً صغيرة بجوار المدرسة الجيلانية .. داخل الغرفة حقيبة بسيطة فيها أقلام وأوراق وبعض الكتب .. وبين هذه الكتب من الفقه واللغة والتفسير كتاب (إخوان الصَفَا) ، وكتاب (شمس الشُّموس) ،

وورقة كبيرة ملفوفة بقطعة قماش أخضر اللون فيها (نسبُهُ الشريف) ، إنه رحمهُ الله من نَسَب الإمام الحسين.

الشيخ السيد طالب الذي يصوم النهار ويقومُ اللَّيل ، ودائماً يحمل معهُ مَسْبَحَةً من (النارجيل) ويقول : إنهُ من جنس خَشَب عصا سيدنا موسى عليه السلام.

وهو كثير الصَّمْت ، دائمُ التفكير ، ما إن ذهبتُ إليه إلاَّ ووجدتهُ يذكر أو يكتب على جدران الغرفة، ويرسمُ الرسوم الهندسية، أو يكتب مسألة فقهية أو قاعدة في الأصول ، أو شكلاً غريبًا ما بين الأرقام والحروف.

أو يقول: هيا بنا نخرجُ من البيت ساعاتٍ من السياحة و الإملاء ، حيث كان يُملي عَليَّ قواعدَ العِشْق وقواعد العدالة وقواعد السُّلوك ، وقواعد الحياة والأخلاق...

وقد كان مُتبحراً في المذاهب الثمانية ، وكنتُ أتعجبُ متى وأين درسَ كل هذه العلوم.

والعجيبُ أنه كان لا يأكل غير الكرفس، ويشرب الشاي، وفي الشهر مرة أو مرتين يأكل الخُبز ، ولا يتحدث إلاَّ مع الفقراء ، ولا يجلس إلاَّ مع المجانين والُمتسولين.

إنه دائمُ الصَّمت ، ومرسومٌ على وجهه ابتسامة بريئة مع البسطاء، وإنه ذو اللِّسان اللاَّمع القاطع والوجه الغضوب مع كل صاحب رداء ثمين يتباهى بما هو فيه.

أو من يقول : إنّي صاحبُ كرسي من الساسة.

لا يُبالي بأحد ، ولا يخافُ من سلطان ولا جلاّد ، ولا من سلاح ناري ، إنه السيد الذي ينظر إلى السماء فيقول : يا ويلكم من صريخ القنابل.

وفعلاً وبعد سنة بدأت الحرب بين الجارتين العراق و إيران ، وكان يبتسم ويقول : إنها البداية ، وتذكر يا فتى : إذا وضَعَت الحربُ أوزارها فتحسب سنتين ، وتدخلون في شدة السنين (القحط والجوع والخوف والقتل على الهوية).

أبو بكر مقتول ، علي مقتول ، عُمر مذبوح ، حسين مُقطَّع ، يا ويلكُم يا أمةَ الأسماء ، يا ويلكم يا أصحاب العصبية ، والكل يُبرهن ويُقدم الدلائل على أنه على حق ، وكل هؤلاء ينامون الليل ويُمارسون الحياة في النهار بطبيعة الإنسان ، أما القتلةُ فلا يحملون أيَّ معنى للإنسانية غير

أنهم مُجرمون بكل المعاني والألفاظ والدساتير الإسلامية وغير الإسلامية.
في أحد أحياء بغداد ، في منطقة (حي الجامعة) بيت أم جعفر ، لديها خمس بنات وولد واحد هو جعفر ، امرأةٌ كبيرة في السن ، مُحبة .. تُطعم الجيران ، ولها وجه بشوش بوشاحها الأبيض على رأسها.
وفي أحد الأيام وفي وقت العصر قامت جماعة ممَّن يقولون على أنفسهم أنهم مسلمون يقتلون جعفر على رأس الشارع ، ويُرسلون طفلا صغير إلى بيت أم جعفر ليطرق الباب بكل شدة وهو يقول : أنجدوا أخاكم جعفر على رأس الشارع ، فتركض البناتُ الخمس، وخلفهن الأم المسكينة، وما إن تصل إحداهن إلى جثة أخيها إلا وصوت الرصاص يخترق أركان جسدها فيلقيها على الجسد الأول كأننا نضع الكتاب على الكتاب.
يال هول هذا المشهد الخرافيّ الذي لم يحدث حتى في زمن هولاكو.
وقد وضعوا الكتب الخمسة على بعضها، وعندما شاهدت الأمُ هذه الحادثة وقعت أمام هذا المشهد مَفْلوجةً ، وهم يقولون : الموتُ لكِ راحة.
المشهدُ الثاني:
منطقة (حي الغزالية) كذلك في بغداد ، الأب اسمهُ **(عمر)** ولديه ستة أولاد وزوجة ، يطرقون الباب على عمر الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، الهلع والفزع داخل البيت : نفتح أولا نفتح !!
ولكن الضربات والصراخ خارج البيت شتَّتَ الأفكارَ ، وهم ما بين الفتح أو لا كسروا عليهم الأبواب ودخلوا وقتلوا الأولاد أمام الأم والأب ثم قتلوا الزوج ولم يقتلوا الأم التى سقطت من هول هذا الموقف.
إنّهم لا يقتلون الأمهات ، لأن الأم رمز للوطن ، وبالتأكيد هم ينتمون إلى الوطن!!
يقتلون الناس على الأسماء ، يا له من انتماء !!
هذه نماذج بسيطة وخوفي على من يقرأ أن يدخل حالة الهستيريا ، ولا يستطيع أن يخرج من هذا المدخل ، مدخل أُمة (الله أكبر) !! ، ويُكرر السيد طالب : بعد السنتين كأنّني في كابوس وهو يقول لي هذه الكلمات ..

غرفةُ السيد طالب التي بجوار المدرسة الجيلانية قد بناها رجل يعملُ في سلك الشرطة وهو ضابط برتبة عالية ، ويحترم السيد جداً ويخاف منه وكان يُنَفِّذُ أوامر السيد كأنهُ قائدُ الشرطة العام أو وزير الداخلية.
وكنتُ مُتعجباً كيف مثل هذا الرجل يسمعُ كلام السيد ولا أستطيع أن أفهم هذا الموقف.
والغرفة هي عبارة عن باب من الخشب الـچـام صغير قياس (٩٠سم) عرضاً، ومتر ونصف ارتفاعًا ، ولا تتعجبوا من معرفتي قياسات غرفة السيد طالب؛ فأنا قد تعلمتُ القياس وحساب الطول والعرض للجدران والأبواب والشبابيك من عملي مع عمي الدرويش علي ، الذى كان يعمل في **النقش والدِّهان** خصوصًا للمساجد وبيوت الذكر.
أَمَّا بعد هذا الباب الصغير الذي على حافة الشارع منور صغير بمساحة متر واحد (عرضاً) بمتر ونصف (طولاً) .
وفي أحد أركانه طباخ صغير وإبريق للشاي قديم بدون غطاء مع ثلاثة أقداح صغيرة أو بلهجة أهل بغداد (إستكان) ، وثم باب آخر بنفس القياس وبعد الباب غرفة صغيرة (مترين ونصف طول) و(مترين ونصف عرض) بارتفاع (٣) م ، والأرضية : حصيرة مخدتين، والحقيبة المذكورة ، وعلبة مربعة فيها أقلام وأوراق وقطع من الكارتون.
وكان الشيخُ طالب يُدخِّن سكائر نوع (بغداد) فقط ، وكلما دَخَن يقول : بغداد ، بَغَا الأعداءُ عليها ، ويُكرر هذه الكلمات عند التدخين.
والعجيبُ أنَّهُ كان من أصدقاء عمّي لكن قلّما يلتقيان وإذا حدث ذلك يتكلمان بصوت خافت ثم يذهب كلٌ في طريقه.
وأستاذ السيد طالب هو **(المُلا نجم الدين)** ، والعجيب أن المُلا نجم يسكن في بيت أعجب من هذه الغرفة فهو عبارة عن :
باحة مفتوحة إلى السماء ، ثلاثُ غرف في الطابق الأول ، وأربع في الطابق العلوي، ومطبخ، وثلاثة حمامات، وأشجار، وسطح وغرفة على السطح، وسرداب على مساحة البيت، ولكن المُلا نجم قد أغلقَ جميع الأبواب بالأقفال، ويسكن في غرفة واحدة مفروشة بالحصير فيها ضوء ومكتبة صغيرة وأوراق على الأرض وأقلام.
كذلك جدران الغرفة عليها رسومٌ وكتابات ولكن هذه المرة لا يستوعبُها عقلي، وأنظرُ إليها مبهوتاً مُندهشاً كأنني أرى لوحة فنية سريالية ، وأنا لا أفهم في الفن والرَّسم غير أني سمعتُ بهذا الاسم.

والمُلا نجم الدين يأكل في اليوم وجبةً واحدةً من الطعام .. وفي أحد الأيام وبعد صلاة العصر قال لي السيد طالب: قُم لنذهب إلى بيت الملا نجم وكان يقول (رضي الله عنه) وكنت أتعجب ، فذهبنا وقطعنا الطريق ما بين المدرسة الجيلانية إلى الجانب الآخر مروراً بطريق قديم وطاقٍ كبير ، حتى وصلنا إلى الجانب الآخر مروراً بدكان الحاج حسن صاحب القوافل إلى الحج ، وفي نفس الوقت كان يبيع في دكانه بعض الحلوى.

وعلى جانب الدكان كان بيت الحاجة حليمة بائعة (الأزْبَري) .

وعند مرورنا نظر إليَّ السيدُ طالب وقال: هذا ليس وقت الطَّعام ...

فقطعنا الطريقَ حتى دخلنا منطقة (فَضْوَة عَرَب) ومن عند هذه الباحة دخلنا زقاقًا حتى وصلنا إلى منطقة (**مقهى شُكُر**) أي منطقة **(تحت التكية)** حيث بيت المُلا نَجْم...

طَرقنا البابَ بواسطة مقبض حديد على شكل الكف طرقةً خفيفةً جداً ...

فقلتُ في نفسي: اليوم سنبقي واقفين أمام الدار لا أحد يفتح لنا، ولم أكد أكمل العبارة في نفسي إلا وفُتِحَ الباب، وإذا بذلك الرجل العجوز (ذو الحدبة) وغالب ظني أنه جاوز الثمانين وهو يضحك فقال:

أهلاً أهلاً : واستدار ببطء وتوجه إلى الغرفة المُضيئة في هذا البيت المظلم ؛ لأن باحة الدار المفتوحة إلى السماء كانت مغطاة بقماش سميك المسمى (الـچادر) وما إن جلسنا حتى قال المُلا نجم : هل تطابقت الأشكال؟

- السيد طالب : كلاّ ، إن الفرق في خالي الجنب عِبَارة.
- الملا نجم : فهمتُ ... إنها السُّكون.
- السيد : الذِّكْرُ أولى والفِكْر أحلى.
- المُلا نجم : صدقتَ ، من صَفَا بالبَرَد والثلج والَحَرَد.
- السيد: يا أستاذ ما معنى الحَرَد ؟
- المُلا : حَرَد فُلان عن قوم حُروداً يعني اعتزلهُم.

ثم قـــال :

قاعدة (٢٨)

يا بُني: الصَّفَاءُ والوُضوء بالَماء البارد ،

واعتزالُ الناس أول طريق قطار الليل إلى المحطة الأولى .

فبكى السيد بكاءاً شديداً قد آلمني ...

فبكيتُ ولا أعلم لماذا بكيت...

إلا إنني فهمتُ الإشارات عندما دخلتُ عالمَ العرفان .. يا لها من أيام جميلة ، وأوقات كانت تمرُّ ولا نعلم أنها لن تعود ، كيف نُمسكُ بها ؟؟!

وبعد انتهاء الزيارة سَلَّمنا على المُلا ..

وقَبَّل السيدُ طالب يَدَهُ، وهذه أول مرة أرى فيها السيد طالب يُقدِّرُ إنسانًا بهذه الطريقة.

وعند العودة سَلَكَ السيدُ طالب طريقا غير طريقي

وقال لي : عُـدْ إلى المنزل واللقاء غداً إن شاء الله...

الحكايـــــة

الخميس / بعد صلاة العصر

أخذتُ أوراقي وخرجتُ من البيت مُتجهاً إلى السيد طالب ، فلمّا وَصَلتُ وجدتهُ جالساً أمام الغرفة الصغيرة على حافّة الباب ؛ لأَن الباب كان مرتفعاً عن الشارع بقدر ارتفاع الكرسي ، كأنَّ هذا الباب كرسيه يجلس على حافته.

سَلَّمتُ فردَّ السلام وقال : اجلس :

سأَحكي لك اليوم حكاية ، أحداثُها في دمشق ، اتصالُها ببغداد ، بائع التحف **الحكيم** ، **قال :**

في دمشق وبالتحديد في سوق الحميدية رجل اسمهُ (رفيق) لديه دكان يبيع فيه التحف والسجاد القديم **يقول** :

في صباح أحد الأيام الباردة في شتاء دمشق فتحتُ دكاني وبدأتُ أُرتبُ الأَغراض وأقسمها ما بين واجهة الدكان من الأَعلى تعليقاً ، ومن الأسفل ترتيباً.

وأنا على هذا الحال مُنغمسٌ في عملي سمعتُ: صوت (السلام عليكم) صوت امرأة عجوز طاعنة في السن، فرحبتُ بها، وقلتُ أهلاً أهلاً .. تفضلي، وأخرجتُ لها كرسياً صغيراً من الداخل على وجه السرعة ، ووضعته أمام المحل فَجَلَسَتْ، وكان بيدها كيس من القماش أبيض اللون مَصنوع من الكتان.

قالت : إن لي إبريقًا مصنوعًا من النحاس، إنه إبريق ثمين فهو للشيخ شمس الّدين، ومع هذه الكلمات كانت تُخرج الإبريق من الكيس، وكان إبريقاً عادياً من النحاس، ويُبانُ عليه أنه الإبريق الذي يُستخدم في أكثر البيوت في دمشق.

فقلتُ في نفسي: أشتري منها الإبريقَ مساعدةً لها بدون أن تعرف أني لا أشتري هذا النوع من الأواني.

وقلـتُ : أعطيها ثمنَ الإبريق ، والإبريقُ لها .

وكنتُ مُترددًا .. خوفي أن أكسر قلبَ هذه العجوز .

فقلـتُ لها بكل احترام وأدب : بكم يا أمي هذا الإبريق؟

فبكت كأنها قد حبستْ بكاءَ عشرات السنين، وهي تُردد: آهٍ من الذكريات التي عشتُها مع شيخي وزوجي صاحب الأَدب .

فقالــت : يابني بـ (٢٠٠) ليرة ، وهي تمسحُ دُموعها بكفّيها ..
وفي هذه الأَثناء حَدَث لي إحساس غريب فنزلتُ وقبلتُ يَدَها ، وقُلتُ لها: أنت أمي ، وإن الذي يحدث اليوم و بهذه الساعة قد مرَّ عليّ ، ولكن كيف وأين ومتى لا أعرف .. فقلتُ لها : أعيدي الإبريق في الكيس ، وهذه (٢٠٠) ليرة منّي ، ولكِ في كل شهر راتبٌ ما دُمتُ حياً ، ولي شرط : بعد عُمر طويل لكِ يا أمّي ، هذا الإبريق ميراثي ؛ فأبلغي أولادك ومن حولكِ بهذا الأمر.
فقالت بصوت خافت : يا بني .. إن **الشيخ شمس الدين** ليس لهُ أولاد وإني أسكن لوحدي ، وقد توفي أكثر الأقرباء ، ولا يزورني اليوم إلاّ بعض طلاب الشيخ من المحبين من الرجال والنساء.
كانت هذه الحادثة هي البداية مع أمي العجــــــــــــوز التــــــــــي سمـــيتُهـــــــــــا (أم الـــبركات).
وسبحان الله ... ما إن دخلت على الدكان إلا ونَشَطَت تجارتي ، وبدأتُ أزورُها وتزورني ، وكنتُ أزورُها في بيتها الدمشقي الذي جُدرانهُ من الحجارة السوداء والرمادية والبيضاء ، و الشبابيك المصنوعة من الحديد والخشب بلون الزرع ، وفي البيت عدة أشجار مُثمرة ، والورود في أواني الفخّار تملأ البيتَ من الطابقين ، وهذا السُّلّم الضيق الذي يؤدي إلى الطابق العلوي ...
ومن جهة القبلة باحة كبيرة ، ومجلس في الأرض ، وفيه من السجاد ما يكفي لمائة شخص يُصلون في هذا الفَنَاء فَجَلَستُ يوماً في هذا الفَنَاَء ، وبَدأتْ تُحدثني عن الشيخ شمس الدين وقالت :
اسمع يا بني : إنكَ في مقام ابني بل أعز ، إنَّ طريقنا هذا يُسمى (طريق العشق) ، وإن كُنتَ مستعدًا فسأحكي لك حكايتي.
فسبقني لساني ونَطَق وقُلت : نعم يا أمي فأنا عاشق ؛ فَتبسَّمَتْ وقالت : لا يا بني .. ليس عشق الدنيا ولا النساء، إنهُ عشق من نوع آخر ينمو ولا يموت، وشجرته ثابتة ثمارُها الصدق والإخلاص والطهر واليقين، إنه العلاقة التي تُبنى على الطاعة والأدب .
واسمع يا بني ماذا يقول الشيخ:

قاعدة (٢٩)

النَّفسُ هَاويتُكِ ،

والقلب مُنجّيكَ فاحرصْ عليه .

ويقــول :

قاعدة (٣٠)

لا يَغُرنَّكَ كثْرَةُ الأَصحَابِ ولاَ مَدْحهُم،
فإِنَّ حَلَاوتَهَا مَرار إِن أَدبَرَت الدُّنيا عنك .

ويقــول :

قاعدة (٣١)

العَاقِلُ يَجعَلُ لِعَمَلِهِ قيداً وهو العلم ، وَلعلْمِهِ غَاية وهي الاستقَامة ، وأملُهُ كَهْفُ العِنَايَة ...

فَحَدث لي شيء غريب، كأنَّ هذه الكلمات تسري فى جسدي فتخترق الجلد والأَنسجة والشرايين والأَوردة الدقيقة حتى كأنّها تنبض في نُخاع عظمي ، كأنَّها هي التي تنتج كريات الدم الحمراء كي تنقل الاوكسجين النقي وتدور في الدورة الدموية الصغرى والكبرى، إنها الشهيق والزفير ، إنها الأَمل والحياة، إنها النبضات الحقيقية للقلب، ها هو قلبي يذكرُ اللهَ مع هذه الكلمات كأنّي أسمعُ هذا النبض فقلتُ : ما أجمل هذه الكلمات ... والله لم أسمعها من قبل لا في المسجد ولا في السوق .. الله ... إنَّ السكينة تُحيطُني ..

فقالــت :

قاعدة (٣٢)

يا بُنيّ اسمع بأُذُنٍ واعية ، وفُؤَادٍ حاضر، وفِكْرٍ عميق ، حتى تَجمَعَ أركانَ التَّلقي .

واعلــم :

قاعدة (٣٣)

أَنَّ الأَمرَ كُلَّهُ يَتَعلَّقُ بحُضور عُمْقِ السَّمْع ..

وقالــت :

قاعدة (٣٤)

مَنْ تَمَثَّلَ بِدَوْرِ الصَّالحينَ، وَلَبِسَ ثَوباً رَثَّاً وأَطْلَقَ لِحْيَةً، وَتَوَّجَ نَفْسَهُ بِعِمَامَةٍ وَظَاهَرِ الفُروضِ؛ فَهَذا هُوَ البَسيطُ منَ المَسيرِ ، والحقيقة الهِمَّةُ، والإخلاَصُ سَنَامُ الأمرِ، وأن تؤمن وكررت كلمة (تُؤمن) عدة مرات أَنَّكَ تَموت .

فما نطقتُ بكلمة كأن شيئاً ينزل عليَّ ، ولا أعلم ما الذي يحدث لي إلا إنهُ شعورٌ جميل وأحوال لم أمر بها من قبل.

وقالـــت :

قاعدة (٣٥)

الصَّبْرُ صَبْر ، وَالصَّبْرُ صبرٌ وَصبر ؛

فاصبر صبراً جَميلًا .

فقلـــت يا أمي : ما الجميل؟

قالــت:

قاعدة (٣٦)

أَنْ تَفْرَحَ وَأَنتَ تَصْبر وَلَا تَجْزَع، فَالصَّبرُ رِضَا، وَالجَزَعُ اِستعجال .

وبعد هذه الجلسة قبّلتُ يدها وانصرفتُ إلى دكاني الذي يتوسط سوق الحميدية في وسط دمشق بالقرب من الجامع الأموي ، وبين المسجد والسوق باحة كبيرة يتجمع فيها الناس لإطعام الطيور، ورجل يعصر البرتقال على عربة بسيطة وكان دائماً يُناديني على الفطرة :

يا دُرويش رفيق .. وأحيانًا يقول: شفيق .. وأنا جالسٌ في الدكان ؛ فبدأتُ أتذكر أحوال السوق منذ سنين .. كم من رجل وأمرأة وكبير وعجوز قد دخل عليّ المحل، أو غريب في البلدان الأخرى ليشتروا مني أو يبيعوا شيئًا من الأنتيك ، كأنَّ السنين اختزلتُها ببضع دقائق، والصور الزَّمنية تتساقط من ذاكرتي كأوراق الخريف حتى بقيت في شجرتي ورقة واحدة وهي العجوز أم البركات التي أدخلتني إلى عالم مليء بالحب والنَّغَم .. فعلاً إنه عالم الأرواح الطاهرة والأفراح الدائمة والنفوس الزكية والأخلاق العظيمة وأنا في هذه الأحوال سمعتُ صوتاً :

عَمّي رفيق تَشْرب زُهُوَرات ؟ ولكن هذه الكلمات ما كانت إلاّ كالصاعقة بل تيار كهربائي كالذي يستخدمهُ الأطباء للمريض الذي يُصاب بتوقف القلب؛ فيصدمون الصدر بصدمات لعل النبض يعود من جديد كالذي قال لي : تشرب الزهُورات ؛ فصحوتُ من عالمي إلى عالم الزُّهورات الدنيوية فقلتُ بلسان ثقيل : نعم .. وما هي إلا ثوان حتى صَبَّ لي كأسًا من الزُّهُورَات وقدَّمهُ لي ، وأعطيتهُ ما قَسَم الله ...

وأنا أشرب الزُّهورات تذكرتُ السوقَ المُجاور لسوق الحَميدية وهو سوق البُذُورات (البُزورات) وهو سوق تُباع فيه الأعشاب الطبية والبُخورات والعطور وبهارات الطعام، وتذكرتُ ذاك العطَّارَ الذي اشتريتُ منه يومًا الكُركم والفلفل الأسود والحبهان، وقد تشاجرنا على نوع الحبّهان ، فقلت له: هذا قديمٌ ليس فيه طعم ؛ فكان جوابهُ قاسيًا ، فتعالت الأصوات بيننا ، وما إن رشفْتُ الرشفةَ الثانية من قدح الزهورات إلا وبدأ الندم يغمرني كيف كنت أتصرف من الناس بهذه القسوة، كأن العجوز قد غيّرت دمي كما يغيرون دم المرضى أو كما يزيدون للذين قد أصيبوا بداء الباقلاء المُسمّى **(ثلاسيميا)** ... لكن الأمر ليس بهذه السهولة فأنا الآن إنسان آخر لا أعلم ماذا يحدث لي، بل أعلم شيئًا واحدًا أنني رجل أحبُّ الأخلاقَ والتعامل الحسن، وأحب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كي أقتدي ، وما إن رشفتُ الرشفةَ الثالثة إلاّ وقلتُ:

قاعدة (٣٧)

مَنْ خُيِّرِ بَيْنَ المَوت وَالحَيَاة وتَحَيَّر فليس من الرجَّال ؛ فالَموتُ حُبُّ اللِّقَاء ، وَالحَياةُ عَبْدُ البَقَاءَ .

وما زال القدح في يدي ، وما إن وضعتُ القدح أمامي إلا وقلتُ :

قاعدة (٣٨)

الحِرصُ على الثَّمين خِيانَة ، والتَّساوي مَذْهبُنَا وَرَصَانَة.

فتناولتُ القدحَ ورشفْتُ رشفةً أخرى وأنا أتأملُ هذا الحجر الأسود الذي قد عُبِّد به الطريق ... إنه الطريقُ القديم منذ مئات السنين فقلتُ في نفسي : كم من الأشخاص مَرَّ على هذا الطريق ، وكم منهم كان شاكراً لله

وكم منهم كان عاصيًا ، وكم منهم كان جاحداً ، وكم منهم كان من العلماء والأولياء .

وما إن أكملتُ العبادةَ في خَلَدي إلاّ وقلــتُ:

قاعدة (٣٩)

مَنْ جَعَلَ الدُّنْيا فِي يَدِهِ وَأَخْرَجَهَا مِنْ قَلْبِهِ وَلَا يَحْزن عَلَيهَا ، فَقَد تَصَرَّف، وَهَوَاهُ انصَرَفَ ، وَكَانَ فِي عَيْن الخِدْمَة .

وما إن اكملتُ قولي هذا إلاَّ وخرجتُ من دكاني وبدأتُ أرتبُ الأغراض كي أغلق الدكان؛ فحملت معي بعض الأوراق وقلم وأغلقت الدكان وسرتُ من سوق الحميدية إلى الجامع الأموي إلى الأسواق المُتصلة بسوقنا أسير مشيًا بين الحارات القديمة وكانت الأفكار تُهاجمني كعدو شرسٍ لا يُعطني فُسحةً للرَّاحة، وكأن القتال مستمر كما في الأساطير القديمة: أن المعركة دامت شهرًا بأيامها ولياليها دون توقف، كأن العسكر من الحجارة لا يأكلون ولا يشربون ..

فجلستُ على دكّة إحدى الأبواب في طريقي ، وأنا أمشي .. وقلتُ :

قاعدة (٤٠)

الزُّهدُ فِي الدُّنيا ليس بتركها ، بل بالخوضِ فيها دون التَّعلُّق ؛ فإنَّها منزلةُ التَّخطي في ساحة التثبيت .

وقلــتُ أيضًا:

قاعدة (٤١)

الوجْدُ والحالُ متلازمان، والسَّمْعُ للوجْدِ رُكْن، والكُلُّ صوتٌ للسَّمْعِ رُكْن ؛ فمن تطابقَ صوتُ وَجْدِهِ لَزِمَ الحال .

وبعدما كتبتُ هذه الكلمات قمتُ لأكمل المسير فسمعتُ من بعض النوافذ كأنهم يُغنون ويقولون :

قاعدة (٤٢)

الْعَاشِقُ مَذْبُوحٌ، وَدَمُهُ لَا يَسِيلْ ؛ لِأَنَّ عُرُوقَهُ خَالِيَّة من كثرة الشَّوْق وَالْاحْتِرَاق .

فَنَزَلت دُموعي وأنا أمشي وأستغفر الله وكأنني صغرتُ خجلاً من الله ، وأنا على هذا الحال من المسير جلستُ على دكةٍ أخرى وقلتُ :

قاعدة (٤٣)

عَدَمُ الرِّضا بِالطَّعَامِ لَيْسَ لَكَ فِي السَّمْعِ مَقَامٌ، كُلْ لِتَقْوى عَلَى اللَّيْلِ التَّمَامِ.

وبعدها تعبتُ ولم أكمل المسير بل عدتُ أدراجي ، وكيف وصلتُ إلى بيتي لا أدري.

وبعد فترة علمتني أمي العجوز الأذكار والأوراد الصباحية والمسائية وبعد الفروض وفي وقت خاص، وبعد منتصف الليل، وبعدها قالت لي : سأعطيكَ الخِرْقة .

قلـتُ : وما الخرقة يا أُمي؟

قالـت: يا بني إنَّها مهمة جدًّا ، وهي من الإشارات يُعطيها الشيخُ لمُريده في حياته، ولا يأخذُها إلاَّ المُستحق، وهي قطعة من ثوب الشيخ أو ثوب كامل قديم قد دخل الشيخ به الخَلْوة ، ولا يُعطى إلاّ لقريب منه أو شخص استحقَ دون عناء ويسمى (الاختيار) ويُجمعون عليه، ويُطلق عليه اسم (مختار المكان) لا الزمان ، وهذه أمانة.

فقلـتُ يا أُمي : كيف هي قطعة من الثوب وتقولين أمانة ؟

فابتسمتُ وقالت: يا بني إنها ليست قطعة ثوب فقط، وإنّما هي العهد والوكالة يُعطيها الشيخ لمن يَسْتَخْلِفُهُ من بَعْده.

وقالـــت :

قاعدة (٤٤)

أَخْذُ الخِرْقة طريقُ الخلوة والتدرج فِي صَفَاء النَّفس والارتقاء ودخول ساحة المُشاهدة

فقلـتُ : يا أُمي : صبرًا صبرًا ، إني لم أفهم شيئًا .. فقالت / يا بني : إنَّ الخرقة وشيئًا آخر معها أمانة عندي ويجب أن أسلّمها للمُستحق.

وإنّي رأيتُ في المنام كأن الشيخ يأمرني : احملي إبريقي واذهبي إلى سوق الحميدية ، واعرضي الإبريق للبيع ؛ فمن تقابلين ويُحسن إليكِ فقد وقع عليه الاختيار، ورغم أني لم أفهم الحكاية إلاّ إنني بكيتُ وارتعدَت فرائصي، وجَلَستُ رغماً عني على الأرض.

وقالت : يا بني اسمع مني وتعلم بقية الأمر لعل الأجل قريب ، ويجب أن أكمل ما بدأتُ به ، فخُذ مني أبوابَ الإرشاد والسُّلوك .. قالت : اكتُب:

قاعدة (٤٥)

عَدَمُ الغَفْلَةِ مَحْوُ الذَّات .

"قاعدة بدون رقم"

يا بُني :

أمْسِك قَلَمَ الرَّيحان بمِدَاد بُحيرة الغُرَبَاء كي تكتبَ حروف النُّور على قراطيس الضياء في كتاب الوجود : لا موجود الاّ هو .

واكتب:

قاعدة (٤٦)

دوامُ الحُضور فَقْدُ العَقْل بين الحُضُور .

واكتب :

قاعدة (٤٧)

الطلبُ لَذَّة، والحُضُورُ حَلاَوَة ؛ فَلَذَّةُ الحَلاوة جَذْبٌ، والسُّرور بَسْط، والحُزن قَبْض؛ فَقَبْضُ الحلاوة بَسْطُ اللَّذّة، وهُو حَالُ العاشق .

يا بني اكتب :

قاعدة (٤٨)

أنتَ والنَّفْسُ شَخْصَان جاهلٌ وعالم؛ فالنفسُ الجهْل،

فإيّاك أن تتبع فتغدو بلا وطن .

يا غلام الطريق: انتبه واكتب؛ فإنَّ الفراق قريب، ولا أعلمُ متى التحقيق.

واكتُب :

قاعدة (٥٠)

مَنْ قَطَع البَيْنَ دَونَ نَظَرٍ فَذَاكَ نَظَرٌ، الْيَوْمُ سَاعَةٌ،

وَالشَّهْرُ نِصْفُ سَاعَةٍ، وَالسَّنَةُ لَحْظَةَ .

واكتب يا رفيق :

قاعدة (٥١)

الفَقْرُ أَعَلَى الْمَرَاتِبِ، لاَ يَصْبِرُ عَلَيه دُونَ خَاطِرَةٍ إلا نبيّ .

يا شفيـقُ اعلـم:

قاعدة (٥٢)

أنَّ خطأَ اللّسانِ دليلُ انشغال القَلْب، وغياب العَقْل ؛ فالقلمُ مرفوعٌ ، والمَصُون مصون ، والكلُّ يَهون .

واعلـم يا بنـي **:**

قاعدة (٥٣)

للبطن وَجْبَةَ، الثَّانية زائِدَة، والثَّالثةُ خَاسِئة .

أيها الغـلام :

قاعدة (٥٤)

حّول جَسَدك إلى أعين، وحَوَاسَّكَ إلى آذان، وجوفكَ كُلَّهُ إلى قلْب، وأركانكَ أقلام .

واكتـب :

قاعدة (٥٥)

السَّفر لأَهل الطريق تَدْقيق، والعُزْلَةُ تحقيق، وكلاهما للتنقيط ؛ فإن لم تجدْ فَسَافِر للوطن .

يا غـلام القلـم **:**

قاعدة (٥٦)

النَّسبُ والجَاهُ والمَالُ والسُّلطانُ والحَسَبُ أَساسُ الحِرْمَانَ ، فأسْقِط كم تُريد يأتيكَ البَريد .

وزد في الكتابة ونقط ما تكتُب ؛ فإنَّ الحُروفَ تتشابه إذا لم تُنَقط.
وقالــت:

قاعدة (٥٧)

النّسَبُ لَا يَزِيدُ فِي السُّلوك

إلاّ كَمَا يَزِيدُ قَدَحُ المَاءِ إِذَا صُبَّ فِي البَحْرِ.

يا رفيــق:

قاعدة (٥٨)

لا تُشفق على نفسِكَ، ولا ترفق بها عند المعاصي، واحملها على الطَّاعة، ورافق الصَّالحين وكُن مع الأتقياء، وارفق بأهل الغاية إن كانت لله، وابتعد عمَّن يأخذون الدنيا لعباً ولهواً .

واكتــب:

قاعدة (٥٩)

السِّرُّ وَالْوَقْتُ مُتَلازِمَانِ ،

فَاخْلِطْ بَيْنَهُمَا بِالْحفاظِ وَالْحِرص تَدُم لكَ الْإِرَادَةَ .

يا رفيــق:

قاعدة (٦٠)

اعلم أَنَّ غَايَة الغَايَات: التوحيدُ المَحْضُ الخَالِصُ وهو دَوامُ النَّفي والإِثبات : لا اله الا الله.

يا رفيـــق :

قاعدة (٦١)

الْقَبُولُ أَولُ الطَّرِيق، وَالتَّوَاجُدُ عَمَلُهُ،

وَالتَّوْحِيدُ جُدْ، فَدَارُهُ فِي الوُجودِ.

وفي اليوم التالي فتحتُ دكاني .. وكالمُعتاد أخرجتُ الأغراضَ ورتبتُها وباشرتُ عملي وقبل صلاة الظهر وأنا جالس في المحل حصل لي شيء غريب كأنني غفوتُ غفوةً بسيطة، ومع الغَفْوة رأيتُ رجلاً

مُعمّما بعمامة ما بين الصَّفراء والخضراء، لِحْيتهُ كثّة، جميلُ الوجه مقرون الحاجبين، أنفُهُ ليس بالمُدبب ، لكن ناعم الأنف .

فقال: اسمي الهُمَام .. وسلَّم عليَّ مع ابتسامة فرددتُ السلام وقلتُ خجلاً : أنا رفيق خادمكُم سيدي ... والاّ صحوتُ مع أذان الظُّهر ؛ ففكرت بكلام أمي العجوز التي قالت لي : إن هذه الخِرْقة لا يُعطيها الشيخ إلا للُمقرَّب أو المختار ، وإنّ الشيخ لم يُعْط الخرقة إلاّ لثلاثة أشخاص في حياته وأنا منهم.

وقال لي الشيخ في أحد الأيام:

هذه الخرقةُ أمانةٌ عندكِ توصليها إلى المُسْتَحِق

يا رفيق : كل هذه السنين كنتُ أفكر هل هذا الأمرُ حقيقة أو خيال أو وهم، وكيف لي بمعرفة صاحب الخرقة أو لمن تُسَلَّم ... وقالت :

قاعدة (٦٢)

يابنيّ : أكمل الطريق، ولا تنسَ نصيبكَ من الدُّنيا، وخُذ حظكَ من الآخرة ، وإيّاك أن تُهمل فتُهْمَل .

وبدأتُ أفكر وأنا في محلي باللقاء مع أمي العجوز لكي أتسلم منها الخرقة.

وهنا قال السيد طالب وهو يَقُصُّ الحكاية :

اكتب يا تحسين يا تسعين ثم تدارك كلامهُ وقال :

يا تسعين ما معنى الإخلاص ؟؟

فقلـتُ : أن يكون الشخصُ عَمَلُه لله .....

فقـال : اكتـب :

قاعدة (٦٣)

الإخلاصُ أن تعملَ أيَّ عملٍ تُريدُ بهِ وجهَ الله ، وشرْطُهُ أن لا يعلم النَّاسُ ما تفعل .

فقلـــتُ: يا سيد لم أفهم ...

قـــال: لقد أتعبتني اليوم فقم واذهب إلى سبيل الرشاد ، وغداً إن شاء الله نلتقي في موعدنا ، فقمتُ أذهب وحَضّرتُ أوراقي وأقلامي .

وقال : غداً سأعلمُكَ الإخلاص وافترقنا ...

التسول / تَعَلُّمُ الإخلاص

الموعد/ الجمعة عصراً

وصلتُ في الموعد، وطرقتُ الباب فسمعتُ الجواب كأنه أنشودة من أناشيد الحرب ، بل إنها طبول الحرب بل إنها الصَّاعقة :

اصبر يا عجول، وكن خجولا لا من الفُحول، بشاربٍ وعينٍ وقحة؛ فلزمتُ الصَّمتَ، وتذكرتُ وأنا جالس عند الباب عندما كان الشيخُ عبد الكريم المُدرّس يلقنني الأدب وهو يُعلمني الفقهَ فقال لي :-

قاعدة (٦٤)

طَلَبُ الرِّضا إيجادُ النَّفْسِ، وَجُهْدُ الوُصُولِ انقطَاعُ الْمَوْصُولِ؛

فَوَصْلُ الرِّضا هَجْرُ النَّوْم ، وَالطَّلَبُ دَوْمَ .

وتذكرتُ الشيخَ عندما كان يشرحُ الفرق بين العقل والنقل .. العَقْلُ وجذوتهُ ، والنقل وجذوره ؛ فقال : كلُّ هذه العلوم لا تؤثر إلاّ أن تتأثر ...

وقــال :

قاعدة (٦٥)

تَرْكُ الماضي وَمُحَاسَبَةُ الْحاضِرِ ،

وَالْاسْتِفادَةُ مِمَّا مرَّ لاستِقَامة الْمُسْتَقْبَل .

وقــال :

قاعدة (٦٦)

الْأُنْسُ هُوَ السَّعَادَةُ فِي الوِحْدَة .

وأتذكرُ تلك النظرةَ الثاقبة للشيخ المدرّس رحمه الله عندما كنتُ أسيرُ معه يومًا بعد صلاة الجمعة إلى بيت ابنه وهو يقـول :

قاعدة (٦٧)

العِوَضُ مَنْقَصَةُ الرِّجال، وردُّ السَّبّ مَسْخٌ للرِّجال ،

وخيرُ الرِّجال من جعلَ العفوَ أولَ الحُلول .

وجَلَسَ في السيارة من الخلف وجلستُ بُقربه؛ فأحسست بالدفئ والحُنو، وأنّي أملكُ كلَّ العالم.

وأنا بقُرب الشيخ سمعتهُ يُسبِّح وهو يُكرر هذه الآية :
(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (سورة الانفال : ٢٤)
نعودُ إلى مشهد الوصول عند بيت السيد طالب .. حيث خرج من غُرفته وقال : انهض .. فقمتُ .. وبدأنا الرحلة .. ونحن نسير من المدرسة الجيلانية إلى شارع رأس الساقية مُروراً بالشيخ الخِلاّني ثم إلى الجانب الآخر ونحن نسيرُ باتجاه سيد سُلطان علي.
وأخذنا الطريقَ باستقامةٍ في شارع الرشيد حتى وصلنا إلى بابٍ مصنوعٍ من الخشب شكله قديم جداً ويؤدي إلى سُلّم .. وكان مُغلقًا بسلسلة وعليه قُفل كبير، و البابُ مكسور من أحد أطرافه ؛ فالناظرُ يستطيع أن يري السُّلّم .. فقال السيد : إنّ في الأعلى مكتبة كبيرة ، وصاحب المكتبة يطلبني نصف دينار ، ثم أخرجَ سيجارةً(نوع بغداد) وأشعلها بعود من الثقاب ، وما زال ينظرُ إلى النّار وهي تأكل بعود الثقاب وتقترب من أنامله ، ولكنه تركَ النارَ حتى وصلت إلى أنامله فقال :
كم أنت باردةٌ يا نار !!
فقلــتُ: يا سيد / البارحة تكلمنا عن الإخلاص ولم أفهم معنى الكلام : إنّ من شروط الإخلاص أن تُظْهِرَ خلاف ذلك
فقــال السيـد : صَهْ .. وانتبه .. وحافظ على خواطر القلب .
ثم بدأنا بالسير ثانية حتى وصلنا إلى شارع النهر ومررنا بجوار المسجد الصغير (مكان اللقاء الأول) ثم المدرسة الخالدية فنظر السيد وقال:
لقاؤنا الأول كان هاهُنا فلم أتكلم؛ لأَنه قال : صه .. وحَافِظْ على خواطر القلب.
وبدأنا نسير في الشارع بين محلات الذهب والأقمشة والألبسة النسائية ، والشارع مزدحم، وملابس النساء ليست طبيعية؛ فالقصير والخفيف والعادي والألوان وهو أمر ثقيل على القلب ، ونقمة على النظر، وحريق للعقل، وطامّة للنفس، وساقية لا تنضح إلاّ نزيزَ ماء المزابل ... وعلى كل حال فقد أكملنا المسير حتى وصلنا إلى البنك وخلف البنك محكمة فنظر إليَّ وقال: ستتزوجُ من هذه المحكمة ..
فقلـت في نفسي : شخصٌ يتزوج من بِنَاية !!
إني مللتُ من الأحجيات ، ما هذه الحياة ؟

فتذكرتُ سيدنا موسى مع سيدنا الخضر (عليهما السلام) ..
فقلــتُ : نبيٌ لم يتحمل ... لماذا أنا أتحمل ؟!
فقــال : يا تحسين : إن الدرس والعلم سيجعلان لك نصيبًا من اسمك ثم نظر السيدُ إلى البنك، فقال بنايةٌ كبيرة ولكنها ستحترق !!
ثم دخلنا الجانب الآخر وهي نهاية سوق الشورجة من الجانب الآخر ويتميز هذا الجانب بمكائن الخياطة والمعدات، والجانب الآخر بالمواد الغذائية والعطارة والأعشاب..
وبدأنا المسير حتى أني نسيتُ أسماء الأماكن من شدة التعب فلم أنتبه من أين دخلنا ومن أين خرجنا .. وما رأيتُ نفسي إلاّ في منطقة باب المعظم ونحن نسير باتجاه المكتبة الوطنية ببغداد .. وعندما وصلنا أجلسني السيدُ في الطرف الآخر من الشارع وقال: اجلس هنا فجلستُ للراحة وأنا أنظر إلى السيد وهو في الجانب الآخر أي عند المكتبة .. وبدأ يتسولُ ويسأل الناس فما كان مني إلا النكران.
فقلتُ: إني أصاحبُ مجنونًا حاشاهُ من الجنون بل مسحورًا حاشاهُ من السِّحر، بل أُصاحبُ رجلاً مُستغلاً حاشاهُ من الطمع والاستغلال .. والسيد يتسول .
وفجأة شاهدتُ السيد أمامي وقد جَمَع كثيراً من النقود وبدأنا نسير ثم قطعنا الشارع فدخلنا ساحة الميدان وهي قريبة من المكتبة، وعند بناية المحافظة محافظة بغداد فرع ضيق؛ فدخلنا منه، وكان على الشمال كنيسة قديمة ، وبعد الكنيسة زُقاق طويل ؛ فأخذنا نسير في الزقاق ، ثم استدرنا استدارةً بسيطة ودخلنا زُقاقًا آخر حتى وصلنا إلى حي فقير فيه أناس مُعْدمون فبدأ السيد يُفّرق النقود ونَظَر إليّ وقال: كم تحمل في جيبك ؟
فأخرجتُ ما معي فأخذهُ وَفَّرقَهُ أيضًا وقال: هذا كي تتأدب ...
ثم قــال : أفهمتَ الإخلاص ؟
فقلــتُ بكل احترام وتأدب وسكينة : نعم يا أُستاذ.
فقـــال : يا تسعين / يا ذا العقلين (أبو عقلين) هذا هو الإخلاص ..
ثم رجعنا إلى حيث كُنّا في الميدان .. واتجهنا إلى منطقة (الحَيْدر خَانة) وهناك عند المسجد جلسنا ..
وقــال لي : اكتُب ..
فقلــتُ في نفسي : بعد كل هذا التعب أكتُب ..

يا ليتني كنتُ نسيًّا منسيًّا ..
فقـــال : كفى من خواطر النساء .
واكتــب:

قاعدة (٦٨)

حاول دُخُول الغَفْلَة مَعَ التَّذكُرِ أَنَّكَ كُنتَ في الذّكْر .

فقلــتُ: يا شيخي لم أفهم ..
قــال: كثيرٌ من الناس عندما يصلون يحاولون طرد الأفكار والتركيز في الصلاة والخشوع ؛ فلا هم طردوا أفكارهم ولا هم صلوا صلاة حضور ؛ فإذا فعلتَ العكس كما قلتُ لك في القاعدة كنتَ في حضور على الدوام...
واكتـــب:

قاعدة (٦٩)

الْفُرُوضُ دَليلُ الْعبودِيَّةِ ، وَالدُّعَاءُ دَليلُ الرُّبوبية ؛ فَاخْتَرْ كَيْفَ تكون .

وقال أيضـًا :

قاعدة (٧٠)

الحواسُّ لَهَا مَدَى ؛ فإنْ وَصَلَت حَدَّهَا عَجِزَت ، وهي تدورُ حولَ الرَّسْم والحد إلاَّ بما

(عَلَّمَ آدَمَ الأسمَاءَ كُلَّهَا) نخَارِجُ الحُدود في اللاَّ محدود ..

ثم سمعنا المؤذنَ يُؤذنُ لصلاة المغرب ؛ فدخلنا المسجدَ وتوضئنا واستقبلنا القبلة وصلينا ، وبعد الصلاة قال السيدُ : هيا لنأكل؛ فتعجبتُ كيف نشتري الطعام ونحن نسير من مسجد (الحيد خانة) إلى ساحة (معروف الرُّصافي) وركن الجام (عَكْد الجام) باللهجة العراقية .. فوصلنا إلى فرن للخبز فسلم السيدُ عليهم وأَخَذَ قطعتين من الخبز المسمى بـ (الصَّمّون) ثم اتجه إلى مقهى قريب ونادى بهذا الأسلوب نصًا فقال : يا جَحْش .. هاتِ قدحيْن من الشاي وليس (الاستكان)؛ فما كان من صاحب المقهي إلا أن ينتفض من مكانه وبكل أدب ويقول نعم يا سيدي؛ فجلسنا على الرَّصيف في الشارع وأكلنا الصمون وشربنا الشاي، وبدأ

يدخنُ سيجارةً نوع (بغداد) وهذه المرة لم يُشعل السيجارة بل وضعها في فمه فقام صاحبُ المقهى بإشعالها قائلاً بكل أدب : خادم يا سيد ...

والسيد كان معروفًا في بغداد أينما ذهب؛ فبعضهم يُسميه: السيد المجذوب، وبعضهم يقول: السيد السائح وبعضهم يقول: إنه من الجنود عندما يظهرُ صاحبُ الجُهود، وألقابه كثيرة وأسمائه أكثر وهو طالب أبو العباس.

ونحن نسير سألني السيد : ما هو شعورُ آدم وهل كان جميلاً عندما نَزَل إلى الأَرض وكان يدعو الله وحدهُ ويعلم أنه الوحيد على الأرض ويدعو الله الواحد الأَحد الذي لا شريك له أن يغفر له ، ويجتمع بحواء من جديد.

وفي هذه الأَثناء تَمْتَمَ السيدُ : الله هو الواحد الأَحد الذي ليس له مكان ولا زمان (ليس كمثله شيء) .

والحقيقة أنّي لم أُدرك هذه الشعور إلاّ عندما كنتُ مسافرًا إلى أوروبا ، وبالتحديد في منطقة (شمال السويد) في مدينة (بييتو) .

وفي أحد أيام الصيف في يوم العطلة الأسبوعية قال لي صديقي : لنخرج ونصطاد السمك.

فقلتُ له : إنّي لا أعرفُ ولم أجرب صيد السمك

فقال لي: إنَّ المكان جميل .. بحيرة وسط غابة بعيدة عن الناس، تجلس وتكتب وتقرأ وأنت تصطاد السمك وتأكل قطعة من الجبن والخبز علماً أن غروب الشمس في الساعة الواحدة ليلاً وهو الغروب الجُزئي أي إن الضياء يملأُ المكان .. والشروق بعد ساعة أو ساعة ونصف حتى يعود إلى الحالة الطبيعية ، وكذلك في الشتاء فالظلام أَشْهُر كما في الصيف النهار أشهر.

ثم وصلنا إلى فُسحة صغيرة بين الأشجار؛ فأوقفنا السيارة ورأينا عدة سيارات واقفة في جهات متعددة من المكان ، وصندوق من حديد مثبت على الأرض ، وصندوق من المطاط مُعلق فوق صندوق الحديد ، فتُخرجُ ظَرْفًا من صندوق البلاستيك وتضع أجرة المكان (١٠٠) كرون بعملة السويد تضعها بطريقة فنية في الصندوق الحديد... وبعد هذه العملية أنزلنا الأغراض : سِنّارات صيد السمك ، وإبريق شاي وكيس سكر وقليل من مربى التوت البري في علبة صغيرة ، وكيسي وفيه (سجادة وغترة خضراء ومَسْبحة صغيرة مصنوعة من الحَبّة الخضراء

إرث عمي، وخاتمي والحجر الذي هو إرث السيد طالب ، وبعد كل هذه السنين مازال هذا الخاتم في يدي وفيه الحجر، والمَسْبحة كذلك .. وأحمل بعض الأغراض في يدي ، واتجهنا أَنا وصاحبي نحو البُحيرة ، ثم دَخلنا في الغابة وبدأنا نسير على الطريق الترابي ثم على ألواح خشب موضوعة على الجداول المائية التي تُغذي البحيرة حتى وصلنا إلى مكان فيه كوخ صغير وطاولة ومخزن للخشب وفأس من حديد ، وصَبّة (دكة) دائرية كي نُشعِلَ عليها النَّار ؛ فعلمتُ أن المائة التي دفعناها آنفًا هي ثمن للمكان والحَطَب وصيد السمك...

أَشعلنا النار ووضعنا الإبريق ، وجَهّزَ صاحبي سنّارتَهُ ، وأما أنا فتوضئتُ وابتعدتُ قليلاً عن صاحبي وفرشتُ سجادتي ، وقبل أن أُصلي سمعتُ بعض الأَصوات بين الحين والحين دليل الحضور من الناس في المكان كأنها أَصوات حفل أو اجتماع يشربون الخمر مع الألفاظ البذيئة حيث الناس هنا في أيام عطلة (إجازة) ويفعلون ما يشاءون.

فتذكرتُ قول السيد طالب عندما سألني عن شعور آدم عليه السلام عندما كان هو الوحيد على الأرض يدعو الله الواحد الأحد.

فتخيلتُ أن هذه الغابة الكبيرة كل من فيها يشربون الخمر ويفعلون المعاصي وينغمسون في الشهوات ، فقبلتُ الخاتم ..وتذكرتُ السيد.. وتخيلتُ نفسي آدم فدعوتُ الله وكلي ألم : **اللهمَّ اجْمَعْ شمْلَ هَذهِ الْأُمَّة، اللهُمَّ سَكّنِ النُّفُوسَ ، وَخلِّصنا مَنِ الطّوَاغِيت وَمِنْ الَّذِينَ يُفرّقون طَوَائفَ وَمَذَاهِبَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ نَجِّنَا مَنِ الْمُجْرِمِينَ ، اللَّهُمَّ نَجِّنَا كَمَا نجيتَ يُونُسَ عَلَيه السّلامَ وَكَمَا طَهرتَ أَيوب وَكَمَا خَلّصتَ نُوحًا ، وَكَمَا بَلّغتَ سَيِّدَنَا محمداً إلى غايتهِ صَلَّى اللهَ عَلَيه وَعَلَى آله وَسلَّم وَعَلَى جَمِيعَ الأَنبياءِ ..**

وعندما كنتُ أدعو حدثت لي حالة غريبة لا أملك المفردات اللغوية كي أَصفها، هل كانت غيبوبة أم لا شُعور بالنسبة للعالم الخارجي فلما صحوتُ : رأيتُ صاحبي واقفاً على حافّة البُحْيرة بيده السِّنّارَةُ وهو ينتظر السمك..

إن الحالة التي كنتُ فيها لا أستطيع تحديد الزمن لكني شعرتُ بالنَّصْر على إبليس اللعين ، وعلى غواية النفس ، وحظ الشهوات ، إنهُ شعور أرجواني بّراق جميل وحالة رائعة رائقة من الجَمَال والجَلال ..

وبعد الحديث عن آدم عليه السلام قال لي السيد طالب اكتب:

قاعدة (٧١)

اسْلُكْ طَرِيقَ المَوْتِ تَحْياَ عَاشِقًا، واجْعَل إِرَادَتَكَ مُخَالِفةً للهَوَى، واثبُت فِي مَقَام الهُدَى.

وقــال :

قاعدة (٧٢)

اعلـم أنَّ حَلاَوَةَ الإِيمان تُفْقَدُ بالاعتراض ، أَدناها أُفٌّ حَرٍ ومَا هَذا الَبْرد، وإيجادُها انقطاعٌ لاَ ارتفاع .

ثم سألني السيد : ما الفقر ؟؟

فقلــتُ : الجوع وقلة المال والحاجة إلى الناس و ..... فقاطعني وقــال:

قاعدة (٧٣)

افتح عينيكَ لترى عَرُوس البحر ، واجلس منّي مجلسَ العلم لا السّلْم ، وليكُن سِلاحُكَ في مُحاربة الجهل بالقلم.

ثـم قــال :

قاعدة (٧٤)

الفَقْرُ هو الاطمئنانُ في العَدَم، والانفاقُ دون خشيةٍ عندَ الوُجود .

ويا شوكَ الورد اعلم:

قاعدة (٧٥)

مَنْ سَاسَه العِلمُ ، وآنَسَهُ الذكر، وهَذَّبَهُ الزُّهد وشدة الورع، واليقين أثبْتَهُ فَقَد استظلَّ بِشَجَرة العِشْق.

ثم قــال : هيا بنا كي نعود إلى خلية النحل لا نعلم أنحن الذكور للقتل أم العاملات لجمع الرحيق.

وقـال: نحن فعلاً بحاجة أن نُنقي أنفسنا بـأثواب الملائكـة .. وأن نُطهّر قلوبنـا، وإن كـان بالاستطاعة أن نشـتري القلـوب **"إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"** وفي طريق العودة وصلنا إلى ساحة الفردوس فقــال السيدُ :

اذهـب مـن هـذا الشـارع (شـارع الكفـاح) .. وأنـا أذهـب إلـى منطقـة النهضة لجلب العظام لكلاب المقبرة..

فافترقنا وعدتُ إلى البيت .. وفي الطريق تذكرتُ تسبيحةً تعلمتُها عن جدي الإمام جعفر الصادق : "ما شاء الله لا قُوة إلا بـالله" جزءٌ من أيـة ؛ فبدأتُ أُرددها حتى وصلتُ إلى زُقاق منطقة (المِشَادة) قرب فَضْوَة عَرَب وهي من منطقة باب الأَزج ، ثم وصلتُ إلى الباب الكبير وهي باب قديمة كبيرة تسمى **(باب الدَّرْبُونَة)** وتعني (باب الزُّقاق) .

ومـا إن وصـلتُ إلـى البيـت إلاَّ وأصـابني الـدوار .. وشـعرتُ بالتعـب الشـديد .. ومـا إن طرقـتُ البـاب ودخلـتُ إلاَّ وارتميـتُ فـي فنـاء الـدار أنـا وأوراقي ودخلتُ عالم النوم ولم استيقظ إلاَّ في منتصف الليل.

الحِــــرْقَــة

رفيق ينتظر، وهو يُجّهز دُكّانه ويُرتِّبُ الأَغراض ، وقد جَلَس في باب المحل في ذلك الصباح المملوء بالسرور والمحلى بالسكر، والمُضيء ببريق الزَّبرْجَد وضوء الشمس مع أنغام العصافير الموجودة على الأَشجار المحيطة بسوق الحميدية والجامع الأموي، علماً أنني لم أدخل هذا الجامع قط ، وكنتُ أنظر إلى جُدرانه الشاهقة وبناءه المتين ، وقد علمتُ أنها كانت كنيسة والأُمويون بنوا عليها هذا المسجد ، أهو الحق أم الباطل؟!!!

نهدمُ كنائس إخواننا كي نبني عليها مساجداً ؟!!

إنَّ المسلمين لمَّا دخلوا بيت المقدس لم يغتصبوا أو يهدموا كنيسة بل أعطوا للجميع حقوقهم وأقاموا العدل ..

أما كان الأجدر بالأَمويين أن يقتدوا بسنة النبي والخلفاء الراشدين من بعده أم إن المُلك العَضُوض قد أَفْقَدَ العَاقِل عَقْلَهُ ؟؟

وفجأة ظهرت العجوز (أم البركات)

وهي تقول **لرفيق** صباح الخير ..

فقبَّل رفيق يد أمّه العجوز ، وقال : صباح الخير والبركات يا أمي .

فقالــت : يا بني استبشر خيراً .. إنّي رأَيتُ في المنام الشيخ همام وقد أعطاني عوداً أخضر .

فسألــتُ : يا أمي ما تأويل الرؤيا ؟

قالــت : يا بنُي إن لك حظًا في طريق العرفان ..

ثم قالت : هيا أغلق الدُّكانَ ولنذهب كي أعطيكَ العهدة والأمانـة ؛ فإن الطريق طويل ويحتاج إلى الزاد والراحلـة ؛ فزادُك التقوى .. وراحِلتُك الاستقامة .

قال رفيــق :

فأغلقتُ الدكان ورتبتُ الأغراض وبدأتُ أسيرُ مع أمي وهي تحمل في يدها كيسًا أبيض من الخام كالذي رأيته في يدها أولَ مرة .

وأثناء السير قلتُ لها : يا أُمّي إلى أين ؟

قالــت : إلى مقبرة ركن الدين ؛ فهنـاك قبـر الشـيخ (شـمس الـدين) كـي تستلم الأَمانـة ، وهـي عبـارة عـن خرقـة مـع إطـار قديم متـين ذي نقـوش وأسرار.

وهو إطارُ لوحةٍ أو لشيء لا أعرفُه.

وقد سمعتُ أنه أَمانة الشيخ التبريزي إلى البَلْخي ثم إلى الشيخ إبراهيم ثم الشيخ إسماعيل ثم شيخ النهر ثم الشيخ شمس الدين.

وقـد أُمـرتُ بالتسـليم ووقـع الاختيـار عليـكَ فـاربط الجـأش ، وتحلّـى بالصـبر ، وكُـن حليمـاً ، فـالموازينُ قد انقلبـت ، والحجـارة فيهـا العسـل، والعسل منهُ السم، والسمُّ آفةُ الطريق فابحث عن الترياق .

ونحن نسير قلــتُ : يا أمي ألاَ نركب فإن المسافة طويلة ؟ !

قالـــت : أمُّكَ كـل يـومٍ تسـير مـن منطقـة (كفـر سوسـة) إلـى السـوق (دكانك) وأعود بنفس الطريق وأنا في التسعين من عمري .

ألاَ تخجل من نفسك أيها الشاب ؟

وأنـت الآن قـد تخطيتَ الأَبْجَديـة .. وأنـت الآن فـي مرحلـة التكـوين ، وبدأنا المسير جنبًا إلى جنب .

فقالت :

قاعدة (٧٦)

الحَقَائِقُ تَستترُ وتظهر ، إن استترتَ فَلاَ دليلَ ولا خَبَر ،

وإن ظهرت فبالدليل والخبر .

فقالت العجوز :

يا شَفيق شمس الدين ، قلتُ : «وما شمس الدين ؟»

قالــت : هـذا لقـب جديـد مـن ألقـاب السَّـير والسـلوك ؛ فأنـت مـن اليـــــــوم شمس الدين .. واسمع يا شمس الدين :

قاعدة (٧٧)

القُرْبُ بِالَمظَاهر بُعْدٌ بالجَواهر من قَالَهَا لم يَذُقْ ، وَمَن ذَاق فبالفَيْض يَخْرُج لا بغيظٍ مبني على الرّياء .

أخذنا في المسير والحديث ينقلنا منٌ عـالم إلـى آخر حتـى وصلنا إلـى سفح جبل (قاسيون) منطقة ركن الدين ولا أعلم كيف وصلنا ؟؟

نحن أمام مسجد الشيخ محي الدين ابن عربي ..

فقالت : أُنظر إلى هذا القصر العظيم وأنـا لا أرى قصـراً بـل مسـجدًا بسيطًا والأَزبال من حوله .

وَهُو سوق للخضار واللحوم والأسماك ، **والمكان ليس نظيفًا فجوانبُ المسجد تُجْمَعُ فيها الأوساخ ..**

فدخلنا المسجد وذهبنـا إلـى ركـن الأركـان قـرب غُرفـة مـن الغُـرف ، سَلَّمَتْ وبَكَت وقالــت:

هُنا قبر الشيخ شمس الدين ، بَاحـة المسجد كبيرة وهو مـن الطـابوق العَريض **الفخاري** ، نظيف جدًّا من الداخل، وعند الدخول علي اليمين منطقة الوضوء ، وعند النزول إلى آخر الركن الشمالي قَبْر الشيخ محي الدين ابن عربي، والنزول إليه بثلاثـة إلـى أربعـة سلالم ، والدخول من باب ضيق وكان المسجد هادئًا في الصباح ودخلنا عند القبر فقالت يا بنـي :

قاعدة (٧٨) :

أولُ تَسْبيحة تُلازمُهَا : الذّكْرُ بالخَفَاءِ وَالقَلْب ، وما إن سِرْتَ وخَرَجْتَ بين النَّاسِ إلاّ وتقول في سِرِكَ :

« يا هو يا من هو يا من ليس إلاَّ هو » .

وهي تقول هذه الكلمات تعجبتُ كثيراً !! كيف وصلنا قبل الظهر إلـى المسجد ، وكان الوقت ضحى ، ونحن خرجنا من سوق الحميديـة السـاعة

الثامنة أو التاسعة إلاّ ، والطريق يحتاج لقطعه ما يُقارب ثلاث ساعات أو أقل قليلاً علي سير العجوز ..

وهي التي حملت الكيس؛ لأَنها لم ترض أن أحمل الكيس عنها ، وقد وقَفْنَا عندَ القَبْر وقرأنا الفاتحة ثم جلسنا عند أحد أركان المسجد ، وإذا برجل يُسلم علينا اسمهُ إبراهيم ويلبس زِي أعراب البادية ؛ فردتْ العجوز كأن بينهما معرفة وجلس عندنا وبعدها بقليل سَلّم رجل آخر علينا ، كذلك بِزِي الأعراب ، وجلس وكأنهُ يعرفنا ثم قالت العجوز: «أشكركما على الحُضور» .

فقالا: نحن نشكركِ يا حاجة زينب فَعَرفتُ أن اسم أمي العجوز (زينب) .

فقالت : كما تعلمون إني رأيتُ منام الإبريق وبعدها منام العود الأخضر، ووقع الاختيار علي شفيق رفيق ولقبتهُ بشمس الدين ....

فاعترض أحدهم وقال: نُسّميه شفيق الدّين أَو شرف الدين فاتفق الكل علي شفيق الدين ، وبدأوا يتكلمون فيما بينهم كأن هناك قضية صعبة مُعقدة ، والكلام حول الدرجات والمنازل والمقام والحَصْر والتعطيل ، وقد انحصر بين جبلين ؛ فتخيلت فى نفسي كأنَّ غولاً كبيرا أراد أن يدخل مضيقا بين جَبَلَيْن فلم يستطع .

ولكن الكلام ليس على الغول والجبل ، بل هو في الانتقال كدرجات الدنيا من مرتبة إلى مرتبة ..

وكانوا يقولون : إننا وصلنا إلى اليوم الأخير بعد التجربة الأَخيرة وهذا هو اليوم الأَخير لتسليم الأمانة ، إما أن نُسلم أو نعيد التجربة ، وكنتُ ساكتاً أسمعُ ولا أتكلم ، وتعجبتُ من هذه الألغاز والعبارات وقُلت في نفسي : بَدَأت القضيةُ بإبريق من نحاس ، وانتهت إلى أمر محال كأن أمرًا قد دُبر بليل ولا علم لي ، وأَحسستُ أَنَّ أمراً عظيماً سيحدثُ لي ، وتغييراً جذرياً سيقلعني من هذه التربة إلى تربة أخرى.

ثم قالت الحاجة زينب (أم البركات) :

يا بنيّ تعال واستلم هذا الإطار الثمين العجيب ، ثم وضَعَت يدها على رأسي وقرأت الفاتحةَ ، وكل من الأعرابيين وضعا أيديهما وهما يَقْرئان سورة الإخلاص ثم سلَّمَا وانصرفا.

ثم قَرأَتْ أُمِي العجوز أوائلَ سورة الحديد ودَعَت لي الله بأن يجعلني من أهل السير والسلوك، ويُبعدنيَ عن البدعة، ويجعلني من أهل الخير

والعشـق والأَثـر، وقالـت: الخِرْقـة تُلْـبَس، والإطـار للبَحْـث والترقـي وانـصرفَت دون سلام، فأردت أن أُناديها فلم أستطع ، كأن القيود قَيّدت جَسَدي وكأن شخصا قد خَيَّطَ **فمي بشعر** الجمل ..

والكيس الأبيضُ في حِجْرى فيه الخرقة والإطار ثم بعد دقائق بدأتُ بالحركة وكأنني أسقطت عن كاهلي جبلاً من حجارة ، فقرأتُ الفاتحة وخرجتُ من المسجد أحملُ الكيس وأسير ببطء في هذا السوق المكتظ بالنَّاس ولم أُصلِّ الظهر؛ فما إن وصلتُ إلى نهاية السوق حتى استأجرتُ عربة كي أعود إلى بيتي ..

فقال سائق العَرَبة : إلى أين يا سيدي ؟؟

قلت : بصوت ما بين الهمس والعلة : إلى البيت.

قال السائق : وأين البيت ؟؟

قلت : كورنيش الميدان .

وأنا في الطريق حائر هل سأتذكر بيتنا ..

يَومُ الصِّيَام

من الأُمور العِبادية المُستحبة عند السيد طالب صيامُ "الاثنين والخميس" ، ونادراً ما كان يفطر، وهو في الأَصل لا يأكل شيئًا ولذلك لا أعلم إن كان صائماً أو لا ..

وكان السيد دائما يقول لي : يا غَلَيان الماء ضع الثلج وكُن في البَلَج .

وكان يقول :

<u>قاعدة (٧٩)</u>

الصيام جُنّة وجَنّة، ويَجْعَلُكَ تَلزَمُ جانَب الحَق ، وهُوَ وِجَاء ووعاء وَوعي ولا ماء من ماء .

كالمعتاد ذهبتُ بعد العصر وعند الوصول طرقتُ الباب ، ولكنه هذه المرة كأنه واقفُ خَلفَ الباب ففتح الباب بابتسامة ..

وقال : كيف أنت يا بني ؟

قلتُ : الحمد لله يا سيدي

قال : كيف صحتُك ؟

قلتُ : الحمد لله

قال السيد : هل جلبتَ الأَغراضَ والأَوراقَ والقلم ؟

قلتُ : نعم يا سيدي .

قال : أمستعد للمشي؟

قلتُ : نعم يا سيدي

قال : أنعم الله عليك بالبركة والخير

ثم قال : ما اليوم ؟

قلتُ : الاثنين وَأنا صائم .. هل أنت صائم يا سيدي ؟؟

قال : تَأَدَّب ...

ثم قال : انتظر قليلاً .. فدخل إلى غُرفته وأغلق الباب ، وجلستُ عند الباب .. وبعد قليل خرج السيدُ

قال : هيا بنا إلى المجنون المجذوب عَبْد .

وقال : أتعرف (عَبْد) ؟

قلـتُ   : لا أعرفُه ، ولكني رأيته كثيراً يقف بالقرب منا في هذا الشارع ، أليس ذلك الرجل الأسمر الذي يضع قطعةً من الورق علـى فمـه ؟

إن كثيراً من الناس يتكلمون عليه ويقولون فمهُ مُشوه ؛ فأجاب السيد : كَذَبوا .. إن عبْد كان أستاذاً كبيراً في الرياضيات والكيمياء ، وكان يُدرّسُ في إحدى المدارس المرموقة ، ولكن الحادثة وكرر هذه الكلمة واسترسل بالكلام

...

وقــال :

بعد وفاة زوجته صار انطوائيًّا لا يختلط بأحد كأنه اعتزل الدنيا ، بل المؤكد أنه بوفاة زوجته طلّق الدنيا، كأنَّ الدنيا زوجته فتخاصَمَا فطلقها وهو الآن يعيش في مكان غريب الأطوار، غرفة صغيرة وسط مكان مليء بالنُّفايات ..، وهنا كأنَّ كلامًا خرج من فمي بلا شعور فقُلـتُ : إذاً هو ليس نظيفًا !!

فقال السيد طالب : ألم أقل لك تأدَّب ، إيَّاكَ أن تتكلم عن الناس ، فَكّر قبل أن تُخرج الكلمات من فَمِكَ ، واجعل للسانك قيداً ..

ثم قـال : فُطُورنا اليوم عند الشيخ عَبْد .

فقلـتُ في نفسي : رجَلُ يعيشُ وسط النفايات أنذهبُ ونأكل عِنْدَهُ ، والله إنـي فـي ورطـة وأي ورطـة ، وكـل يـوم لغـز ونكتـة واختبـار ، لقد تعبتُ وأصـابني الملـل ، وتـذكرتُ طَبْخَ عمتـي عنـدما كانـت تصـنع لـي البرُغـل بفِشَّة الخروف (الرئة) مع البصل الأحمر.

إنها أكلة بسيطة لكني اشتقتُ إليها..

ثم قــال السيــد / هيـا بنـا ، وبـدأنا نسـير ، وكـان السيد يتوقـف ويلتفت يميناً وشمالاً ثم يعود بخطوات إلـى الخلـف، ثـم يتقدم كأنّـهُ يتـأرجح علـى كرة في وسط بحيرة ، ويحاول أن يتزن عليها فتعجبتُ من ذلك ، وقد بـدأ الطريق بسوق الصدرية ثم على يساره مسجد قديم وخلفه محـلات كبيـرة لتخزين القمح والشعير والبذورات الأخرى .

وخلـف هذه المحـلات خـان كبير لـربط الخيـول ، وخلـف الخـان محـل صـغير جداً لبيع البـاچــة (رؤوس وأطـراف الغنم) وهـي أكلـة شـهيرة فـي بغداد .

ومقابل المحل ساحة كبيرة تسمى (العُويْنة) كان الأولاد يلعبون فيها كرة القدم.

وبعد ذلك شُيّدت فيها بنايتان كبيرتان مقراً لأمانة العاصمة بل (خيانة العاصمة) ؛ لأنه منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا الذي نكتب فيه رواية العشق وبغداد مليئة بالنفايات ، والخدمات سيئة فيها جداً من الصرف الصحي ومياه الشرب والطرق والكهرباء والمدارس والمستشفيات وغيرها.

إذا تصورنا بغداد اليوم أو في الزمن الغابر ، مدينةٌ طُرُقها بسيطة ، (٧٠%) من أبنيتها قديمة ، ليست فيها ناطحة سحاب ولا مترو الإنفاق ولا قطار سريع ولا شوارع عريضة ولا مستشفيات حديثة ولا مدارس متطورة ، عدا بعض المناطق التي فيها أهل السياسة والرئاسة والقرابة من ذوي السلطة ، فهم يعيشون تحت القبة الذهبية بل تحت الخيمة التي ظلها يُنبت الفطر ، ويخرج من الفطر عسلاً ومن العسل شرابًا سائغًا لذة للشاربين .

وإذا قارنّا بغداد بأي دولة من الدول التي تتباهى بعاصمتها وتقول : عاصمة الدولة الفلانية وفي ذات الوقت قارنّا بين ميزانية العراق وثرواته وعدد السكان مع تلك الدول نجد بما لا يقبل الشك أننا أغنى من تلك الدول ، والتفاوتُ ليس في مرة ولا مرتين بل بأضعاف المرات ، فإذا أجرينا مقارنة مثلاً :

فالسويد : عدد سُكانها : (٩) مليون نسمة وميزانية السويد : (١٠) مليار كرون بعمله السويد المحلية ، وكل (١٠٠) دولار = ٦٥٠ كرون .

ومع ذلك نجد في السويد أرقى الطرق وأرقى الأنفاق وأفضل الخدمات ، والماء عندهم أنقى من الماء الموصوف في قصائد الشعراء العرب حينما يتغزَّلون بالماء .

والفقير السويدي ورئيس الوزراء يشربان من نفس الماء ، بشرط أن تفتح الحنفية (صنبور الماء) مدة (٢٠) ثانية ثم تشرب .

وأما الضمان الصحي والأدوية والعلاج المجاني والتعليم والجامعات المتقدمة فحدث ولا حرج .. ودور رعاية المسنين والعجزة تفوق الوصف "يا ليتني كنتُ عجوزاً" وعندما يصل الإنسان إلى أرذل العمر فإنه لا يستطيع خدمة نفسه بنفسه فتكون لهُ غرفة خاصة مُهيئة بكافة وسائل الراحة .. ويعينوا له مُوظفيْن يقومان بخدمته ، وأما اللقيط و (ابن

السفاح) وابن النكاح فلا يمكن التمييز بينهم فلهم جميع الحقوق بالمساواة .

وبالنسبة للخدمات الاجتماعية والأوراق وتسهيل المعاملات ففي غاية السهولة، وأنت لا تراجع الدوائر وإنما تتواصل بطريق البريد ووسائل الاتصالات ، ويصلك كل شئ إلى البيت .

ونسبة الأمية عندهم لا تتجاوز (٣%) ، وأما تعامل الموظفين فكأنك تتعامل مع أمك وأبيك وأنت مريض ، يدورون حولك ويخدمونك ويطلبون الرضا هذا هو حال الموظف في تلك البلدان.

وأما النظام والقانون فإن هذه الأمور عندهم نصوص فوق النصوص الربانية .. و أمّا نحن فنتلاعب ببعض النصوص تأويلاً وتفسيراً .

والأمر الآخر : من يكذب في المحاكم لا حُقوق له ، وعدوهم الكذّاب ، والموعد مُقدس .

وأما المجنون يا ليتني كنت مجنوناً فأدور في شوارع تلك البلاد ، فللمجنون الحماية والرعاية الخاصة و....... و.......... وحدث ولا حرج .

وأما القطط والكلاب فلها كل الحقوق .. واحذر أيها القارئ أن تسول لك نفسك وتعتدي علي كلب في تلك البلدان كأن تصدم كلباً بسيارتك أو تضربه بحجر ... صَدِّق أن الحجر يكون مقابض من حديد في يديك وإن صدمت كلباً بسيارتك ولم تعتذر منه وتأخذه إلى المشفى ؛ فإنَّ ريقك سيجف وجيبك سيُشق ، وسيُنبتون لك قلباً آخر في الجهة الأخرى من الصدر حتى ترتدع وتتوب من فعلتك هذه ..

نعود إلى (خيانة العاصمة) وساحة (العوينة) والسيد طالب يجلس في وسط الساحة فقال : سنجلس هنا لنكتب بعض القواعد ثم نذهب مع الغروب إلى بيت عبد .

وقــال : اكتب يا بُنيّ :

قاعدة (٨٠) :

القُرْبُ إحساسٌ يَتَوَلَّدَ مِنْ كَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَمُلاَزَمَةِ الشَّرْعِ ، وعدم الْحِيَادَ عَنِ الْجَادَّةِ ،

وَهُوَ أيضا مَقَامٌ يُعْطَى إلى الْمُلْتَزِمِ فِي الدُّنْيا ،
ويُسَمَّى الرُّتبة مَا بَيْنَ الْعَارِفِ وَالصَّالِحِ وَالْوَلِيِّ ، أوعَارِفٍ وَلِيٍ صَالِحٍ،
وَفِي الآخرة عِلْمُهَا عِلْمُه"

فسألته : يا شيخي : وما الرتبة ؟

قاعدة (٨١) :

الرُّتَبَةُ مقامٌ يُعطى للعبْد الصَّالح، فيدخل دائرةَ الخِدْمة ..
أي : إنّ الله يستعملهُ في سبيله فهو المُسْتَخْدَم، ولهُ الدَّرجات إما ناصِحٌ أو مُصلح .

فقلــتُ : يا شيخي : وما الدرجة ؟؟
قـــال :

قاعدة (٨٢)

هي التفاوتُ بين النَّاس ، ولكن ليس بالمال والولد ،
بل بكثرة الطَّاعة تكونُ لكَ القوةُ المُطاعة .

ثم قــال لي : انهض كي نذهب إلى السيد عَبْد .. وفي الطريـق قـال لـي : إذا تعرَّفتَ على عَبْد سوف تكرهُ الدنيا ، وتتغير أحوالك كثيراً .
وقبل الوصول إلى الزقاق المؤدي إلى بيت عبد توقفنا ..

وقــال يا بنـي : اكتُـب:

قاعدة (٨٣)

بقلمي أصبعُكَ ، ومِدَادي شريانك ، الضَّيَاعُ أن تَهْجُر اللهَ ، والغُرورُ أن تفتخر بما لديكَ ، والمحْجوبُ أنفهُ بارز ، ويُحبُّ أن يَسمَعَ من النَّاسِ أنهُ شيء ، فغُرورُ الضياع حجرٌ في جهنّم للمزيد .

يا تحسين .. حَسَّنَكَ الله لخدمة الدين :

قاعدة (٨٤)

إيّاكَ أَن تدنو مِمَّا إذا دَنَا منكَ أَشغَلَكَ عن الله .

ثم وصلنا الزقاق المؤدي إلى بيت عبد فقطعنا الزُّقاق وإذا بنا في ساحة كبيرة حولها البيوت ، وعلى جانب من جوانب الساحة قطعة أرض كأنها مُخصصة للسَّكن لم يُشيَّد فيها بناء ، وفي وسطها غرفةٌ صغيرة حولها نفايات كثيرة .

الغرفة عبارة عن باب من الخشب ، والجدران من طابوق وطين ، والسقف من خشب .. طول الغرفة (٣) أمتار ، وعرضها متران وارتفاعها كذلك وباب الغرفة عبارة عن ألواح من الخشب الجام ، كأنه مسند من مساند المحركات الثقيلة جعلوه بابًا.

وقف السيد طالب أمام البيت أو كما يُسمّيه السيدُ/ كوخُ شاطئ ريفيرا ، فنادى: عَبْد .. عبود ... شيخ عبد .. وما هي إلاّ دقائق وخرج عَبْد وقال بصوت مخنوق:

أهلاً أهلاً .. وهو يضع قطعةً من الورق على فمه .. و يضغط على أنفه وفمه ، وكان يستخدمُ أوراق أكياس الأسمنت ، وكانت حقيبتهُ الشخصيةُ عبارةً عن كيس إسمنت يضعهُ تحت إبطه وفيه قصاصات ورق الإسمنت يستبدلها بين فترة وأخرى لتغطية فمه .. فقال (عبد) باللهجة العراقية : فوتوا .. أي : تفضلوا

فقال السيد : يا عَبْد ، فوتوا .. من الفَوْت أم الصوت ؟ وأيّهما أسرع وأيّهما رمزٌ للآخرة؟

وقال: إنه ترحيبٌ جيد ، ودليلُ حب.

فقال عبد : لدي فطورٌ جميلٌ لكم.

فقلتُ في نفسي : الستر منك يا ربي ...

ماذا سنأكل في هذا المكان الموحش ؟!

وكيف عَرَف أننا على صيام ، فإنَّ السيد طالب وعبد ليس لديهم لا هواتف أرضية ولم تكن هناك هواتف نقّالة.

السيدُ يقول سنذهب إلى الإفطار عند عَبْد ، وعَبْد يستقبلُنا وقد جَهّز طعام الإفطار .. إنه عالم الألغاز !!

دخلنا إلى الغرفة المظلمة والباردة جداً والنظيفة جداً والمفروشة بورق أكياس الإسمنت ، فأخرج عَبْد من كيسه الإسمنتي شمعة وأوقدها ثم أخرج من الكيس خبزاً وتمراً وعلبة من الجبن وزجاجة فيها عسل ،

فوضع على كُل رغيف قطعة من الجبن وقليلاً من العسل وقال : تفضلا .. فأكل السيد طالب حَبّاتٍ من التمر ، وأما أنا فأكلتُ حصتي من كل شيء . فقال : "كُلوا صِيَّام نِيَّام" .. ثم كان النقاش بين عبد والسيد طالب هل نُفطر قبل الأذان أم معهُ أم بعدهُ ؟

فقال: عَبْد : يجوز قبل الأذان.

وقال السيد طالب : بعد ما نسمعُ الأذان

وقال عَبْد: ويجوز التأخير بعد الأذان لأنها أوقات عُرفية وليست حسابات دقيقة بعلم الرياضيات .. وبعدما أكلنا قال لنا عَبْد : اذهبوا إلى المسجد صلوا وعودوا وكرر هذه العبارة كثيراً : صلوا وعودوا فقلتُ في نفسي : ما بال أهل الطريق والجَذْب والسلوك في بعض الأَحيان يُكررون الكَلام كثيراً..

كان المسجد قريباً من بيت الأستاذ عبد ، الشيخ عبد ، فعلا شيخ لأنه ناقش سيد طالب مناقشةً علمية طويلة ، وسمّاها **الرياضيات الفقهية .**

صَلينا في المسجد وعُدنا فوجدنا صحناً صغيراً وعليه (٣) أقداح من الشاي ، وعلى ضوء الشمعة كان عَبْد بيده (قلم رصاص) وقد رسم صورة عنز ورأسه رأس إنسان ، وعندما رآنا قال : تفضلا لُشرب الشاي فجلسنا ولم يضع عبد الورقة على فهمه ، فنظرتُ وإذا بفمه خال من العيوب ، وصوتهُ جميل ذو نبرة كأنها نبرة حكيم يؤدبُ الكبار ، وذو شارب خفيف ولحيةٍ ليست بالطويلة بل شعر خفيف في منطقة الحنك (تحت الفم) وها هو وجهُهُ الجميل قد ظهر عكس ما يقول الناس إنهُ مُشوه وإنهُ... وإنه ...

فأشار إلى الصورة التي رسمها وقال : إنه المنافق

فقال السيد طالب : يا عبد إننا أصحاب .. وكفى بك تُخفي نفسك عنا وعن الناس ، ونريد منك أن تُعلمنا شيئًا، فسكت وأطرق رأسه ثم جلس مُتربعًا وأخْرجَ ورقةً كبيرة من أوراق أكياس الأسمنت وقــال:

<u>**قاعدة (٨٥)**</u>

كُن معَ النَّاسِ عوداً أخضرَ يانِعَاً تميلُ حُبَّاً واحتراما ،
وإن وقفتَ أمام الله فكُن كالشجرة الثّابتة لا تهزُّها الريح ،

وإن سَلَّمْتَ فاحمل في كفيكَ الحديد .

ثم قــال: سأشرحُ لكم قاعدة المَقَامات الداخلية والعُمق والإبحار في داخل بحْر الإنسان.

وبدأ يرسم على الورقة مستطيلاً وصورة نصف إنسان ويُقسّم وَيُجزأ ويكتبُ.

وقــال: فوهة الرأس موطن التاج، لونها بنفسجي، والجبهة وموطن السجود العين الثالثة لونها نيلي ، والحنجرة لونها سماوي.

وهنا مدَّ عبد يده وأمسك بحنجرة السيد طالب وقــال:

القلب لونه أخضر وأزرق ، وفوق القلب مكان السِّر ولونه لون الفراغ ، ثم أشار إلى الجهة الأخرى من صدره وقال: هنا الخفيّ ولونهُ لون التراب ، وتحتهُ المخفي لونه لون الفضة، ثم أشار إلى منطقة فم المعدة وقال: لونها الأصفر ، ثم إلى الصُّرة وقال لونها : برتقالي، والجهاز التناسلي أحمر ، وعجب الذنب أسود وأبيض ...

فقــال السيد طالب اكتب:

<u>قاعدة (٨٦)</u>

الجُوعُ أسودٌ يُنقّي الجسمَ من الظُّلْمة إلى النّور، ومن السَّواد إلى البياض، والصَّبرُ أبيض يحمل البلاء والأذى والهم والغم والكدر والحزن، وهُو الذي يُؤَدي إلى النّور، ومَخالفة النفس هي أعظمُ مرتبة ودرجة يُمكن أن يصل إليها الإنسان، وهي تُفتت الشهوات وهو اللون الأَحمر، والتواضعُ أزرق لا تفعل أمراً إرضاءاً للناس ولا تهتم ماذا يقولون، والتفكر بنفسجي اللون وهو الجُلوس والتأمل فيما خَلَق الله من كائنات من المجهر إلى المنظار ومن أدق الأشياء إلى أكبرها، والذكر أخضر وسمائي، وغضُّ البصر قوة في زيادة وهو اللون النيلي، والدعاء والإلحاد

بالدعاء هو اللون البرتقالي وشدُّ الحجارة على البطن وهو اللون الأصفر .. اجمعْهُم واتبعني تَدخُلُ جَنّة الأرض .

ثم قـال السيـد طـالب : هل للأرض جَنّة ؟؟

قـال السيد عبد: نعم .. الإيمان والقناعة والفوز والنجاح في الامتحان فقد
ضمنت الجنة وهي جنتك .

ثم قـــال : وعجب الذنب أسود وأبيض للمؤمن وغير المؤمن ..

فقـــال السيد طالب بكل احترام وهدوء : زِدْنا يا فقيهَ مدرسة الجَذْب والعرفان.

قـــال عَبْد :

قاعدة (٨٧)

مَنْ أرادَ مُحَارَبَةَ الشيطان فليذكرِ الموتَ ؛

فإنهُ يُنقي الصُّدورَ كما تُنقي النَّارُ خَبَثَ الحديد .

وقـــال : يا طـالب ... الطلب ليس بكثير.

واعلـــم:

قاعدة (٨٨)

تَرْكُ المعَاصي دلَيلُ سَلاَمَة العُقُول،

وصِحة للبَدَن وطاعة للرب وقوةُ الحَلاَل عَافيةٌ في ثوب الدّلاَل .

ثم سأل الشيخُ عَبْد السيدَ طالب: كيف تجد قلبكَ ؟

فقـــال السيد طـالب:

قاعدة (٨٩)

أَحْسَبُهُ ولا أَحْسِبُهُ .

فقال الشيخ عبد : العدد مُهم .. والتوقيف العددي أمر دقيقٌ في السلوك ؛ فلمّا سمع السيد طالب هذا الكلام تغير وجهه ، وقال : كيف أحسب ؟

قال الشيخُ عبد : اسمع :

قاعدة (٩٠)

ضَرَبَاتُ القَلبِ عَدَدٌ لَيْسَ فِي الذِّهْنِ، تُحَافِظُ عَلَى ذِكْرِه كَيْ يَتَبَيَّنَ لَكَ بِالْعَدَدِ، فَدَوامُ اِنْشِغالِهِ حِسَاب

وقــال : يا طالب :

قاعدة (٩١)

وَحق الحَقّ وَمَا أَقْسَمَ بِهِ الحَقُ إِنِّي مَا سَكَنْتُ (هِين) أي هُنَا إلا خَوْفًا من حُسْنِ الدُّنْيا أَنْ تَأْخُذَنِي، وَإِنّي بِعْتُهَا لِلشِّرَاءِ .

ثم قــال : واعلم/

قاعدة (٩٢)

"مَنْ أَرَادَ الْمَعْصِيَةَ فليُظْهرهَا أَمَامَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَ لَهُ عَكْسَ ذَلِكَ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ فَهُوَ فِي أَمَانٍ، وَالاَّ فَلْيَحْذَر قَبْلَ القَبْل .

يا طالب:

قاعدة (٩٣)

لَا تَجْعَلْ أَحَدًا يَطْلُبُكَ،

وَالْأَوْلَى أَن تَسُدَّ دَيْنَ اللّهِ عَلَيْكَ .

يا طالب :

قاعدة (٩٤)

لا تُخَفّف ... واعلم أَنَّ إذلالَ النَّفْس عِزّة ، وعزتُها إذلال ؛ فافهم كيفما تشاء .

ثم قام الشيخُ عبد إلى الركن الشرقي من جدار الغرفة وبدأ يرسم بعض الرسوم وقال : هيئة السماء إن تناظرت في البُعْدين ستكون الحرب طويلة ، وإن تناقلت فلا تقف إلا على أربعة ثمانية.

والله : إنّي الآن أتذكر هذا الكلام ، والحرب العراقية الإيرانية في ١٩٨٨م في الشهر الثامن يوم الثامن منه توقفت ، وكانت أعجوبة لا أدري أهو التنبؤ أم الحساب أم الطريق ... لا أعلم

ثم قال الشيخ عبد للسيد طالب: اسمع يا مطلبي :

قاعدة (٩٥)

اسمعْ من أُذُنِ القَلْبِ، واحفظ بعَقْله ..
طَلَبُ الإيمان كَنْزُ العَارف كثير، والدُّخُول في النِّفَاقِ فَقير
ولله خزائن السموات والأرض.

يا قُرشيّ :

قاعدة (٩٦)

الدُّنيا لونٌ ولون، إن طلبْتَهَا غَرَتْكَ، وإنْ تركتَهَا سرتْكَ،
فلم يبقَ على مائدتها إلاّ شرُّ الدَّواب .

يا هاشمي من فرع الحسين :

قاعدة (٩٧)

أُذكر وكرر دائماً : بالحق أنزلناهُ ، وبالحقِّ نَزَل .

ثم قــال :

قاعدة (٩٨)

يا صغيراً اسمع بسمعين، وانتبه: ما جَلَس مَجْلِسَكَ هذا إلاّ أنت،
وأنتَ نَقْد، وافقْنَا على الصُّحْبَة .

وقــال : يا سيد طالب

قاعدة (٩٩)

البنَفسجيُ الحِكْمة والإلهام، والنّيلي عَالَمُ الغَيْب والإحسان، والسَّمائيُ الكَون والحُسام، والأَخَضُر ذِكْر وبيان، والأزرقُ عَلَم على اللّسان، وَلَون الشراب ذُلٌّ واستكان، والفضي وصولٌ إلى مَرحلة التمام، والأَصفر الثقةُ بالنَّفْس والقوة يا هُمام، والبُرتَقالي الخُلُق والعَواطِفُ والتجديد يامِقْدام، والأَحمر حياة وتكاثر وحماس لاسنان، والأسود الظلام منبع الفوز لا كلام، والأبيض ليوم الغيب والنشور يا مضمام .

وداهم المكانَ السكوتُ والصمتُ الرَّهيب غير أن أصوات الناس بالشارع كأنها كانت محبوسة ثم داهمت المكانَ كالسيل العرم وبعد السلام خَرَجْنا وقال السيد طالب : قد خرجنا من عند حكيم الزمان الشيخ عبد فسرنا قليلاً ثم قال السيد : من هنا نفترق ونلتقي غداً .

إن شاء الله...

عَبْــــد

قد ذكرنا فيما تقدم قصة عبد ، ولكن الغريب أن هذا الرجل الأسمر الطويل النحيف ذو العيون الغائرة ، والنظرة الحائرة ، الذي لا يبتسم ، وإن نظر كان نظرهُ ثاقباً كالصّقْر يقف منتصِبًا لا ينحني ولا يتعب ولا يتحرك كثيراً ، وكان يختار لنفسه وقفةً باتجاه القبلة وكان يتحمل الكثيرَ الكثير من أنواع الأذى والإهانة دون أن يرد على أحد .

والعجيبُ أنه كان إذا أَصابهُ شيء من الأذى يقول:

سيأتيكُم الجوع والحروب وهي الكيّ ، والكي يُطهِّر النَجَاسة.

وإني ما فهمتُ هذه العبارة إلاّ عندما دخَلَنا الحُروب ، وبعد الحروب أصابنا الحصار والجوع والتشريد والقتل الجماعي ، والقتل على الهوية ، والهجرة ، وما إلى ذلك من الأُمور الكثيرة.

عَبْد ما خَرَج يومًا إلاَّ وأطفال المنطقة كانوا يرمونهُ ، وكانت الحجارة تنزل عليه كالمطر وهو لا يتأثر، ولا يُرى عليه أثرُ الدم ولا كدمات الحجارة ، وهذه الصورة المأساوية كانت صورة كل يوم .. وكان لا يقول شيئًا، والأهالي ينظرون إلى أطفالهم ولا يمنعونهم كأَنّهُم يُؤيدون الأطفال ، والكُلُّ يصرخ : (عبد المجنون ... عبد المجنون) وعبد هو بلسم الجُروح وهو المسكين الذي لا يؤذي أحداً.

وكان عبد يتوجهُ إلى المساجد ، ويقف عند أبوابها ، والمناطق الرئيسية التي كان يرتادُها : المدرسة الجيلانية ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني ومسجد الشيخ الخلاني ومسجد الشيخ معروف ، وكان يذهب في الشهر مرة إلى مقام الإمام الكاظم ، وفي كل هذه المشاهد كان يقف بعيداً وكان يُطيلُ في الوقوف حتى يصل إلى ثلاث ساعات متواصلة أحيانًا .

وكان يتسول .. ويجمع الأموال في كيس صغير داخل الكيس الكبير المصنوع من أكياس الأسمنت الفارغة .. والأمر المهم أنه كان لا يقبل النقود من كل شخص يُعطيه ، بل يأخذ من أُناس ويترك آخرين وطريقة الرفض بأن يترك الرجل ويتجه إلى جهة أخرى مُتجاهلاً إياه ؛ فإذا انصرف الرجل عاد عبد إلى مكانه ...

وكان كثير السير في وسط بغداد إلى الأطراف مشيًا على الأقدام كأنه مهندسُ مساحة يمسح الأَرض.

ولا يركبُ السيارة ولو بالقوة ، ولو اجتمع عليه مائةُ فارس ؛ فقد كان قويًّا جدًّا ، وفي أحد الأيام كان يجلس مع السيد طالب ، وفجأة قام والتقط قطعةً من الحديد من الباحة التي مقابل بيت السيد وهي عبارة عن أنبوب مياه صلب جداً من أنابيب المياه التي تُمدُّ في البيوت.

ثم قال للسيد طالب : إن الله سخّر لنا الحديد .. أنظُر كيف : وبلمح البصر طوى الأنبوبَ الصلب الحديدي بيديه كأنهُ قطعة من الحلوى أو شيء هش ، وكنتُ أنظرُ من فتحة الباب الصغيرة وأنا أصنع لهم الشاي وقد شاهدتُ هذا الأمر .. لا أصدق .. وبدأت الخواطرُ والأفكار تتزاحم على عقلي وفكري وأقول :

هل هذا سحرٌ أم عملُ الجن ؟ لا أعلم !!

وبعد قليل قال لي السيد طالب : تأدب .. تأدب

فلم أقل شيئًا ...

وكان عبد المسكين يُحبُّ المشي في أيام المطر وأيام الحر حافي القدمين في أغلب الأحيان ، وكان نعلهُ مصنوعًا من أكياس ورق الإسمنت ذو الطبقات الكثيرة، وشسوع نَعْله كان من خُوص النخل .

والمصيبة أنه كان إذا أراد العودة إلى بيته فعلوا معه نفس الأفاعيل التي يفعلونها عندما يخرج .. من رمي الحجارة والصُّراخ والهرج والسب ، لكنهم وقت الصباح أقل عدداً من وقت المساء؛ لأنه في الصباح أكثر الأطفال في المدرسة والآباء في العمل ، وكانوا يضحكون منه ويسخرون كأنَّهم في السيرك.

وفي هذا الوقت الذي كان يعود فيه عبد إلى منزله كان أكثر النساء يجلسن على الأبواب ، والعجيب أنه بمجرد دخول عبد حدود المزبلة (كوخه الصغير) يكفون عن رمي الحجارة والضحك وكأن شيئاً لم يكن ، ويحل السكون في المنطقة.

فما دام هو داخل هذه الحدود لا يفعلون شيئًا، وكان أهالي المنطقة يرمون جميع نفاياتهم حول بيت المسكين ، وكان قد حفر حفرة في منطقة حول بيته يحرق فيها الأوراق والأكياس ، ويضع الخبز والطعام في أكياس ويأخذها طعاماً للسمك يرميها إلى النهر وكان يعمل بكل جد في حرق الأزبال.

وهنا أتذكرُ حادثة وقعت لأحد سكان المنطقة وكان الناس يتحدثون بها.

خَبّاز المنطقة واسمهُ (أبو جابر) في أحد الأيام رأى (عَبْد) في الطريق ، فناداهُ قائلاً : يا عَبْد القذر تعال وبَصَق في وجهه ، فَرَّد عليه عبد بكلمات مَخْنوقَة وقال: دوائكُم النار كي تطهر هذه البطون والفروج التي تأكل وتفعل الحرام.

وكان يقول : النار حرب .. وبعد سنين بدأت الحربُ وكأن لأبي جابر الخبّاز ثلاثة أولاد ذكور التحقوا بالخدمة العسكرية ، وبعد فترة جاءت الأخبار من جبهات القتال أن الأولاد الثلاثة فُقِدوا أثناء المعارك ... مصداقًا لمقولة السيد طالب التي كان يستخدمها دائماً : **"من حَارَبَنَا حَارَبِنَا"** .. هكذا عاش عبد غريبَ الموطن ، غريب النسب لا نعرفُ عنه إلا هذه الكلمات.

وكان السيد طالب يقول :

هو الحكيم الشيخ عبد : أستاذي الأول في كثير من العلوم : فقد علمني الفلك والرياضيات والمنطق والفلسفة ، وقد علَّمني الخط العربي والزخرفة ..

واهجُر النومَ إن أردتَ الوِصَالا ... وانظُر إلى البدر إن أردتَ الكَمَالا.

الإطار

رفيق/ دمشق / سوق الحميدية

التقيتُ بالسيد طالب عصراً ، وهو جالس على دكة المدرسة الجيلانية ، فسلمتُ عليه ؛ فرد السلام ثم أومأ بيده تعبيراً بأنْ أجلس ؛ فجلستُ ..

وقلـتُ له : يا سيدي ألا تُكمل لي الحكاية ، حكاية رفيق والخـــــرقة والمـــــرأة العجوز ؟

فقـــال : قُم معي .. فقمنا وبدأنا نسير وأنا أحمل أوراقي ومحفظة أقلامي سيراً باتجاه منطقة (الباب الشرقي) حتى وصلنا إلى منطقة تسمى (تحت التكية) فيها مسجد صغير كان مجمعًا لأهل العرفان والعرفاء

فجلسنا في منطقة قريبة من المسجد (مسجد التكية) فقال لي السيد: قبل إكمال الحكاية ، اكتبُ بعض القواعد لأهل الأُنس والعشق .

قـال : اسمع وانتبه وتذكر وتفكّر وكن منّي يا صنعاء :

قاعدة (١٠٠)

إِنَّ الْحُروفَ إِذَا اجتمعت تَوَلَّدت كَلِمَات، وَلِلكَلاَمِ قُوَّةٌ،

فَمَن عَرَفَ مَوَازِينَ الْقُوَى

فَهِمَ الْكَلاَمَ فَاسْتَطَاعَ أَنْ يُمَيِّزَ الْقَوْلَ الْحَسَنَ مِنَ الرَّدِيءِ

وقــال:

قاعدة (١٠١)

مَنْ صَانَ الْعَيْنَ وصَوَّبَ اللِّسَانَ، وَصَلْصَلَ نوافذَ الشَّيْطَانِ إِلَى الْقَلب ، وَجَعَلَ لِهَوَاهُ قيديْ الأَمرُ بالمَعْروف وَالنَّهي عَنِ المُنكر فَهُوَ سَعِيد .

وقــال أيضًا:

قاعدة (١٠٢)

أَدَبُ الْمُنَاجَاة مِنَ النَّجاة، وَسَلْبُه سَيْلٌ مِنَ الشَّقَاءِ قَدْ يَنْبعُ مِنْ بيْتِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي .

ثم أكمل لي السيدُ طالب الحكاية فقال:

وأما شفيق فبعدما أخذ الخرقةَ والإطار المصنوع من الخشب في هذا الكيس الأبيض قام من مكانه وعاد إلى البيت ، ولم يخرج إلى دكانه ثلاثة أيام ، حتى أن أصحاب رفيق من محلات السّجاد والتحف بدأوا يسألون عنه ، وهم في قلق ويرددون بعض الكلمات بينهم.

إنَّ رفيقاً ومنذ أكثر من عشرين سنة لم يُغلق الدكان ، ولم يتوقف عن العمل، ولذلك زارهُ بعض أصدقائه وتحدثوا معه لكن رفيق كان في عالم آخر ويقول لهم خيراً إن شاء الله .. أيام وأعود إلى العمل .

وخلال الأيام الثلاثة كان رفيق يتمعَّن في الخرقة وهي عبارة عن قطعة قماش من رداء الشيخ شمس الدين ، كان أعطاهُ لزوجته العجوز (أم البركات) ، وقد تحدثنا كيف أنه وصل إلى رفيق ، وبدأ يُدقق أيضًا في إطار الخشب كأنه إطار لوحة أو صورة ، وعند التدقيق اكتشف أن الخرقة تنبعثُ منها رائحة طيبة زكية فقال إنها رائحة العطور المسك والعنبر ، واكتشف أيضًا أن الإطار مُحكم الصنع وقديم وعليه كتابات دقيقة جداً ، كأنَّ الذي كتب قد كتب بقلم دقيق بدقة شعر الرأس فاستغرب لهذا الإحكام العجيب.

وقرر أن يأخذ الإطار إلى صديقٍ له خبير بالتحف والأمور الأثرية القديمة، وفعل ذلك في اليوم التالي حيث قام رفيق وأخذ الإطار وبعد السلام والتحية قال لهُ صاحبهُ: يا رفيق لم أغلقتَ المحل .. هل قررتَ ألاّ تعمل؟

فقال رفيق بصوت هادئ مملوء بالثقة لصاحبه وكان اسمهُ (بغداديّ) .. اسمع يا بغدادي : إني قررتُ أن أبيع جميع أغراض المحل ، وأن أؤجر المحل أو أبيعَهُ ، وقررتُ أن أدرسَ .. فضحك البغدادي ضحكة استهزاء وقال:

يا رفيق أأنت مجنون ؟!!

بعد كل هذا العمر تدرس !! وماذا ستدرس عِلمَ الطبخ أم النفخ استهزاءً به.

فقال رفيق: لا تستهزأ يا بغداديّ ؛ فأنا مشغول جداً ، ولدي أمور يجب أن أنتهي منها ، فكفاك استهزاءً ... لنتحدث بجدية في الأمر الذي جئتكَ من أجله ؛ فاعتذر البغداديُ لرفيق بعدما رأى أنه جاد في الأمر .

وقال رفيق: ما دمتَ أنك فتحت موضوع المحل فإني سأوكُلك بجرد الأغراض وبيعها ، وتأجير المحل كي يكون بابًا للرزق لعائلتي.

وأما المسألة الأهم ... وفي هذه الأثناء أَخْرَجَ الإطار الخشبيّ من الكيس الأبيض ، وقال انظُر يا بغدادي لهذا الإطار ... فقام البغداديُ من مكانه إلى أحد الرفوف القريبة وجلب بعض الأغراض والأدوات ليتفحَّص الإطارَ واكتشف أن في حافّة الإطار بوابة صغيرة قد ثُبتت بدبوس .

فقال يا رفيق : هذه بابٌ صغيرة وهو يحاول فتحها فوجدوا فيها رقًّا ملفوفًا، فأخرجوا الرّقَ من جانب الإطار بهدوء ثم فتحوا هذا الرق وإذا بورقة طويلة ... فقال البغدادي لرفيق : ضعها جانبًا .. سنقرأها بعد قليل .. وعندما تَفَحّص الإطار وَجَدَه مملوءاً بالآيات والتواريخ .. فقال لرفيق : من أين لك هذا ؟؟

قال رفيق : دعكَ من هذا السؤال وأخبرني عن الإطار .

فقال البغدادي : إن خشب هذا الإطار قديم جداً يُقدَّر بآلاف السنين وعليه آثار من أملاح البحر .. وظنّي : أن العلامات والآيات المذكورة تخص سيدنا (نوح) .. وأظن أن من صنع هذا الإطار صنعهُ من نفس الخشب لكنّي لا أعلم الغاية ولا الأسباب .

وهذا الإطار ثمين جدًّا؛ لأنّه ثقيل جدًّا وهو من الخشب وفيه من الحديد كلما أمررتُ يدي من وسط الإطار أشعر بألم .. ومن ينظر إلى الإطار من بعيد يتصوره من الذهب ؛ فإذا تمعّن واقترب رآهُ من الخشب القديم وقد تآكل قليلاً.

ثم قال رفيق: إلى هنا رُفعت الأقلام وجَفّت الصُّحُف والنطق من لساني فقال: افتح لي الورقة يا بغدادي ولنقرأ ما فيها ...

وكان مكتوبًا على الرق : بسم الله الرحمن الرحيم ، سير العاشقين ، وأنسُ السالكين، وبهجة النفوس للوقوف في أول طريق القُدُّوس، ثم الكتابات غير واضحة وبعضها ممحو ولا يُبَان منها شيء.

وبعد عدة أسطر كان مكتوبًا :

قاعدة (١٠٣)

قل الله مرةً واحدة ... كل يومٍ قبل النوم وأَنتَ تضعُ لسانكَ في سَقْف الفَم والنَّفَسُ مقطوعٍ، وحاول أن تُخْرِجَ الكلمةَ من القلب، وثم زد كل يوم واحدة إلى أن تشعُر بحلاوةٍ في ذكرك وفكرك وحَالك، فأَمسك بهذا العدد، فإنهُ مفتاحُ ذِكْرِك ونور صَدْرك، وبدايتك لهذا الأَمر.

ثم حاولنا قراءة بعض الكلمات لكنها لم تكن واضحة ؛ لأن الكتابة متآكلة ومَمْحوة ، ولكن بعدها بأسطر مكتوب :

قاعدة (١٠٤)

صُحْبَةُ الصَّالحينَ ينقُصُهَا القَبُول، والعِلْم العَمَل، والعمل التوفيق والقَبُول، والعلم والعمل والتوفيق أركانٌ لبناء مملكة الإخلاص .

ومكتوب أيضًا:

قاعدة (١٠٥)

الصِّيامُ والصَّلاةُ والأَركانُ مع الحُضور سَعَادة، وعَدَمُها شقاء،

والفرق :

الأول / نيل الثواب ، والثاني / تعبٌ وجَفَاء" .

ومكتوب أيضًا:

قاعدة (١٠٦)

الخدمةُ والسَّعَادَةُ وِصَال، والشَّقَاءُ والتذمرُ عدمُ الاتصال،

وزيادةُ السَّعَادةِ وِسَادَة، وزيادةُ الشَّقَاء فضاضة،

فمن سَلَكَ فعليه بالعِلْم، ومن أَسْلَكَ مِنْهُ العِلْم.

ثم قال شفيق : كفى يا بغداديّ ، أنا سأقرأُ ما تبقى من هذه الورقة ؛ فَلَفَّها وأرجعها في مكانها ثم وضع الإطارَ في الكيس ، وبدءا يتحدثان عن الدُّكان ، وتصفية الأغراض والبيع.

فقال البغدادي : يا رفيق أمهلني عشرة أيام حتى أردّ لك النتيجة ، ثم خرج رفيق من عند البغدادي وذهب إلى سفح جبل قاسيون عند المقبرة ، وعند قبر الشيخ شمس الدين صاحب الخرقة والإطار وصاحب الإبريق وزوج العجوز (أم البركات) التي أخذت عهد الخلافة من الشيخ ، وقال لها: .. إنهاالأمانة ولا تعطين هذه الأشياء إلا عندما تتحققين من الرؤيا .

وهكذا جلس رفيق عند القبر ، وهو يتذكرُ أيام صباه وأيامهُ في السوق ، وهذه الحوادث التي تمر به ؛ فأجهش بالبكاء ، ثم أحس بالطمأنينة والسكينة، واتجه إلى المسجد لصلاة المغرب في مسجد أهل العرفان في المنطقة يجلسون فيه للعلم والذكر، فصلى صلاته المفروضة، ثم عاد إلى البيت وهو في قمة سعادته، وجهه يتلألأ، وأساريره مُنفرجة ؛ فدخل البيت وهو يُقبّل زوجته وأولاده ويسأل عن العشاء ، وقال: هلموا لنجلس ونأكل مع بعض ؛ فإن الأيام القادمة قد تشغلني عنكُم ....

قدورُ المَاء

بغداد / سوق الدَّهّانَة / السيد حسن

مررتُ بالسيد طالب كالمعتاد بعد صلاة العصر حيث أعود من المدرسة وأتناول طعام الغداء ثم أكتب واجباتي ، وبعدها أَذهبُ إلى السيد.

فحملتُ أوراقي وأقلامي ، ووصلتُ إلى غرفة السيد فطرقتُ الباب.

فسمعتُ السيد يقول : اصبر قليلاً وبعدها بدقائق قليلة ، خرج إليَّ السيد الشيخ الأستاذ البسيط اللّطيف المتواضع الرشيق النظيف بابتسامته الجميلة وقال : هيا لنذهب.

فقلتُ في نفسي : إن أستاذي قَلَّما يجلس في البيت وهو على دوام الخروج ، ودائماً يزورُ أشخاصًا في غاية الغرابة ، رجل يسكن الأطراف ، ورجل يسكن مزبلة، ورجل يسكن في زقاق في بطن زقاق ، وهكذا ... والمنطقة التي ذهبنا إليها هذه المرة هي : سوق الدَّهانة ، وهو سوقٌ قديم تدخلهُ من منطقة (باب الأَزج) أو باب الشيخ، أو منطقة الجيلاني، أو من عند الخلاّني إلى منطقة الصدرية ، وعند الانتهاء من هذه المنطقة نقطعُ الشارع إلى الجهة الأخرى ، وتبدأُ منطقة الدَّهانة، وقبل الوصول إلى سوق الغزل أو منطقة الشورجة انعطفنا أنا والسيد فدخلنا زُقاقًا ضيقًا وبيوتًا قديمة، وأطفالاً يلعبون، ونساءً يجلسن على أبواب المنازل سابلات الشعر بأثواب بّراقَة تجلب الناظرين ما بين الأحمر والأصفر والبرتقالي، وأصوات التقليد والغمز واللمز ... وفي مرة ونحن نسير سمعتُ إحداهن تقول : هناك رجل طويل من أقربائي خطبني .. والثانية تقول : رداء أسود كأنه عباءة أمي .. والثالثة : رداء أسود بطانية الليل .. وما كنتُ أفهمُ شيئًا إلا إنني أسير خلف السيد طالب، وهو ينظر إلى الأرض، وما يقول شيئًا، إلاّ إني كنتُ أسمعُ همسه وهو يذكر ويقول : "ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين" .

وبعدما انتهينا من هذا الزقاق انحرفنا إلى زقاق آخر أقل ازدحامًا، ودخلنا طاقًا مُقّوسًا كبوابة كبيرة وبعد العبور من الطاق كانت المنطقةُ كأنها مهجورة، والبيوت على اليمين مُهدَّمة ، وعلى الشمال مغلقة ، وفي

آخر هذا الزقاق بابُ دار مفتوح وهناك سُلّم وباحة كبيرة ، وبعض النَّاس فظننتُ أننا سندخلُ من هذه الباحة ولكن ما إن وصلنا إلا وبابٌ صغيرٌ علي الجانب الأيسر ، وبيت قديم بابه قديمة والعجيب أن هذا البيت القديم ذو الباب القديمة عليه جرس كهربائي جديد ، وهي صدفة عظيمة في بغداد في تلك السنين وفي مثل تلك المنطقة الشعبية الفقيرة حيث كانوا يستخدمون المطرقة الحديد على شكل الكف لطرق الأبواب وهي مُثبتة على الباب، وفيها عتلة لتُعطيها حُرية الحركة كي ترفعها إلى الأعلى وتضرب بها الباب، لكن مكان الضرب قطعة من الحديد كي لا يتآكل الباب بمرور الزمن .

وفي بادئ الأمر لم أتصور أن هذه العلبة البيضاء التي فيها دائرة سوداء تُمثّلُ شيئًا .. لكن لمّا مدَّ السيد طالب يَدَهُ وضغط على الدائرة السوداء في المربع لم أسمع شيئًا .. ولكن بعد مدة بين (١٠-١٥) دقيقة فُتح الباب ، وإذا بذاك الرجل الأَصلَع حليق اللحية والشارب قصير القامة المربوع، ذو الوجه الأصفر والبشرة القمحية، والعيون الغائرة .. ليس في فمه أسنان، فابتسم ضاحكاً وقال:

أهلاً أهلاً بابن العم ..

فقال السيد طالب : أنا من سامراء ، وأنت من الجنوب يا أستاذ .. فكيف نحن أولاد العم ؟!!

فقال: الآن تفضلوا ... واستدار وهو يمشي على مهل ثم نزل السلالم وعددها أربعة .. ثم بعد ذلك باحة صغيرة ، والعجيب أني رأيتُ منظراً مخيفًا كأنها الحرب العالمية قد دَمَّرت مئات بل آلاف البيوت وأنت تُشاهد هذا المنظر من فوق تَلّة، وعندما وصلنا الباحة الصغيرة نظرتُ وإذا البيوت خرائب خالية من البشر لا يسكنُها أحد، ثم نزلنا أربعة سلالم أخرى ثم أخذنا يميناً ونزلنا سلّمتين وإذا بممر .. وأمام القصر غرفة مغلقة وأخرى مفتوحة ، فاتجهنا إلى الغرفة المغلقة.

فقال السيد طالب: يا أستاذ حسن ، هل اليوم سندخل الغرفة التي مُنعنا منها سنين ؟؟

فقــال الأستاذ حسن : نعم

وفَتَح بابَ الغرفة فدخلنا .. والغرفة عبارة عن سرير ، والسرير عبارة عن لوح من الخشب قد وُضِع على الطابوق ـ وفي كل ركن من أركان هذا اللوح عدد من الطابوق كأنه مُسنّد، والارتفاع ما بين الأرض

وقطعة الخشب يقارب (نصف متر) ، وعلى الجانب الآخر سرير بنفس الصفة ، ولكن على لوح الخشب فراش من القطن وعليه غطاء أخضر والسرير الأول كذلك ..

قال الأستاذ حسن :

تفضلوا ، فجلسنا وتبادلنا السلام وبعدها قال الأستاذ حسن : يا سيد طالب أنا من الأشراف حَسَنيُّ النَّسَب ... صحيحٌ أن العلاقةَ التي بيننا منذ زمن ونحن رفقاء طريق ، ومن مدرسة واحدة ولكن المناسبة التي بدرت إلى ذهني أن أفتح هذا الموضوع هو إحساسي بالتعب، وأخاف أن أموت وليس لي أحد في هذه البلدة غير أولاد أختي وهم فقراء يزوروني بين الحين والآخر ، وليس خوفي على نفسي ولكن الخوف .. وهنا بدأ يضربُ بيده اليمين على السرير ويقول : ولكنَّ الخوف على ما تحت السرير.

وهنا توقَّدَ ذهني وبدأتُ أُفكر بالكنز، أهذا العجوز الذي يسكنُ هذه المنطقة لديه كنز تحت السرير ؟؟ سبائك ذهب ولؤلؤ ومرجان !!

وأنا أغوص في هذه الأحلام، تكلم السيد حسن وقال: إنّها ثروتي من الكتب والمذكرات، وما تعلمتُ من مشايخنا وعلمائنا في الطريق.

فأجاب السيدُ طالب : وقال بكل ثقة: يا سيد حسن إن عمركَ أطول من عمري، وبيني وبينك كهاتين ، وأشار بأصبعيه وليس السنتان بل عشرون سنة فلما سمع السيدُ حسن بهذا الكلام فكأنما نَشَط من عِقَال .

فقال السيد حسن : أنا أستاذُك بالقلم ، وأنت أستاذي بالحرف والقلم.

قال السيد طالب: دعنا من هذا .. ولنتحدث في العشق والأُنس والحب والسير على نهج الصالحين .

فقال السيد حسن: والله صدقتَ ، اسمع يا سيد طالب:

قاعدة (١٠٧)

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَتْرُوكٌ، وَرِزْقُهُ مَسْرُوقٌ،
فَقَدْ تَرَبَّعَ النِّفَاقُ فِي قَلْبِهِ

يا طالـب:

قاعدة (١٠٨)

قَلْبُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، وَلَا يُرشِدُ من يصاحِبُهُ، فَفَلاحُهُ مَقْطُوعٌ، وَالْعِلاجُ مِنْهُ مَمْنُوع .

فقال السيـد طالب: صدقت يا أستاذنا .

ثم قـال :

<u>قاعدة (١٠٩)</u>

مَنْ سَلَكَ للحَقِّ نَطَقَ، وَفِي الْبَاطِلِ بَرَكَ .

وقـال أيضاً :

<u>قاعدة (١١٠)</u>

عَدْلُ الإحسان إيثارٌ دون عددٍ وحُسْبَان، وإحسانُ العدْلِ إنصافٌ على النَّفس لا خوفٍ من الحُسْبان .

وقـال السيد طالب : يا تحسين .. أتكتُب ، قلتُ : نعم يا شيخي ، فنظر السيد حسن إليَّ وقال : أتوسَّمُ فيك خيراً ..

فقلـتُ له : شكراً يا سيدي ..

فسألنــي : ماذا تعمل ؟؟

فقلتُ : أعمل مع عمي في الترميم وتنظيف وتعمير المساجد وأفهم في علم النبات ؛ فأصنع بعض الأدوية والتراكيب.

فقال لي وهو يعرض عليَّ دُكانًا في نفس الحي للإيجار ، وفيه رفوف وبعض النباتات وبعض أدوات العطارة .. وقال بصوت لطيف دليل الأبوة والحنو النابع من قلب الأستاذ المربي الذي وصل درجة من العلم فرأي نفسه خادمًا للجميع .. قال: أُجرتُه بسيطة فنظر إليّ السيد طالب وقال: أنا موافق / ثم قال : كم الأجرة ؟

فقال السيد حسن: الشهر الأول والثاني على حسابي ..

وقـال لي: غداً إن شاء الله سأعطيك المفاتيح ؛ فسأل السيدُ طالب السيدَ حسن: هل لازلتَ تعملُ وكيلا عند السيد فقال : نعم .. إني وكيلهُ منذ عشرين سنة ولحد الآن أجمعُ الإيجارات من البيوت والدكاكين وآخذُها إلى أولاد السيد رحمهُ الله ...

وقـال : إني أتقاضى على هذا العمل أجراً وهو يكفيني وزيادة ولا أطمع من هذه الدنيا إلاّ بالرضا .

وقـال السيد طـالب : اسمع :

قاعدة (١١١)

من أَراد السيرَ مع الرِّجال نَسِيَ الطعامَ
وأعطاهُ للهَوام .

وقـال أيضــا :

قاعدة (١١٢)

من أَرادَ أن يَبْنِيَ بينهُ وبين الشيطان جِداراً
فَلْيُصاحب الجوع .

وقـال أيضـًا:

قاعدة (١١٣)

الصَّالِحُونَ قَنَادِيلُ الرَّحْمَنِ عَلَى الْأَرْضِ،
مَنْ سَارَ معهم أَوْ جَالَسَهُمْ وَجَدَ النُّورَ وَالسُّرُورَ.

فقال السيد حسن : زِدْنا يــا سيد طالب ....
فقال السيد طالب :

قاعدة (١١٤)

الكُفْرُ والنِّفاقُ يدورانِ مع الإسلام ، كالإحسان مع الإيمان ؛ فَمَن فَقَد صَبْرَهُ نَالَ النِّفاق، ومَنَ أَسْقَطَ التّصديقَ نالَ الكُفْرَ ، وَمَنْ أَحْسَن بمُرَاقَبَةِ نَفْسِهِ نالَ الإحْسَان .

وقـال أيضـًا:

قاعدة (١١٥)

السرورُ أَنْ يَشْغَلَكَ اللهُ فِي أَوْقَاتِكَ، وَالسَّعَادَةُ أَنَّ تَطلُبَ من اللهِ بدونِ واسِطَة، وَالْعِشْقُ أَنْ تَسِيرَ بِسِيرَةِ الرَّسُولِ والآل وَالْأَصْحَاب وَالصَّالِحِينَ بِأَنَّهم وَصَلوا بِالْإِخْلاَصِ ؛ فَسُرُورُ سَعَادَةِ الْعَاشِقِينَ التَّوحيد .

فنظر السيدُ طالب إلى السيد حسن .. لكن السيد حسن نظر إلـيَّ وقـال : تكلم يا من تحُب الضحكة فقلتُ بأدب الخشوع : إني أعتذر.

فقــال: نريدُ منك أن تتكلم ... ماذا تقول ؟

فقلــتُ بصوت عليل :

قاعدة (١١٦)

المشغُولُ بِاللهِ إيمَانُهُ إحْسَانٌ، وَإِحْسَانُهُ يقين .

فقالا بصوت واحد : الله الله الله .. كأنّهما قد اتفقا في الذكر ...

فنظر إلـيَّ السيدُ طالب وقال : قل أيها الفتى ..

فقلتُ هذه المرة بصوت أعلى كأنني كنت أسير في صحراء ، وقد أهلكنـي الجوع والعطش فإذا بمائدة أمامي وعليها ما لذَّ وطاب فأكلتُ وشربتُ ، وها أنا أسير من جديد والصوت يرتفع وأقول:

قاعدة (١١٧)

المحجوبُ انشَغَلَ بِالخلقِ عَنِ الخَالِقِ، وَالمُشَاهِدُ مَشْغُولٌ بِهِ وَفِيه، وَمُنْقَطِعٌ عَنِ الخـَلْقَ .

فبكى السيدُ طالب بكاءاً شديداً وتبعهُ السيد حسن ؛ فشعرتُ أني قد أذنبتُ ، وخرجتُ من الغرفة بكل هدوء ووقفتُ في الممر ، وبعد برهة من الزمن ، سمعتُ صوت السيد طالب يقول: يا تسعين أين أنتَ ، وهو اسمي الذي أكرهُهُ إلاّ من فمه كأنهُ أنغامُ زقزقة العصافير وحفيف الشجر قد تناغما، فسرى النَّغم في أذني فأنبت في داخلي شجرة السعادة ، يا لـهُ من اسم جميل من فم أستاذي السيد طالب.

فدخلتُ الغرفة وجلستُ بجانب السيد طالب وقد وضع يمينه على كتفي؛ لأنه كان يمنع الجلوسَ عن يساره ، وكنت لا أعرفُ السبب حتى تبين لي بعد عشرين سنة!!

ثم تحدث السيدُ طالب مع السيد حسن حول أوضاع البلد فسمعتُ كلاماً عن الحرب والأحزاب والاعتقال ولم أفهم شيئاً ...

ثم قام السيد حسن وطلب منّا القيامَ فقمنا معه فسرنا من الغرفة إلى الممر بانعطافةٍ صغيرة إلى الغرفة الثانية ، إنّها غُرفة الأساطير .. مشهدٌ ليس بالجميل ولا بالمُخيف بل إن الغرفة عبارة عن قُدور كبيرة مملوءة بالماء ، وقد تَوسَّطت الغُرفةَ طاولةٌ صغيرة قصيرة الأرجل ، وعليها بطيخة وصحن وسكين ..

المشهد بسيط ولكن لم كُل هذه القُدور ؟ ما الأمر من رجلٍ أستاذ فقيه ؟ !! قد رَتَّب هذه الغرفة بهذه الصورة .. هو لغزٌ آخر من ألغاز حي الدّهانة .. ثم قام السيد حسن بتقطيع البطيخ قِطَعاً ثم قَشّر كلَّ قطعةٍ على حدة ، وقطعها أشكالاً هندسية ما بين المثلث والمستطيل والمُربع بصورة فنية لم أشاهدها لأ من أمي ولا أهلي ولا الجيران ، كأنَّ الرجل أتى من عالم الرياضيات كي يصنع هذه الأشكال الهندسية ويعلمُنا قاعدة : (فيثاغورس والجيب والجيب تمام والظل) .

فقال السيدُ طالب : فعلاً إنّك أستاذي في الرياضيات والفلك ، إنّها براعة استطلاع ، وليس براعة استهلال ، و الاستهلال إن تُثبت بالكلام ، لكنكَ أثبتها عملياً ؛ فضحكنا وأكلنا البطيخ ... ثم سَلَّمنا عليه وتصافحنا وهَمَمْنا بالخروج من البيت ، وقبل الوصول إلى باب الدار استأذنت السيد طالب وقلتُ للسيد حسن / متى آخذ مفاتيح المحل ؟؟

قــال : غداً صباحاً .

قلــتُ : هل لي بسؤال آخر ؟

قــال تفضل يا بني .. الله ما أجمل هذه الكلمة .

قلــت : أريد أن تكون أستاذاً لي ..

فابتسم وقال : اعمل أولاً ثم يأتيك الدرس .

وخرجنا أنا والسيد طالب ، وبدأ السيد بالذكر ، وأنا أفكر بالدكان والعطارة والأعشاب والأشياء القديمة الموجودة داخل المحل وكنت مسروراً جداً ، ويا ليت الزمن توقف ، وما رأينا من الهول والتمزق والتناحر بسبب الكرسي والفقر السياسي والآراء الشاذة ، والمذاهب الي فَرّقت الأمة .

وليس الذنب ذنب المذاهب الفقهية .. بل ذنبُ الذي يجلس علي كرسي الاجتهاد ويتصّدى .

وقد تَسّدى شدة حُكم الرقاب .. والكل في خُنوع وخضوع لهذه العمائم المُغْرِضَة التي سفكت الدماء وأباحت ما أباحت .. ولو تكلمنا بما حدث لفقد كتاب العِشْق والأنس لَذّتهُ من قواعد السير إلى الله .

قال تعالى : "فَفِرُّوا إِلَى الله إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات آية ٥٠-٥١).

الرِّحْلَـــة

بعد العشاء توضأ رفيق ، ودخل إلى إحدى الغرف في بيته، وقد هيأ في الغرفة مكاناً للصلاة وبعض الكتب ومَسْبحة كبيرة ، وجرّة صغيرة لشُرب الماء ، وقنديل يعمل بزيت السمسم (الشيرج).

دخل الغرفة وبدأ يُفكر ويتأمل في الأحداث التي مرت به ، وراح يقطع الغرفة طولاً وعرضاً ويدور، ولكن القلق والأفكار تُداهمه ، كأنَّ الأمواج المتتابعة تسقطُ على سفينة في وسط البحر، وكأنَّ الأمواجَ قد اتفقت على إغراق السفينة.

هكذا الأفكار كانت تُهاجم رفيقًا بين الحين والحين وهُو يقول : الله .. كأنَّ الصوت يخرجُ من الجوف لا من الحلق ، ثم توجهَ وبدأ بتسبيحاته والصلوات حتى داهمه النعاس ؛ فرأى في منامه كما يرى النائم أنهُ في صحراء ، ويرى من بعيد قباباً ومنارات تدل على وجود مسجد كبير ، وهو يتجه نحوه ، ولم يشعر إلاّ وهو على أبواب المدينة لكن الزمن غير الزمن الذي هو فيه ، زمن قديم .. كيف يسأل وهو خائف ومُستوحش من كل شيء .. من الأشكال والباعة والدكاكين!

كُلها تدل على زمن قديم ... زمن عصر الخلفاء والسَّلاطين .. وهو يسيرُ في السوق ، ولكن كل عزمه وتفكيره أن يصل إلى المسجد ، وعند الوصول إلى المسجد وجد بابَهُ كبيرة جداً لم ير مثلها لا في مدينته ولا مقارنة بالمساجد الموجودة في بلاد الشام .. والناس يدخلون إلى المسجد من عدة أبواب ، وصحْنُ المسجد (الباحة) كبير جدًّا، والناس يدخلون من الأبواب ويجلسون.

ورجل يجلس على منبر ليس بالعالي، وصوته مسموع ، وهو يتكلم عن غزوة الخندق ، وبالتحديد أن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم بيده المِعْول ، وهو يضرب ذاك الحجر ويقول : قد كَشَفَ اللهُ لي .....

فجلستُ مستمعًا وبدأ يسردُ هذه الغزوة ، وكيف أن الله تعالى نصرَ نبيهُ وهزم الأحزاب.

وبعد إكمال الحديث بدأ الناسُ يُسلمون عليه ، ويُقّبلون يديه ويخرجون من المسجد ، وهو يسيرُ بخطوات بطيئة نحوي فما إن اقترب منّي حتى قال : مرحباً بك في عالمنا ، إننا نحن الأحياء وأنتم الأموات ؛ فقمتُ وأنا لا أستطيع القيام إلاّ بصعوبة، واستخدمتُ كل قوتي وقبّلتُ يده ، ومَسَح على رأسي ودعا لي ، ونطق اسمي مقروناً بكلمة (شيخ) وقال لي :

مبروك ، أناسٌ يعملون منذ سنين ويتعبون .. والأولاد يرثون ما جَمَع الآباء.

فقلتُ : يا شيخ : ادعُ لي بالعلم

فقال : اتجه إلى بغداد ، واسكُن ما بين بُرَاثا والجُنيد ، ثم عُد إلى ركن الدين وخُذ من علومه الإشارة والعبارة.

وكنتُ أكادُ أختنق ؛ فصحوتُ من منامي وقد شقشقَ الفجر .. والأذانُ يخترق سمعي ؛ فقمتُ متوضئًا وذهبتُ إلى المسجد وصليتُ ، وبعد الصلاة عدتُ إلى البيت ، وأردتُ أن أكمل ما في الرق من الإطار ، فلبستُ الخرقة ، ووضعتُ الاطار على الجدار في مكان صلاتي ، وأخرجتُ من جانب الاطار ذاك الرق، لكن هذه المرة وأنا أخْرِجُ الرق كأنّهُ كان قد امتلأ بالماء ؛ فخفتُ كيف الماء يقف بشكل عمودي ؟! تخيل بحيرةً في الأرض ، وإذا بها في الجدار !!

وكلُّ ظنّي أنني ما زلتُ في الرؤيا ، ولكنني كنتُ في الحقيقة ، وما إن نظرتُ إلى الإطار إلاّ واختفى الماء فقلتُ في نفسي: إنَّ الأسرار بدأت تتعقد ، لأنتظر البغدادي ، إلى ماذا يتوصلُ في قضية الإطار...

فعدتُ إلى الرق .. وأنا أقرأ هذا القول :

قاعدة (١١٨)

أَسَاسُ الأَمرِ الصُّحْبة، فَمَن صَاحَبَ تأدَّب، فَلاَ يَصْدُرُ مِنْهُ السُّوءَ .

يا صاحبَ الرق قم وابحث عن الرجل العجوز، وعن الفتاة، وعن رحلة البحر ... ثم مكتوبٌ بخط أسود فاحم؛ لأن بعض الكلمات مكتوب باللون الأصفر الباهت.

قاعدة (١١٩)

النِّعَمُ مِنَ المُنْعِمِ كَثيرةٌ ، مِن نَظَر وقَوَام وَرِزْقٍ وحَيَاة ؛ فَلاَ تأخُذْ من نعمَةٍ إرْضَاءاً لنفْسِكَ كَي تَعْصِي

وكأنّ الرق يتكلمُ معي بألفاظِه المكتوبة، واسمع يا من صَلَّيْتَ الفجر، فاستغربتُ من هذه المقولة هل شاهدتَ الماء ؟ إنّها الإشارة كي تذهب إلى بغداد وفي منطقة الكاظمية في سوق السربادي (الاسترابادي) وعند الرجل العجوز .. تُكلمهُ اللوحة.

واعلـــم :

قاعدة (١٢٠)

العِلْمُ لَيْسَ مِن أَين ، بل يَصُبُّ في أَين .

واعلـــم :

قاعدة (١٢١)

الجُلوسُ دونَ الحَواس أَمر في غَاية الإحسَاس ؛
فإنَّ تَعْطيلَهَا إعْمَالُ مَا فَوْقَهَا ، والوَجْدُ سادسةٌ سابعة .

وهنا كأنَّ شيئًا انتابني، والبرد قد أصابني من قدمي حتى رأسي، ومن رأسي حتى قدمي ، لا أعلم من أين بدأ !!

فردَدَتُ الرقَّ في مكانه ، ووضعتُ الإطار داخل الكيس ؛ فخرجتُ من الغرفة وإذا بالأولاد والزوجة قد جلسوا للإفطار .. فأكلتُ شيئًا بسيطًا ثم خرجتُ إلى السوق وما إن وصلت دكاني وبدأتُ بترتيب الأشياء والأغراض إلا ودخل عليَّ البغدادي كالمجنون خائفًا كأنّهُ قتل قتيلاً .. فقلتُ له: يا بغداديّ لماذا أنت بهذه الحالة ؟

قـــال : اسكُت يا رفيق واسمع مني ، يجب أن تتخلص من هذا الإطار بحرقه أو رميه في البحر ..

فقلــتُ : صبراً صبراً ، لماذا كل هذا التشاؤم ؟

فقـال: إن هذا الإطار مذكور في الكتب القديمة ، إنهُ الإطار الذي يتكلم عن طريقة الاتصال بالعلم الآخر ، ومذكور في الكتب أنه ما من رجل عندهُ الإطار إلاّ وكان مصيره الجُنون أو القتل أو الحرق.

وبدأ البغداديُ يسألني : كيف جَلبْتَ الإطار ، ومن أين ؟

فقـلتُ: هل لديكَ الأكثر يا بغدادي ؟؟

قـــال: نعم .. إن هذا الإطار معناه رحلة اللأّعودة ؛ فإن أردتَ الاحتفاظ به فأمّن على الأولاد ..

فسألته : هل هذا الكلام مذكور في كتاب ؟؟

قـــال: نعم في كتاب (الفُتوحات المكية) في علم الإشارة لابن عربي ، وفي كتاب (الفتوحات الجزائرية)، وكتاب (الفتوحات المدنية) وكتاب (فتوحات الصحراء)..

فقلــتُ لهُ : يا بغداديّ دعك من هذا الكلام .. فهمتُ الآن الوجهة وَوَضَح لى الأمر وفهمت الآن الإشارة والرؤية.

ماذا فعلتَ بالنسبة لإيجار الدُّكان وبيع الأغراض ؟

فقـــال: جارُك..صاحب السجاد سيستأجر منكَ الدكانَ، وأما الأغراض فعبد الحميد قلمدار صاحب التحف سيشتريها.

فلما سمعتُ هذا الكلام كأن الأحمال تتساقط من على كتفي ، كما تتساقط ثآليل الجسد عندما تُربط بالخيط ما إن يمر عليها يومان إلاّ وتجف وكأن شيئًا لم يكن .

وتمر الأيام وأبيع الأغراض ، وأوصي زوجتي بأولادي ، ثم استأذنتُ من زوجتي، وهي أمرأة أكبر مني سنًا وأكثر زهداً في الحياة، وهي من قبل زواجنا متعلقة بكتابات الشيخ ابن عربي .. وكثيراً ما كنتُ أشاهدها تقرأ في الفتوحات وفصوص الحكمة، وكنت أنكر عليها قراءةَ هذه الكتب، وما كنتُ أعرف أن الأيام ستدور ، ويدور حالي بالبحث عن الإشارة والعبارة ، وما هي إلا أيام وتهيأتُ للسفر مع قافلة تخرج إلى بغداد ، فلبستُ خرقتي ، وحملتُ أغراضي ـ وجهزتُ نفسي ، وكانت هذه القافلةُ قافلة طلاب العلم ، فخرجنا في صباح يوم الأحد .. وكان يوم الأحد ثقيلا على قلبي لا أحب فيه السفر ولا العمل ، لكني قد غيَّرتُ طباعي .

كان السفر من الشام إلى بُصرى باتجاه الصحراء متجهين إلى الأنبار ثم بعد ذلك إلى بغداد ، وكان مع القافلة بعض الأمانات لتسليمها في بُصرى ثم الأنبار ثم اتجهنا إلى بغداد.

وعند الوصول إلى بغداد تفرقنا .. هم نزلوا في منطقة خان قنبر قرب أرض التوراة .. وأنا اتجهتُ إلى سوق السربادي .. فما إن وصلتُ إلى ذلك المكان إلا و رجل عجوزٌ اتجه نحوي بدون سابق معرفة ، وَسّلم عليّ وقال : أهلا بالضيف الكريم واللسان الكريم والأذن الكريم والعين الكريم، إنّي أنتظر هذا اليوم منذ سنين.

فرحبَ بي ولم أستغرب من الأمر كأنّي تعودتُ على الألغاز وعلى أناس يقرئون الأفكار ، ويعرفون الناس دون تعارف ...

وكنتُ مُستسلماً للأمر فابتسمتُ وأخذتُ بالحديث ، وبالترحيب وبالرد كأني أعرفُ الرجل من سنين .

فقال لي: تفضل لنذهب إلى البيت ، وبدأنا نسير في هذا السوق القديم الذي يشبه سوق الحميدية بسقْفِه ودكاكينه.

ونحن نسير في السوق ، انعطفنا يميناً حتى نهاية الزقاق .. ووصلنا إلى أحد الدور .. لونُ الباب أسود يختلف عن كل الأبواب ؛ فدخلنا والبيت فارغ ليس فيه أحد إلا العجوز .

فقال : اعذرني ، إننا سنتعاون فيما بيننا لتحضير أمورنا لأني أسكن وحدي منذ عشرة سنين ، فزوجتي توفيت .. وابني الوحيد قد تزوج ويعمل في البصرة ، ونتزاور كل عدة أشهر.

ثم وصف لي الدار وقال بشيء من الأدب : ممنوعٌ الصعود إلى الطابق الأعلى ، وهذه الغرف المغلقة أرجو منك أن لا تفتحها .. وهذا بيتُ الراحة ، وهذه غرفتي وهذه غرفتك ـ سأدعك الآن وفي الغرفة صحن كبير عليه طعام وفاكهة ... وأنا لديّ عمل الآن ويجب أن أذهب ، وإن لم أعد فنلتقي غداً صباحاً إن شاء الله ، وقبل أن يذهب قال لي :

قاعدة (١٢٢)

مَنْ زَادَ وَجْدُهُ زادَ صَبْرُهُ؛ فَأَخْذُ العِلْمِ بالدِّقة، وَعَدَمُ السُّؤال مِنَ الأَدَب .

اللّـــــقاء

حسب موعد الدرس .. الحضورُ بعد صلاة العصر عند السيد طالب ؛ إما الجلوس للكتابة أو المسير للسياحة .

وفي أحد الأيام كنتُ عند السيد في الغرفة نكتب قاعدة :

(قاعدة ١٢٣)

عَافِيَةُ الْأَبْدانِ لِغَيْرِ الطَّاعَةَ سُقْمٌ، وَصَحْوَةُ الْقَلْبِ لِلطَّاعَةِ عَافِيَةَ .

وفجأة خرجَ السيدُ من الغرفة ووقف في الباب كأنَّهُ ينتظر ضيفًا عزيزاً ، وهو في قلق، وفجأة وفي الطريق المقابل لباب غرفة السيد ظهر الشيخ المُدرِّس وهو يتَمشَّى باتجاه السيد ، وعندما اقترب من الغرفة ، انعطف حسب الطريق متوجهاً إلى المدرسة الجيلانية ، وعندها نَاداهُ السيدُ طالب وقال :

يا شيخ : نالني الجوع ... كأن الشيخ لم يسمع ثم تبعه السيد فقال: أثقلتَ كاهلي . فالتفت إليه الشيخ المدّرس وقال يا سيد:

قاعدة (١٢٤)

لَذةُ الطَّاعَة سُمُوُّ أو سُموم ؛ فَنَشْوةُ الثَّواب سُمٌّ بِي ،

وَبفَضْلِهِ سُمُوٌّ سَمَا بِي .

ثم توجه الشيخُ المُدرِّس؛ فتجاوز المدرسةَ الجيلانية متوجهًا إلى شارع رأس الساقية وعاد السيد طالب إلى غرفته وقال:

يا لهُ من عارفٍ قد شَخَّصَ العلة ، وأعطى الدَّواء، يا ليتَ الرَّغائب قد فارقتني ولم أنل منها شيئًا.

فسألتهُ : يا سيد .. ما المقصود بما قال الشيخ المدرس؟

قال السيد طالب : إنهُ نبهني بأنَّ الذي يغترُ بطاعته فقد انزلق في فُجوج الشيطان ، وجعل بينه وبين الطاعة هُوّة ، وأرشدني أن أبقى بين الذُّل والرجاء وأبحث عن فضله سبحانه كي أنال المراد .. ثم عاد السيد طالب إلى الغرفة، وبدأ يكتبُ على الجدار قاعدة (كيف أعلم أني على حق) فكتب بخطٍ كبير

قاعدة (١٢٥)

مَنْ ظَنَّ أَنَّ الدُّنْيا سِجْنُه فَقَدْ أَيْقَن ،

وَيَوْم خُرُوجِهِ يلْتَقِي بِمَحْبُوبِهِ .

ثم جلس وطأطأ رأسَهُ بُرهةً من الزمن كأنه غَطَّ في نومٍ عميق ، ولكنه بين الحين والحين كان يتنفس بقوة .. فقام وقال لي :

قم لنذهب، فخرجنا من الدار متوجهين إلى شارع رأس الساقية، وفي نهاية الشارع مسجد العيدروسي، وهو قريب من جامع الخلاني وبين المسجدين خطوات ؛ فدخلنا المسجد ونزلنا عدة سلالم .. وانحرفنا يمينًا باستقامة .. وإذا بغرفة قديمة مفتوحة الأبواب، وعلى الطرف اليمين من الباب مقعد من الخشب قد جلس عليه رجل في عقده الخامس، وقد كان متكئًا فاعتدل، والغريب أن حواجبه كثّة قد نزلت على عينيه، حليق اللحية ، فسلَّم عليه السيدُ طالب ، فرد السلام وجلس عنده .

ثم سأل السيد طالب عن قبر الشيخ العيدروسي؛ لأنه كانت هناك عدة قبور في المسجد.

فأشار العجوزُ إلى إحدى القبور؛ فتوجهنا أنا والسيد طالب نحو القبر؛ فوقف السيد عليه وسلم ، ثم بعد ذلك رجع إلى مكانه ..

وبدأ يسأل الرجل : ماذا تفعل هنا ؟؟

قـال العجوز : أنا خادم المسجد

قـال السيد : من أي البلاد أنت ؟؟

قـال الرجل : من مصر .. من محافظة (طنطا) ومن مُحبي السيد أحمد البدوي.

فقال السيد طالب : ما شاء الله .. ما شاء الله ... علامة الخدمة ظاهرة ، ما أشقى من لم يَخْدِم ، وما أسعدَ من لزم الخدمة .

فبكى الرجل ثم قال : والله أنتم ضيوفٌ قد أدخلتموني في حيرة؛ لأني كنت أفكرُ في الخدمة، وكيف تصل بالسالك إلى أرقى المسالك.

وما بين المحاسبة والتفكير بالخدمة دخلتم عليَّ كأنّها الإشارة .

فقــال لهُ السيد : يا صاحب الخدمة انصحنا

فقــال الرجل:

قاعدة (١٢٦)

مَنْ أَرادَ الشَّرفَ فليذكُر الله ،

وَمَنْ أَرادَ الرِّفعةَ فليَدعُ الله في مَيْدان فِكْره .

فسأله السيد طالب : هل تعرف أحدًا من أهل الطريق ومن أهل السبيل مربك أو مررتَ به ؟

فقــال له : نعم .. إنه الرجل الغريبُ صاحب الشعر الأبيض الكث الذي يلبس الجلبابين ويلتحف بالفرو في الصيف والشتاء، إنه الواسطيّ ؛ فسألهُ السيد طالب بلهفة: أين هو ؟ دُلّني عليه .

فقــال الرجل: إنه يسكن في غرفة قديمة بجوار مسجد الخلاّني ..

فقال السيد: ولكن لا توجد أي غرفة بجوار المسجد مسكونة ، فكلُّها خرائب.

فقال الرجل: نعم، إنه في إحدي هذه الخرائب، ويتولى الكنس والتنظيف بمسجد الخلاني ومسجد الجيلاني مع الحاج إبراهيم ؛ فإذا خرجتَ لصلاة الفجر أو قبل منتصف الليل سترى الحاج ابراهيم والرجل ذو الشعر الأبيض الذي نسميه (الغريب) يكنسان الطريق أمام المسجدين ويتناوبان .. يوم هنا ويوم هناك.

وبعد هذا الحديث سَلّمنا على الرجل وانطلقنا إلى المسجد المجاور فوقف السيد على القبر وسلم .. ونظر في المسجد وفيمن يدخلون ويخرجون فلم نر الرجل المطلوب؛ فخرجنا من المسجد وعلى يمين الباب الخارجي بانعطافة بسيطة على الشمال باب من الخشب القديم مكسور من الأعلى وكأنَّ الذي أغلقه قد وضع شيئًا خلف الباب كي يجعل الباب تنغلق.

فقال السيد طالب: إن الرجل هنا .. بنظره الثاقب وفراسته الأخّاذَة بالعقول .

فطرقْنَا البابَ ؛ وسمعنا صوتاً من الداخل يقول :

ادفع الباب يا زائر وادخُل؛ فدخلنا فإذا برجل يجلس على جذع شجرة مقطوعة، شعرهُ أبيض كث طويل، لحيته بيضاء طويلة، يلبس جُبَّة من الصوف ، شَبَّك بين أصابعه ناظراً في الأرض ، كأنهُ رجل قد مات منذ سنين وما هذه إلا صورة قد احتفظ بها الزمن في ذاكرته .. وعلى يمين الرجل دلو من الماء ، وعلى شماله صخرة قد أسند إليها أنامل قدمه اليسار .. وعندما اقتربنا منه رفع رأسه ؛ فوالله ما رأيت أجمل منه ولا أبهى ؛ كأن ضوء الشروق قد ضرب بأشعته كأس الزهور فلمعت قطرات الماء حول الأوراق فرسَمَت صورة في ذهني ... وإلى يومي هذا لم أنسَ الشيخ الواسطي.

سلَّمنا عليه فرد السلام ، وكأنه جذبني ؛ فبدون إرادتي ذهبتُ إليه وقبلتُ يده ثم جلس السيد طالب على الأرض وجلست بجواره..
فقال الشيخ الواسطي : هل بعثكما من هَرَب من العشق وجلس للخدمة ؟؟
ويقصد الرجل المصري .. صاحب الخدمة في مسجد العيدروسي .
ثم سأل السيدَ : أنت تجوب التخلية أم تحوب التخلية ؟؟
فقال السيد طالب: يا أيها الشيخ ألبسك الله بالبياض جئناك للنصيحة ..
فقال : اسمه كَسَمْع الحداد، فالمطرقة والسندان جعلتا للحداد أذنا غير أذنيه يسمع الطَّرْق دون الطرق، وقـال :

قاعدة (١٢٧)

همُّكَ غضُّ البَصَر ، فإن شاهدتَ اللّهَ بمخلوقاته فلا تصرف عينيكَ؛ لأَن تُشاهِدَ معصية ..

يا من تطلب النصيحة :

قاعدة (١٢٨)

إِن وافَقْتُم ما أَتَاكُم به
نَخَيرٌ مِن حِفْظِ الحُروف من المَشْرق إلى المَغْرب .

واعلـم يا سائل :

قاعدة (١٢٩)

أَكرمُ الخلْق صَوَّر ، والكِرامُ أَخَذوا ، ولا ينتهي عند الكرام .

واعلـم يا مُحـب :

قاعدة (١٣٠)

الإِنقيادُ والموافقةُ طاعة، وما لا يحلُّ انتهاكُهُ من ذمةٍ أو حقٍ أو صحبة حُرمة، والحرامُ والحلالُ حدود، فالطَّاعةُ قُرْبٌ، والحرمةُ أدبٌ، والحُدود استقامة؛ فحُرمة الحدود تدور بالعبد من منزلة إلى منزلة حتى يُسْقى .

ثم سكتَ الشيخ وقال:

الغريبُ في هذه الدنيا حِمْلُهُ خفيف ، وَيُبْعث خفيفاً ؛ فعيشوا كالغُرباء ، أو كونوا في سياحة ، فما أخذ الفتوح إلا من السير في السفوح ، وما أنبت علماً إلا عندما قتلوه في سبيله ..

ثم قــال الشيخ : اسمحوا لي بأن أذهب إلى عملي، وتركنا ودخل في غرفة في فناء الدَّار.

وقــال لي السيد طالب : قُم لنذهب ؛ فإن الشيخ قام بالخدمة وبدأ الشغل فلا يشغَلُهُ شيء ، ولا يهتم بأمر الدنيا ولا أمرنا ؛ فمن الاحترام لزوم ُالأدب والانصراف فخرجنا للعودة من حيث أتينا ..

فما إن اقتربنا من منزل السيد طالب حتى قال: انصرف وسنلتقي غداً .

قلــتُ : يا سيدي ... والحكاية ؟؟

قــال : اذهب غداً .... فانصرفتُ ..

المحبـــة

وبعد تلك الليلة التي نمتُها في بيت ذلك الرجل الغريب الأطوار الذي عرفني دون سابق معرفة ، وكانت ليلةً شديدةً عليّ ؛ فما إن أغمضتُ عيني إلا وكأنني أغرق في بحيرة وسط كثبان رملية .. ومع أذان الفجر نهضتُ من فراشي وأنا متعب مثقل بأعباء الهموم والتفكير والرحلة ، وما أنا فيه من فراق الأهل ولأحبة ، وإني أسير إلى طريق مجهول لا

أعلم كيف ينتهي ، ولماذا أنا هنا ، ولماذا سمعت كلام تلك العجوز ، واستجبتُ لما تطلب مني ، وأنا بين هذه الأفكار اشتقتُ إلى ابنتي الصغيرة عندما كانت تودعني وتقول لي : يا أبي هل ستعود في نهاية الأسبوع

فخفتُ من الكذب وقلتُ لها إن شاء الله وكأنها تعلم أن رحلتي طويلة .

فقالــت لي : يأ أبتي هلاّ ضممتني إليك قبل الرحيل .

وتذكــرتُ ابنتي الكبيرة وهي تضمني من ظهري وأحسست بدموعها تتساقط على كتفي ، كأنني شجرة مقطوعة ميتة تُسقى بماء الحياة المحترق كي تحيا من جديد؟؟

وزوجتي التي تعلم القصة، وهي قارئة جيدة لكتب العرفان والسير والسلوك كأن الدموع شقت في خدّها جدولين لكن المياه تجري بصمت؛ لأنها تعلم أنه عام الحزن والفراق ...

وأنا أتذكر هذه الصورة من صور الذكريات لعائلتي ندمتُ مما بدأت به ، لكنَّ صوتًا من داخلي بدأ بالصُّراخ كأنني أحمل في جوفي رحم أنثى وهي في شهرها الأخير من الحمل ، وقد جاءها الطلق فولدت الطفلَ في جوفي ، وبدأ بالصراخ، ومن هذا الصراخ انتبهتُ إلى طريق العشق غاية العظماء والخواص.

وانتبهتُ إلى نفسي وأنا في حالة يُرثى لها، منهك .. والعرقُ يتصبب من جبيني، ولا أعلم ما حدث لي .. إلاّ إني توجهتُ إلى الحمام واغتسلتُ وتهيأتُ للخروج إلى الصلاة، فخرجت إلى السوق باتجاه المسجد فشاهدتُ بوابة صغيرة وأخرى كبيرة .

الصغيرة مكتوب عيها: "مقام القاضي أبو يوسف"والكبيرة مكتوب عليها "مقام الإمام موسى الكاظم" والناس يتجهون إلى الجهتين ؛ فدخلتُ مسجدَ القاضي"أبو يوسف"، وصليتُ صلاة تحيةَ المسجد وسنة الصلاة القبلية، وجلستُ أنتظر الإقامة، وبعد قليل أقيمت الصلاةُ، وكنتُ في الصف الثاني /فانتبهت إلى وضع المُصلين كان الذي على يميني مُسبلاً يديه ، ومَنْ على الشمال أخذ بيمينه شماله تحتَ صَدْرة، فشاهدتُ التسبيل والتكتيف في الصف الأول كأنها لوحة ترسم رَصَّ الجدار يشد بعضه بعضًا ... موقف جميل وصلاة روحانية عظيمة أحسستُ فيها بالطمأنينة والسكون والمحبة.

نعم إنها المحبة في هذه البقعة المباركة التي فيها إمام من آل البيت من نسب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، بل فيها إمامان .. الإمام موسى الكاظم والإمام محمد الجواد، وقبر القاضي (أبو يوسف) ، صلاة جميلة ومنظر رائع .. وبعد الصلاة جَلَسنا نذكُر الله ونُسبحٍّ ونَدعو إلى شروق الشمس، وكان هُنالك مجموعة في جانب المسجد يُرددون هذا الدعاء والذكر:

يا دَائمَ الفَضْل على البريّة

يا باسطَ اليدين بالعطية

يا صاحبَ المَوَاهب السَّنية .. حق ..

صلّ على محمد وآله خير الوَرَى سَجيّة ..

واغفر لنا يا ربنا بهذه الوقتية .

وبعد الانتهاء من الصلوات والأذكار

خرجنا من المسجد ، وكانت أشعة الشمس تتلألأُ على قبة الإمام الكاظم وقد ملأت المكان بالضياء .. وكأنَّ أشعة الشمس قد التصقت بالقُبَّة وانبثق منها الشعاع ثم سرتُ إلى السوق واذا برجلٍ عجوز يُسلم عليَّ قائلاً : لم أَركَ في الصلاة ؟؟

فقلــتُ: كنتُ في المسجد وصليتُ الفجر ..

فقــال العجوز : في أي المسجدين صليت ؟

قلــتُ : صليتُ في مسجد القاضي..

فقــال : ولكني صليتُ في الصحنْ الكاظمي..

وعندما كان السيد طالب يحدثني عن حكاية رفيق وعن مسجد القاضي أبي يوسف، ومقام الإمام موسى الكاظم .. وعن التعاون والأُلْفة والمحبة بين أهالي المنطقة، وأهل العرفان المُنتمين لمُختلف المذاهب الإسلامية .. فأحسستُ بالرَّاحة والطمأنينة والسعادة.

لكن الأيام قد حملت في طياتها الكثيرَ من المُتغيرات والحوادث المؤلمة التي عندما نذكرها نشعرُ بالألم الشديد؛ فإن القاضي (أبو يوسف) مدفون في منطقة مقابر قريش سنة اثنتين وثمانين ومائة للهجرة ، وبعدها بسنة كانت وفاةُ الإمام الكاظم شهيداً على جسر بغداد سنة ثلاث وثمانين ومائة للهجرة ، وبعدها بسنين دفُن الإمام الجواد في نفس المقابر سنة عشرين ومائتين للهجرة

...

انظروا إلى هذا الخليط ما بين الحياة والممات والزمن الغابر ، فالإمام أبو حنيفة أنفق من أموال تجارته لدعم ثورة الإمام زيد بن علي ، وكان يجلس في مجلس الإمام محمد الباقر وكان الإمام يُثني عليه .. والعلاقة ما بين أبي حنيفة وآل البيت حميمة مبنية على الوفاء بالعهد لحضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، والإمام أبو حنيفة جاور الإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق في المدينة سنين.

وتمُّر السنون ... وعندما زار رفيقُ هذه المنطقة بداية إنشاء سوق (السربادي) ما بين عام (١٩٢٠-١٩٣٠) كان هذا الحي فيه الألفة والمحبة والتكاتف و صلاة الجماعة.

ثم بدأت الفتنة الطائفية تطلُّ برأسها خاصة بعد الحروب التي خاضها العراق مع دول الجوار والتي أعقبها دخول قوات الاحتلال.

وسرعان ما اندس فقهاءُ السياسة وتجار الدين الذين يدسون السم في العسل ، ويحاولون تمزيق شمل هذه الأمة، وهنا ونتيجة أفعالهم الشنيعة وتنفيذهم لمخططات الخارج بدأت الحرب الطائفية تفتكُ بالبلاد وتُحرِقَ الأخضر واليابس بلا تمييز وصار دخول المساجد محُرماً ؛ فصار الذي يُسبّل يحمل بندقيتين، والذي يكتّف يحمل قنبلتين ـ وما إن بدأت الصلاة إلا ويبدأ القتال بدل التوسل والدعاء، وصارت المساجد معطرة ليس بالورد والياسمين، وإنما برائحة قطرات الدم التي تسيلُ على جدرانها كأنها سجادة مزخرفة مكتوبٌ عليها :

الطائفية المقيتة، والصراعُ فقه السياسة من أجل المناصب والمكاسب الدنيوية، خَسِىء الظَّالمون .. وتحيا مدرسة العرفان التي عاشت وستعيش بالحب والمودة ونصرة قول الحق ؛ لأنها المدرسةُ الأُصولية التي تأخذ بالقواعد الكلية ، ولا تلتفت إلى مذهب معين وتتصارع من أجله ، بل الميل مع العدالة أينما تميل كفتها.

نعود لإكمال قصة رفيق ....

- رفيق يقول للعجوز : أين نذهب ؟
- العجوز : نشتري خبز الشعير والجبن الأبيض ونأخذ قليلاً من الزيتون.
- رفيق: طعام جيد .

وبعد ما أكلنا وشبعنا سألتُ العجوز كيف عرفتني ؟

فقــال يا رفيق : ستفهم هذه الأمور عندما تقطع المنازل والمقام وتسير في طريق أهل العشق .

فقلــت للعجوز : الآن ماذا أفعل ؟؟

قال العجــوز : الآن سنخرجُ إلى خارج المدينة .. وهناك المسجد الخاص لمن أراد التلقي ، وستعتزل الناس حتى تبدأ تخطو الخطوات الأساسية ، وتبدأُ الرحلةَ الثانية، وسأُكمل لكَ الإطار ...

فقلـــتُ: يا عم ... أَبَعْد هذه الرحلة رحلة أخرى؟؟

قال يا رفيق: ألم تقرأ : الفتاة ورحلة البحر ؟؟

فقلـــتُ: نعم قرأت هذا الأمر لكني ظننت أنها هنا ...

وبعد هذا الحديث ذهبنا إلى مسجد صغير خارج البلدة وسكنا في المسجد ، وبدأتُ برحلة الأنفس والمقام في غرفة صغيرة وكان هذا العجوز يخدمُني ، وكنتُ لا آكل إلاّ قطعة من الخبز وبضع حبات من الزبيب الأسود ، وكان يقول لي دائماً:

قاعدة (١٣١)

حَافِظْ على الذكْر والتأمل والخوَاطر، وكن في خَلْوَتِك مع الله ، وتَذَكّر حياةَ النُّبوَة .

وقــال لي: احفظ هذه :

قاعدة (١٣٢)

مَنْ رأى نَفْسَهُ شيئاً رأى عَمَلَهُ ، فَسَقَطَ كُلُّه .

وقـــال:

قاعدة (١٣٣)

مَعْرفة الأُوصاف عِبارَة ، وَذِكْرُ إِفرَاده إِشَارَة .

وقــال اعلــم :

قاعدة (١٣٤)

إذا أَردتَ القُرْبَ فاحفظ عنّي هذه : مَنْ أَشَارَ إليه بجهَةٍ ابتعد ؛ فَنوَالُ القُرْبِ دونَ إِشَارَةٍ قُرْب

ثم تركني العجوزُ وذَهَب ، وكنتُ في المسجد لوحدي .. نهاري صيام وصلاة وذكر ، وليلي قيام وذكر وفِكْر.. النوم سويعات .. والطعام سد رمق .. والقوة أستطيع أن أنقل جبلاً ...

وكُنتُ أسمعُ الأنغام لا من آلة ولا جهة، وأسمعُ تسبيحَ الناس كأنهم مُعَلَّقون بالسَّماء، فَرأيتُ في اليوم السابع مناماً .. وكأنني أُصْحِرُ .. ثم رأيتُ نفسي أُبْحِر .. ثم رأيتُ نفسي تحت شجرةٍ كبيرة جدًّا جذعها ضخم جدًّا، بحيث لو أردتُ أن أدور دورة كاملة حول الجذع فأحتاج إلى يوم ، ظِلُّها عظيم، كأنها غيمة سَدت المشرق مع المغرب ، وفيها فاكهة ليست بالتفاح وتُشبه التفاح ، فسقطت منها حبة فأكلتُ منها فكان طعمها حلواً حامضًا ولم يبق في فمي إلا الحلاوة.

وكنتُ أُحسُّ بطعم الحلاوة بعد الرؤية بأيام، وما إن أكملتُ يومي الثلاثين إلا ورأيتُ منامًا آخر :

كأنَّ لي كلبًا .. وقد جلسنا تحت ظل حائط فأخرجتُ من حقيبتي جّرةً فيها لبن ، وصببتُ في وعائي لكي أشرب ، فضرب الكلبُ بيده الصحنَ فأراق اللبن .

فقُمتُ بملئهِ مرة أخرى ففعل كفعلته الأولى وأراق اللبن.

وأما في المرة الثالثة عندما ملأتُ الوعاء وَضع الكلبُ رأسه فيه مسرعًا وشربه ، وما هي إلاّ بضع دقائق إلاّ ونَفَقَ الكلب وتورّمَ جسده ؛ ففزعتُ من هذا الموقف .

ثم كسرتُ الجرّةَ فوجدتُ فيها حية (أفعى) فندمتُ على صاحبي الوفي الذي ضحى من أجلي.

وبعد كل هذه الأيام جاء العجوز فقال:

أكلتَ من الثمار ، مات صاحبُك ..

فقلتُ له : بالله عليك لم أفهم !!

فقال: الفاكهةُ نصيبكَ من العلم والحقيقة ، والكلبُ هو المُحب ، إذا أَحب مات من أجل محبوبه ؛ فإن تعلمتَ التضحية تعلمتَ معنى الحياة ، والحياة دون العِشْق ليست بحياة ... اسمع يا رفيق:

قاعدة (١٣٥)

طَهّر بصَركَ ، وخُذْ مِنَ الأَثَر ما يَمْلأُ نَهَاركَ وَلَيلكَ ، وأَمْسِكْ نَفْسَك عن الحرَام ، واجعل لِشَهوتِكَ لِجَامَاً ، ورَاقب الخوَاطِر اللئَام ؛

فإنَّك ستَحْظى يا فَهّام .

ثم قال لي : أكمل عشراً فقد أتممت الأَربعين ثم تذهبُ إلى مكة ، وتتعلم من بنت تاجر القمح بقيةَ الرحلة .

وخُذ هذه الورقة وضعها في الإطار .. وحاول أن تصل قبل الحج ، وَانوي وقف واجتهد .. ثم ودعني وقال :

<u>قاعدة (١٣٦)</u>

أولُ الطَّريق لعاشِقٍ صَادِق .

التربيةُ ولقاءُ المجنون

عَصْر يومِ الخميس كالمُعتاد .. طرقتُ الباب على السيد طالب ؛ فخرج غاضباً وقـال لي : لماذا قلبتَ صحْنَ الحلوى في دُكان مُحمد ؛ فخفتُ وتراجعتُ قليلاً ؛ فقال: تعال إلى هنا ؛ فتقدمتُ وأنا أعتذرُ من السيد ...

فقــال : الاعتذارُ ليس لي ، بل لصاحب الدكان المسكين ، إنه عاجز .

فقلـتُ : يا شيخي إنهُ شَتَمني .. فقـــال:

قاعدة (١٣٧)

الشَتْمُ لا ينقُصُ وَلاَ يَزِيدُ ،

بَل يَأْخُذُ السَّيئَةَ كما يأْخُذُ المَاءُ النَّجَاسَةَ مِنَ الثَّوب .

ثم خرج من البيت وقال : اتبعني وهو يتجهُ باتجاه دارنا أظنه قَصَد دكان محمد، وما هي الاّ خطوات ووصلنا إلى الدكان فلمّا رآني البائعُ اتجه نحوي ، لكنَّ السيد مَدَّ يدهُ ووضعها على صدره وقال : اهدأ ؛ فهدأ الرجلُ وقال له السيد : بكم صحن الحلوى الكبير هذا ؟

قال البائع: بدينار ونصف ..

فأخرج السيدُ طالب (٣ دنانير) وأعطاها إياه ..

ثم قـال له السيد : أعطني سيجارة ..

فقال البائع: إنّي لا أدخن ، فشكرهُ السيدُ واعتذر منه ، وقال لي: اعتذر يا تسعين ..

فاعتذرتُ من البائع وصالحته .

ثم انصرفنا .. لكننا لم نَعُد من طريقنا الأول ولكن اتجهنا إلى وجهةٍ أُخرى من طريق (فَضْوة عَرَب) حيث قطعنا شارع الكفاح باتجاه الباب الشرقي ومن ثم انحرفنا يمينًا إلى منطقة (الفنارة)، وفي نهاية المنطقة مسجد صغير يجلس على جانبه رجل كثُ الشعر واللحية ، مُغْبَر من رأسه إلى قدمه .. يلبس كثيراً من الملابس، وهو جالس على صخرة صغيرة ، وبيده عصا قد اتكأ بيديه ووضع خدهُ الأيمن على ظاهر يده اليمين ، فوقفنا عنده مُسَلِّمْين ؛ فلم يُحّرك ساكناً ولم يرد السلام .

ثم قـــال : اجلسوا .. فأنتم مجانين وتريدون أن أصنع لكم علاجاً .

فقال السيد طالب بكل أدب : نعم يا سيدي ما هـــــو العــــلاج لمجنون فَقَد الصــــــواب ؟؟
فقـال للسيد طالب : يا مجنون اسمع :

قاعدة (١٣٨)

طريقُنا التَّغَافُلُ، وللإِخْوَان أَوْلى ؛ فَمِنَ المُروءة أَن تَقْلِبَ السَّيئةَ حَسَنة .

وقــال :

قاعدة (١٣٩)

يا صاحبَ الفنون والجنون :

العَملُ والميزانُ يَتَصارَعَان، فَبِعَطَائِهِ لاَ ميزان، وبالْعَمَلِ فَوقَ الاتزان.

ثم عاد إلى حالته الأولى (الصمت) ؛ فلم يتكلم ...

وبعدها بقليل قال السيدُ طالب : قم لنذهب .. إنَّ صاحبنا قد انتشى من سُكر يومه، ومن خمرةٍ كانت محمولةً على أجنحة الرياح فما إن هبّت إلاّ وشرب؛ فنالنا منها قطرات، وقُمنا وأكملنا وأخذنا يمينًا باستقامة حتى وصلنا إلى مسجد الخلاني ، ومررنا على البيت الصغير ذي الباب المكسورة ، وكان الرجل الليث يصلي.

فقلتُ للسيد: ألا تُكمل لي قصة رفيق بعد العزلة وهل ذهب إلى مكة ؟؟

قال: لنذهب ونكتب بعض القواعد، ونُصلي المغرب وغدًا نُكمل الحكاية .

فوصلنا البيت ودخل ليتوضأ .. وقبلها قال لي : اصنع الشاي، وعندما كنتُ أصنعُ الشاي خطرت على بالي خاطرة هي:

أن أذهب وأجلب بعض أفخاذ الدجاج المشوية من مطعم (غرناطة) قرب سينما (غرناطة) عند ساحة الصباغين والنقّاشين.

ثم عاد السيدُ وقال بملىء فمه : إيّاك أن تُفكر بالطعام وأنت عندي فكأنّي بَلَعْتُ لساني ، ولم أستطع النطق

ثم قال: اسقني الشاي .. وتعال فاكتب بعض القواعد فقال :

قاعدة (١٤٠)

صاحبُ الطَّاعَةِ لِيِّن، وفي الأمْرِ بَيِّن، وفي التَّكلُّمِ عَلَيل،
وَفي المُعَامَلة قَوِيٌّ أَسيل، شوقهُ دليل، لا يَرى نَفْسَهُ إِلاّ ذليل .

ثم قــال : هل تُريد أن تكون من الرجال ؟؟
قلــتُ : نعم يا شيخي .. قال اكتُب :

قاعدة (١٤١)

كَسْبُ الحَلاَل، والاحتياطُ في المأْكَلَ والمَلْبَس

وأنا أكتبُ : قلتُ يا شيخي ما الخَلْوة ؟ .. قــال

قاعدة (١٤٢)

الاعتكَافُ وَتَقْييدُ الجَوارح بالأَوامرِ وَالنَّواهي ، واستظْهَارِ الصُّحْبة، واسْتكبَار الهِمَّة .

ثم قال لي : القلب يحيا ويموت ... قلـتُ : كيف هذا يا سيدي ؟؟

قاعدة (١٤٣)

من فضَّلَ الغنيَ وصاحبَ السُّوء والتَّرف، على فقيرٍ ومن يُبكيه وخَشِنٍ، فقلبهُ ميت .

وقــال :

قاعدة (١٤٤)

إنّ العاَصي يتوبُ يوماً ويَرْجع ويُغْفرُ له ،
والمُدَّعي وكَرَر والمدعي في غيّه يخوضُ في البَحْرِ وَ هُوَ لا يَعرفُ السباحة ، فَقَد ضَلَّ وأضل .

فقال اكتُب هذه وارحل :

قاعدة (١٤٥)

طَريقُنا العَفْوُ إلاّ الشرك والإدعاء، نَخُذُ التَّوحيدَ وامُ الكَذِبَ.

ثم انصرفتُ راجعًا إلى بيتي ..

المكوثُ في مكّة

منذ وعيي الأول وأنا أسمع الناس يحجون ويعتمرون وكنت أتمنى أن أذهب، ولكنّ الأمور لم تتيسر فانشغلتُ بالحياة، وتزوجت وفتحتُ دكاني الذي في سوق الحميدية وعملتُ بالتجارة ، وكنت قد نويتُ أكثر من مرة لكن الأمور لم تتيسر : كأن الذي يذهب إلى مكة حاجاً أو مُعتمراً تأتيه الدعوة من هناك.

كأنَّ الملائكة تكتبُ أسماءَ النَّاس وتضعها في صندوق الدعوة.

وها أنا في ليلتي الأخيرة (الأربعين) من خلوتي، الجوع والسهر أخذا مني كل الحواس؛ فاجتمَعَت وصَارَت حاسةً واحدة وهي التفكير، وليس من الحواس.

فما كنتُ أسمع ولا أرى ولا أشم ولا أتذوق ولا أتلمس ، غير أني أؤدي حركاتي من وضوء وشرب ماء ونحو ذلك من الحركات الحيوانية التي تؤدي في الحياة / فالكل يشرب ويأكل ويتحرك ليس بقوة العقل بل بقوة النفس ، ولهذا تميّز الإنسانُ عن الحيوان بالعقل ، فكنتُ عقلاً أفكرُ في الله لا في ذاته (أستغفر الله) بل بانعكاس الصفات على الكون ، وهكذا الأسماء فيها معاني الجمال والرقة والإحساس والنظام والانتظام والإتقان والحكمة فعندما نُشاهد حديقةً من الزهور ترى الإبداع في الألوان وعندما تقف على جدول ماء من حوله الأشجار والزروع والأثمار ستستسلم بإحساسك لهذا الجمال.

وإذا تسلَّقت جبلاً ستعلمُ كم أنت صغير .. وكم هذا المخلوق عظيم .. ثم إن عظمة الجبل في جذوره التي تجذرت وامتدت في باطن الأرض والتي تجعل الاتزان لهذا الكون...

وإذا نظرتَ إلى البحر وأنت تقف على شاطئه ستعلم أنّكَ لا شيء ، وإذا وقفت في وسطه ستعلم أنك ضعيف ليس لديك أي قوة، وإذا تعمقت وتبحرت قليلاً بأن تحلل التربة وما تحت التربة والطبقات الصخرية وما تحت الأرض من عوالم وكائنات ونفائس.

وإن علوت بنظرك الثاقب لترى الكواكب ولكل كوكب لون خاص ؛ فما بين الأرض والشمس كواكب صخرية ، وفي الجهة الأخرى كواكب غازية ، ولكل كوكب لون وجمال وشهر وفصل لظهوره في كبد السماء...

وإذا نظرتَ إلى الشمس والأرض والقمر..

أرض تدور حول الشمس ، وقمر حول الأرض ، والشمس تجري في هذه المجرة، إذا نظرتَ إلى ذلك تعلمُ أنكَ أصغر المخلوقات وأدقها صنعاً وأتمها.

فإنَّ هذا العالم بكواكبه ومجراته وثُغوره السوداء موجود في جسم الإنسان بل قد يكون تكوين جسم الإنسان أكثر تعقيداً ، فبقليلٍ من النَّظر تعلم أن للشمس كلفًا كوجه الإنسان عندما يُصاب ببقع السواد ، وتنتج عن اختلاط السوداء والدم مع التعب والتعرض لظروف غير طبيعية فتنشأ هذه البقع على الوجه ، أما الشمس فهي شدة حرارة وانفجارات شمسية تحول هذه البقع إلى نار سوداء، وهذا إثبات آخر أن نار جهنم سوداء، وأن السواد أساس النور، وكل هذه الأمور هي في خدمتك أيها الكائن البشري، وأن داخلك الكون بصورة أخرى فالكون صورة للإنسان ، والإنسان صورة للكون وما أشبه الصورتين، كأنَّ مهندسًا معماريًا صنع بيتًا من الورق تصميمًا للبيت الذي سيشيده بعد حين ، فالإنسانُ هو هذا البيت الورقي .. والبيت الحقيقي هو الكون في أحسن تقويم .. و (أحسن) (صيغة تفضيل) دليل الإحكام ...

كان هذا تفكيري في خلوتي مع ربي ، غفرانك ما أعظم شانك ، وكنت أردد "بلدة طيبة ورب غفور".

وعند انتهاء خلوتي في اليوم الأربعين غفوتُ بل إني أمسك الإطار ، وقد وضعتُ عليه ذاك الرق الذي أعطانيه العجوز .

وكأنَّ الإطار والرق قد امتزجا، وبدءا يُشعان ضوءا مستويا .. وكأنني أخترق هذا الضوء فأرى عالم الأنس والنغم .. عالم السماع .. عالم الفكر والرقي والبهجة والسرور .

عالمٌ ترقص فيه بكل حرية ...

عالمٌ تشم فيه روائح عجيبة .. ومناظرهم لا توصف .. وأشكالهم كأنها خيوط النور فد نسجت لهم أثوابا ، وعندما يمشون كأنما الأرض تمشي بهم ، وإن جلسوا فيجلسون على أرائك من نغم .

ولا يأكلون إلا في أطباق من حب، وطعامهم روْحٌ وريحان وإقحوان وقحطان.

إشاراتُ العبارات لا أستطيع إلا أن أرسمها في خيالي ، يا لها من حياة .. الله ...

صحوت وأنا في باحة المسجد .. والشمس قد علت وجهي فقمت وتوضأت وحزمت أمتعتي ، وكان العجوز قد أعطاني دابة فخرجت متجهاً إلى بغداد ، كي أشد الرحال إلى مكة روضة العاشقين وبيت المحبين وقبلة المستغفرين وساحة أهل العلم والتقى، وبعدها أسكن بالجوار النبوي، أرحل حافي القدمين، حاسر الرأس إلى حبيبي وقرة عيني النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وصلتُ بغداد / منطقة الإمام الأعظم / مسجد الإمام أبي حنيفة ، وذهبت إلى الخان واستأجرت غرفة لي ، ومكاناً للفرس ، وكان الوقت مساءاً فنظمت أغراضي واغتسلت وأكلت من الخبز الذي كان معي والزبيب .. وقلتُ في نفسي إن شاء الله سآكل ما يتوفر ، ونمتُ تلك الليلة ، ورأيت في منامي كأنني أغتسل من عين نضاحة من قمة جبل ، الماء بارد جداً فأصبهُ على رأسي وارتجف برداً واختنق بفتح فمي لأستنشق أكبر كمية من الهواء .

وما إن صببتُ على رأسي الدلو الثالث إلاّ وصحوت والمؤذن يؤذن ، فقمت وتوضأت وتوجهت إلى المسجد ، وقلتُ في نفسي : في المرة السابقة صليت في مسجد القاضي (أبو يوسف) ، ومسجد الإمام الكاظم قريبٌ ولم أصل فيه ؛ فعزمت أن أصلي هناك ، وصليت صلاة الظهر في مسجد أبي حنيفة النعمان ، وعزمتُ على أن أصلي الفجر إن شاء في مسجد الإمام الكاظم

..

وفعلاً قطعتُ الجسر متوجها إلى مسجد الإمام الكاظم وما إن دخلت المسجد إلاّ وأقيمت الصلاة ، وقد تعمدتُ الوقوفَ في الصف الثاني لأرى كيف يقفون للصلاة ، فكان نفس المشهد الذي رأيته في مسجد القاضي ، منهم الذي أسبل ومنهم الذي كَتّف..

وبعد الصلاة جَلَس جماعة في أحد أركان المسجد يذكرون الله قائلين :

يا دائِمَ الْفَضْلِ عَلى الْبَرِيِّةِ .
يا باسِطَ الْيَدَيْنِ بِالْعَطِيَّةِ.
يا غَافِرَ الذُّنوب والخَطيّة .
صَلِّ عَلى مُحَمِّد وَآلِهِ خَيْرِ الْوَرى برية
وَاغْفِرْ لنا يا ربنا بهذه الَوَقْتية ...

وسمعتُ رجلاً يركض في الصحن الشريف ماداً يديه إلى جهة القبلة وهو يقول:

خير البرية نظرة إليّ
ما أنتَ إلا يا حبيبي كنزُ العطية
يا بَحْرَ فَضْلٍ يا تاجَ عَدْل
جُد لي بوصلٍ يا حبيبي قبل المنية
كم ذا أنادي يا خير هادي
يكفي البعد يا حبيبي يا نور عيني
حاشاك تغفل عني وتبْخل
يا خيرَ مُرسل ياحبيبي عاطف عليَّ .

ثم عدتُ أدراجي إلى الخان ، فسألتُ صاحبَ الخان ما هو الإفطار ؟
قــال : يوجد كبد الغنم المشوي (معلاك) .
قلــتُ: هذا الطعام من الصباح !!!
قــال : نعم ، وسألني من أي البلاد أنت ؟
قلــتُ: من الشام .
قـــال : نعم نعم .. أنتم تأكلون الجبن والزيتون فطور الأطفال ، ونحن نأكل لحم الرأس للعجول والأغنام وكذلك الأطراف كما نأكل الثريد بالمرق واللحم صباحًا .
قلــتُ: فعلاً أنتم رجال الصِّعاب وحياتكم ألوان وعجاب .
وقلــت: أريد أن آكل الكبد (المعلاك)
فقــال : كم تريد ؟؟
قلــت: إني جائع .
فقال : سأوصي لك بطعام شخصين كأنه عَلِم أني جائع جدًّا، وعندما جلبوا لي الافطار كان الطعام شهيًّا جدًّا لكني تذكرتُ القاعدة العظيمة :

قاعدة (١٤٦)

الجوعُ أساسُ الوُصُول

فحملتُ الطعام وخرجت خارج الخان وأعطيته للفقراء ما عدا رغيف واحد من الخبز أكلته وشربت قدحًا من الشاي السيلاني وأنا أحمدُ الله .
وبعدها توجهتُ إلى السوق واشتريتُ بعض الأغراض ثم ذهبت أسأل عن قوافل الحج فأخبروني أن قافلة الحج ستخرج بعد غد الخميس صباحًا

، فعدت إلى الخان ونويت تجهيز أغراض للسفر ، ولما اتجهتُ إلى غرفتي جاء وراءي صاحب الخان قائلاً : من أنت ؟؟

قلـتُ: أنا رجلٌ مسكين أريدُ الذهابَ إلى الحج .

قـال : كلاّ .. لو كُنتَ مسكينًا ما أعطيتَ طعامك للفقراء وأنت جائع ، والعلامات التي على وجهك أنك لم تأكل الطعام منذ أسابيع ..

أخبرني بالله عليك ..

فقلـت : يا عم .. ألكَ في الطريق ؟؟

قـال : نعم ، إني أعشقُ العُرَفَاء ، فحياتُهُم تُذكرني بالزمن الماضي .

فقلت له : إني أسير في هذا الطريق لعلي أجد نفسي ؛ فإن طريقنا هذا هو :

قاعدة (١٤٧)

علمُ تطبيق الأخلاقِ الحميدة، والتخلُص من الصِّفات الذميمة، وتنقية السر من المُتعلقات الدنيئة بتزكيتها،

وحفظ الأخلاق من الأعلاق .

فسأل الرجلُ : ما الأعلاق ؟

فقلـت له :

قاعدة (١٤٨) :

النفائس ..

وَيُقْصَدُ نفائس الْأَخْلاق من الصِّدقِ والإِيثار والمَحبة

فقال الرجل : زدني يا غريب بل يا قريبًا إلى نفسي.

فقلت له :

قاعدة (١٤٩) :

العَقْلُ بِالتَّدْرِيسِ،وَالْقلبُ خلاصُهُ مَنِ التَّدْنِيسِ،

والبَدَنُ صَومُ التَّمْرِينِ وَنُوَمَ حِمرين

فقال الرجل : الله .. ما أجمل هذه الكلمات ، كأنك تسحب من داخلي أشلائي المتناثرة وتجمعها من جديد...

قلـتُ: اسمع يا عم :

قاعدة (١٥٠)

جَمْعُ المَكَارم وَنَبْذ المَغَارم فِي الْاِسْتِعْمالِ طَرِيق الْاِسْتِكْمالِ ؛ فَخُذْالجَذْوَةَ من الطَّرِيقِ، وَزَادكَ التَّقْوى خَيرُ رَفِيقَ .

ثم قلتُ : يا صاحب الخان ادخل في العبودية ..

فقـــال : وما العبودية ؟؟

قلـتُ:

قاعدة (١٥١)

مُمَارَسَةُ الْعِبَادَةِ مَعَ الصَّبْر تَدريب، وَالْاِلْتِزَامُ بالإحكام بلَا تَرْتِيب.

فبكى الرجل بكاءًا شديدًّا وخرج من عندي ...

وبقيتُ في غرفتي، وأغلقت بابي وأخرجت الإطار ، وفرشتُ سجادتي وأخرجت رق العجوز .. فقلتُ في نفسي : أجعلُ هذا الرق في الإطـار أم أنتظـر لحين الوصول إلـى مكـة، فقررتُ تـأخير هذه الخطـوة إلـى حـين وصولي لمكة .. ثم أخرجتُ رق الإطار وفتحته على مهل وتـأني ، وأول ما وقعت عليه عيني هذه القاعدة :

قاعدة (١٥٢)

سُلوكُ الأدَب بالاتباع ، والوقوفُ في الحضْرَةِ بالاتساع ، وسيرُكَ في الحياة بالابتعاد والامتناع .

ثـم كـأن الـرق يـتكلم معـي .. أيهـا القـارئ ، عنـدما تقـرأ تـذوق الكلمـة بمعدنها ، ولا تُسرع باللفظ ولا تعجل بلسانك ؛ فإن كلمات النـور تتسـاقط منهـا حبـات مـن بركـة السـماء فتنبـت فـي القلـب شـجرة الإيمـان ، وتـزداد بنموها كلما سقيتَها مكارمَ الأخلاق .. ثم انتبه أيها القارئ .

قاعدة (١٥٣)

تُب ..

والزم حرفَ الكُتّاب وخط الأثر ، تنجو بصَفَاءِ المَطْعَمِ ، وقيد المقّدم ، وقَطْع المأثم ، فزحتَ وزحزحت .

ثم وجدت قاعدة أخرى مكتوب فوقها : أمر العرفاء موافقٌ للـشرع من هذه القاعدة:

قاعدة (١٥٤)

كلُّ أمرٍ لم يُوافق حرفَ خطٍ من كشفٍ والهامٍ وهاتفٍ فَدَع ، واعلم أنَّ دعْدَعَةَ التقوى مقرونة بِعصمَةِ الفَحْوى .

وأنا أقرأُ كأن القشعريرة بدأت من جانبي الأيمن .. كأنها ريح خفيفة قد داهمتني بهبوها ؛ فأخذت القشعريرةُ تنتشر في جسدي ، وشعرت أن جسدي كأنه زهرة عباد الشمس قامت من سباتها تبحث عن مصدر الشمس ، وأحسست بانقباضة في صدري بسيطة ثم حدث لي بسط شديد كأني الحوت الأزرق فتحت فمي فدخل ماء البحر بسمكه في جوفي حتى ذبت في البحر فتداخلت مشاعر البسط والنشوة والقشعريرة مع هذه الريح فصرت كقطعة سكر تذوب في الماء ... ولو كانت المرآةُ أمامي ما رأيت نفسي لأني لست في المكان ، ولعلي أنظر إلى الزمان القديم بإحساسي ، ورسول الله صلى اللهُ عليه وآله وسلم يخطبُ في المسجد ، وأنا واقف في الباب ، والإحساس يملأني حتى صحوتُ وأنا أشعر بتعب وإرهاق مما كنتُ فيه .. هذا هو حالي وما حدث لي عندما كنت أقرأ في هذا الرق المليء بالأسرار والقواعد ... رُحماك ربي .. فقمت لأغسل وجهي وأشرب قليلاً من الماء وأعود إلى القراءة ، وأنا أقرأ قاعدة :

قاعدة (١٥٥)

الوصَالُ إِلَيه بِهِ، فَإِذَا وافقَ الْهَوَى الْهُدى اِسْتِقامَةٌ، وَإِلّا خِزْيُ الضلالَ ، وَسُوءُ الْحالِ وَالْمَقَامَ .

وبعدها مكتوب : يا فتى يا من حملت أمانة القراءة :

قاعدة (١٥٦)

اِحْمِلْ مِيزَانَكَ دَائِمًا وَزِنْ حَرَكَةَ السُّكُونِ ، فَالْمُوَافقَةُ إِخْلاَصٌ، وَالْمُخَالَفَةُ لا خلاص ...

وما إن قرأتُ هذه القاعدة إلا وقُمت من مكاني وتركت كل شيء ، وخرجتُ إلى الطريق لاستنشق الهواء ؛ فإني مُتعب وتدور في ذهني كلمة السكون ... حركة السكون .. الله ما أدق هذا الميزان ..

السيد طالب : كفانا حكايات اليوم ياذا العقلين عقل عندي ، وعقل تريد أن تذهب إلى البيت ... هل لديكم طبخ لذيذٌ اليوم ؟؟

قلتُ : يا سيدي .. عندما خرجتُ من البيت قالت لي زوجة عمي : اليوم سأطبخ لك على العشاء الطبْخة التي تُحب (المزورة) ..
ولأول مرة يقول لي السيد طالب : وما المزورة يا أستاذي في الطبخ ؟؟
فخجلتُ منه وقلتُ : أستغفر الله .. أنا خادمُك المطيع يا سيدي وقلت :
المُزَوَّرَةُ عبارة عن البصل المقلي مع ماء السُّمّاق مع شرائح الخبز الرقيقة جداً مع قليل من الملح وكل هذا مع قدر من الماء (لتر) وتغلي علي النار ثم بين كل دقيقتين نفتح بيضةً في ماء المزورة المغلي حتى تتجمد ثم نفتح الأخرى وهكذا..
وقلتُ : يا سيدي إنه علاج لأمراض المعدة للمصابين بالإسهال ، والمغص المعوي والتسمم ..
فقال لي : عظيم عظيم .. أنت تلميذٌ نجيب وطبيب ماهر وحكيم يفهم في بطنه، وقال: هيا .. اذهب إلى البيت ونلتقي غدًا لإكمال الحكاية .. رفيق ورحلته إلى مكـــــــــة .

سوقُ الصَّفَافير

قبل فراق السيد طالب قبيل صلاة المغرب قال لي :
هل ستذهبُ إلى المدرسة غداً؟
فقلت: نعم
فقال: لا تذهب غداً .. وكُن عندي على التاسعة صباحاً ..
فقلتُ : السمع والطاعة يا سيدي ...
وفي الموعد كنتُ عند بيت السيد واقفاً لدى الباب فلمّا خرج إليَّ قال :

قاعدة (١٥٧)

خَوفُ الدَّيَّانِ وَالصُّحْبة فِي الْوِدْيَانِ ؛
فَإِنَّ الحِرْصَ خَوفُ الغِلْمَان

وقال: سنتجه إلى سوق الطرق والأحوال المستقرة بين لاقرار ، وبدأنا نسير فخرجنا من منطقة باب الشيخ واتجهنا إلى مرقد الشيخ عبد القادر الجيلاني وقرأ الفاتحة ثم اتجهنا إلى الشيخ الخلاني وقرأ الفاتحة .. ثم اتجهنا باتجاهٍ مستقيم كأننا نتجه إلى سوق الشورجة فوقف عند قبر "ابن روح" وقرأ الفاتحة ثم دخل حياً وخرج من حي، واستدار يمينًا وشمالاً بسرعة كأنه يتزحلقُ على الثلج ، حتى وصلنا مقابل قبر الإمام أحمد بن حنبل وقرأ الفاتحة .. ثم قبر عثمان بن سعيد وقرأ الفاتحة .. ثم توجهنا باستقامة من عند (الإعدادية المركزية) وعُدنا إلى منطقة دار الحكمة فدخلنا سوق الكتب ثم عُدنا إلى شارع الرشيد، وبدأ السيدُ يركض، وأنا أركض خلفه ، حتى وقف أمام سوق الصفافير، وهو سوق قديم جداً كانوا يصنعون فيه أواني النحاس، وأواني الزينة والقدور الكبيرة لطبخ الخيرات.

وقف السيد أمام السوق ، وبدأ يتنفس عبق التراث بنفس عال كأنهُ رجل رياضي ، مع وضع يديه إلى الأعلى والأسفل كأنه يريد أخذ أكبر كمية من الأوكسجين ...

وبعد كل هذا المجهود قال لي : أين الأوراق والقلم ؟
فقلتُ وأنا متعب : معي يا سيدي .. فقال اكتب :

قاعدة (١٥٨)

كِتْمَانُ السّر في أُمور الدُّنيا عَيْبٌ ظَاهِر ، ولأَمْر الآخرة قَلْبٌ حَاضِر

ثم قال : سنذهب .. وإياك أن تتكلم .. فقطعنا السوق وبينما هو يسير توقف برهة أمام أحد الدكاكين وكان الرجل يطرق على القدور ؛ فأغمض السيدُ عينيه كأنه يُبْحِرُ في عالمٍ آخر .. وقال :

قاعدة (١٥٩)

الرّضَا بِمَا تَفْعل غَفْلَة ، وعَدَم رؤْية النّعمَة جُحُود ...

ثم استكملنا المسير إلى نهاية السوق ثم انعطف لكني لا أتذكر الانعطافة .. وإذا ببابٍ فَطَرقهُ السيد ؛ فخرجت امرأة في عقدها الثالث تلبس ثيابًا مُزركشة، وعندما رأت السيد اضطربت كاضطراب الماء عند الغليان، واصفرَّ وجهُها وأطرقت حياءاً وتقول : مرحباً بك سيدي .

فقــال السيــد : أين الأمانة؟

قالت : نعم نعم يا سيدي .. إني قد جهزتُها منذ البارحة .. ثم أتت بكيس ملفوف بقطعة قماش وأعطتهُ للسيد، وقبلت يدهُ، ولم يتكلما .. لكن السيد قال لها: ألا يكفي الخوض ، متى ستعود الصغيرة إلى أحضان أمها وترضع من جديد كي تحيا حياة كريمة ، فبكت وأغشي عليها .

فتركها السيد وانطلقنا .. كأننا عدنا إلى الميدان ، ثم إلى باب المعظم ؛ فقطعنا الجسر ووصلنا إلى (مدينة الطب) ، وهي من أكبر مستشفيات الشرق الأوسط ، تضم خمسة مستشفيات كبرى ، الأولى : دار التمريض الخاص .. والثانية : الجراحات التخصصية .. والثالثة : أمراض الجهاز الهضمي والكبد .. والرابعة : بغداد التعليمي .. والخامسة : حماية الأطفال .. وكل مستشفى منها تضم عدة أقسام ما بين الثلاثة إلى السبعة .

أمّا بغداد التعليمي ففيها قسم الطوارىء .. وجميع الأقسام تعتمد على هذا القسم المهم جداً في نقل المرضى والحالات الطارئة .. وكان يعمل بانتظام .. أما اليوم وما أدراك ما اليوم !! فإن هذا القسم مشغول بنقل شهداء الخطيئة السياسية ، شهداء الانفجارات ، أتعرفون ما هو الانفجار ؟

إنه البركان والزلزال الأعمى الهمجي الأحمق والريح الصرصر والنار بلا حدود ، الذي يأخذ الإنسان ويجعله أشلاء متناثرة لا يُعثر له على جثة بل يصير كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف.

أو كأننا دخلنا محلاً لبيع قطع غيار السيارات !!

فنسأل : هل لديكم ذراع للعجلات الأمامية .. أو عندكم باب خلفي .. أو صندوق السيارة يحتاج إلى تغيير .. وعند النظر إلى محل الانفجار ترى أجزاء من السيارة مفككة ؛ فمع الذراع ذراع ، ومع الأبواب قطع من الأفخاذ ، ومن جلد الابط ، أو كأنك جعلتَ الرأس على طاولة كي يرونه ، وكل ذنبه أنهُ فقير .. وحالهُ مسكين .. ولسانهُ لا يعرف كتملق السياسيين بالكذب والخداع ، وإنَّ أهله قالوا له :

سِرْ بجانب الحائط في ظله خوفًا من أشعة الشمس، اذهب إلى العمل .. وعد بين أحضان الزوجة والأولاد.

يا بني : إن الظلم إثم عظيم .

يا بني : إياك أن تبني بيتك على أنقاض الجيران.

يا بني : أطعم أولادك رغيفاً والجيران رغيفًا .

يا بني : عليك بالصلاة والصوم والفرائض.

يا بني : الحب هو ديدن الأناسي بطريق الحق .

كأنها الوصايا العشر أسمُعها من السيد طالب .. ولكنها وصايا الحق.

إن الذي يحدث هو صراعٌ سياسي بين الساسة وبين الدول المجاورة ؛ فترى متشدداً من طائفة يقتل بالجملة من الطائفة الأخرى وهو متفق مع رؤساء نفس الطائفة لبلد آخر ، والعكس صحيح بالنسبة للطائفة الأخرى.

ستقولون : يا كاتب الكلمات : أهذه أحجية ؟؟

سأقول : والله وبالله وتالله إنها الحقيقة والحقيقة المرة كالعلاج لداء عضال ، كما يقول الأعرابي : «لا يجرع المُر إلا الذي بقلبه داء».

يا أيهُّا الناس: إن داءنا هو بجهلنا وعدم وعينا؛ فهل يُعقل: أمة الدين والقرآن والصالحين والعلماء والحضارة الجهل فيها ٥٠% وأكثر .

والغرب الذي ننتقدهُ لا تتجاوز النسبة فيه (١-٤%) أي مسرحية هزلية هذه التي نحن فيها ..

الأزبالُ في طُرقاتنا وهم يزرعون الورد.. وأقسام الطوارىء في مدينة الطب مستنفرة بكل الإمكانات ولا جدوى وشغلها الشاغل : ألو ..... مستشفى الطوارىء ، هناك انفجار في الغزالية أو الكاظمية ..

ألو مرحبًا .. اسأل عن حال الجريح عمر في العناية المركزة فيُقال له إنه توفي.

وعلي وعمر كانا أصحابًا في المدرسة .. ويذهبان إلى المسجد سويًّا .. ولم يفترقا يوماً حتى وقع الانفجار فنقلوهم إلى المشفى .. وافترقا خلال نقلهما ثم اجتمعا عند الرفيق الأعلى.

إن القضية قضية ضمير حي .. وإنسان بمعنى الكلمة .. ورجل يُحب الكلَّ كي يتولى .. ولكن هل الضمائر تباع في الأسواق ، أم الإنسانية حقنة في الوريد كالبَثَدين للتخدير حتى ينام الإنسان ثم يصحو وقد تخلص من حصوة من الكلي أو من الزائدة الدودية أو ورم في الثدي ؛ فهذه الإبرة (الحقنة) تستخدم في العمليات الجراحية لتغيير حال رجل يحمل الألم إلى صحيح البدن ، أو نتخلص من آلام حصوة المرارة بابرة (لارجاكتين) ، ونفك التشنجات بإبرة (فولتارين) أو المغص المعوي بإبرة (بلسكوفان).

السيد طالب يتوجه مسرعاً إلى المشفى ؛ فدخل مكتب الاستعلامات بسرعة وهو يسأل عن أم نرجس كيف حالها ؟ ومتى العملية ؟

وقد أحضر المبلغ المطلوب علماً : أن جميع العلاجات في المستشفى مجاناً لكن عندما يتعلق الأمر بدواء غال أو ثمين يقولون الحصاد والظروف القاسية والحرب وإن هذه العلاجات والأدوية يجب أن تشتريها من خارج المشفى أو يتحججون أنه لا يوجد تخدير أو يطلبون الإبرة الفلانية من خارج المستشفى ولما سأل موظف الاستعلامات عن حالة أم نرجس قالوا إنها توفيت.

وقال الموظف : إنها أوصت بوصية لابنتها ، عودي يا ابنتي طاهرة فإن طهّرت نفسك ستطهرين جيلا كاملا بعد جيل ..

فالمستقيم يبدأ بنقطة ...

فما كان من السيد طالب إلا أن خرج من المشفى مكسور الجناح لا يعلم أين يذهب وماذا يفعل وماذا يقول حتى أننا توجهنا إلى باب المعظم نقطع الجسر مشيا فوصلنا عند المكتبة الوطنية والتي تقدَّم الحديثُ عنها.

فأخرج السيدُ طالب كيسا من النقود ، وبدأ بتفريق النقود على الناس طالبا منهم الدعاء والترحم على أم نرجس ويقول : ادعوا لها : فإنها كانت من المحسنين.

ثم جلسنا بعد ذلك على قارعة الطريق بجوار المكتبة الوطنية وقال : اكتب:

قاعدة (١٦٠)

العبادةُ مواقف :

الأولُ تقفُ أدَباً وتنظرُ أحدً لا سِواهُ أبداً ، والثاني : ركَاك الكَابين ، ووجهُكَ الحرمين ، وخلفك سلاسل بالذّراعين ، والثالث : رِقةُ قَلبٍ باللُّطف مودَّة ، وحُبُ الأزَل بطرد الإزَل ..

ثم قال: أتعلم يا تحسين أني سأجعلك شيخي لعدة دقائق لأشكو لك همي؛ فمن لا شيخ له فشيخهُ الشيطان؛ فأرجوك كُن شيخاً عمرهُ مائة عام وسأشكو لك:

يا شيخي : أنا متعب جداً ولا أعرفُ ماذا أفعل .. الهموم ثقيلة .. وأحوال الناس من سيء إلى أسوء ؛ فلا أنا حاكم ولا صاحب قوُة كي أستطيع أن أغير وجهة السفينة، ولا أنا الرّيح كي تهب بالجهة المُعاكسة وتغير الاتجاه ...

يا شيخي : إن التعب أنهكني ، وآلام الرأس والكتف أخذت نصيبها مني، وفي جوفي نيران تستعر .. أفكرُ في عجوزٍ فقدت ابنها وأم ثكلى ، وأب يبكي طفله ، وأطفال يصرخون ألماً ما بينَ مطرقة الفقر وسِنْدان الجهل والظلمة.

شيخي : الجوع والجهل والظلمة والفرقة والطائفية والفساد قد نَخَرَتْ بنياننا.

يا شيخي : علمني دعاء أُوجهُ به يدي لقبلته ؛ فإن هذه المحنة لا خلاص منها إلا بالدعاء ، والدعاء مُخ العبادة ..

أجبني يا شيخي ... ولكني كنتُ واقفا بكل أدب واحترام أمام شيخي وسيدي السيد طالب وهو يردد هذه الكلمات ؛ فما كان مني إلا أن أقبل يديه وأبكي حزناً على حزنه .. وهذه المرة كانت دموعي تنزل من أحداق عيني بحرقة وألم ..

ثم نهض السيد طالب كي نعود متجهين إلى منزلنا ، وهو يمشي وأنا خلفه أنظر إلى نهاية نعله المتآكل ؛ فربع قدمه الأخير كان يُلامس الأرض ؛ لأن جزءه الأخير أي النعل متآكل ، والسيد يمشي ولا يبالي .

وكنّا قد اقتربنا من وقت العصر .. ولم نُصل الظهر بعد ، حتى دخلنا مسجداً على الطريق لا أذكر اسمه ؛ فتوضأ السيد وبدأ يُصلي الظهر ثم بقينا في المسجد حتى صلاة العصر فصلينا ..

ثم قال لي : اكتـُــب :

قاعدة (١٦١)

النَّظَرُ إلى عِلْمٍ تَجْهَلُهُ التباس ، وتَفْسيرُكَ لَهُ احتباس ، وقَوْلكَ قَطْعُ الاقتياس ،

فَاترك صِنَاعَةَ الخبْزِ لمَن يَخْبز كي تأكُلَ رغَيفاً نَاضِجاً يُفيدُ عَقْلَ بَطْنِكَ ، لكي لا تَفْضح نَفْسَكَ وَمَن مَعَك ...

ثم قــال لي :

أتعرفُ شيئًا عن الأُنس والاتصال والتجريد والوَجْد ؟؟

فسكتُّ ... فقال لي : أجِبْ .. فقلتُ : يا أُستاذي .. إنّي أُفكرُ في هذه الكلمات فهي ليست بالغريبة ولا بالقريبة ؛ فكأنّي أعرفُ مفهوماً بالبعد لا بالقرب / فقال اكتب :

قاعدة (١٦٢)

الأُنس : التلذذُ بالذكْرِ ، لا فكْر ..

قاعدة (١٦٣)

والاتصال: عبادة في الملكوت ، والسر منقطعٌ عن النّاسوت ..

قاعدة (١٦٤)

والتجريد : أعراضُك المُوافقة ، وجوهركَ دقة المحاسبة ..

قاعدة (١٦٥)

والوَجْد : حُضورك في ساحته وقت العبادة ، والفزع من هيبته ساعة الإجادة، ففكرٌ يشتغل وقلبٌ يشتعل ..

فخرجنا من المسجد ، فرأى السيد امرأة تسير في الطريق فسلّم عليها، وقال : يا خالة ما زلت في الطريق ؟

قالــت: نعم يا بني ؛ فإني لا أملك ما يكفي لركوب العَرَبات.
فسألنــي السيد طالب/ هل تحمل نقوداً ؟
قلــتُ: نعم .. وكان معي أربعة دنانير فأخرجتُها ..
فقـــال: دينارٌ لك وثلاثة للعجوز ؛ فإنّي أحبُ الوتر ولا أحب الشفع ، والدينار يكفي لأن نشرب شرابَ الزبيب وقطعة من الخبز المصنوع بالحليب ، ثم اتجهنا إلى موطن سفرنا الأول كأننا ندور في دائرة ، وكل يوم يتغير المكان والزمان والأحداث .
وفي طريق العودة إلى البيت قال السيد :
أتعلم أن الأم التي توفيت في المشفى هي أم البنت التي كانت في ذلك البيت المشبوه ، وأن الأم كانت من أهل التقوى والإصلاح.
وكانت البنت تعمل في بيت تبدو عليه آثار الإثم ، وانتهاك الحرمات ، ثم رفع يده يدعو لها بالتوبة ، وبعد ذلك قال:
عُدْ إلى بيتك ، ونلتقي غداً إن شاء الله.

البحث

وبعدما حدث لي من الأحوال في تلك الليلة التي كنت فيها مُضطرباً مما قرأت، وقررتُ الذهاب مع القافلة المتجهة إلى مكة .. وبدأ عندي إحساس غريب ، وبدأ ينمو في داخلي الشوق واللقاء ببيت الله الحرام .

وما هي إلاّ أيام وكانت القافلة جاهزة واتجهنا إلى مكة .. وما إن وصلنا إلى (ذات عرق) وهي منطقة يُحْرِمُ منها أهلُ العراق إلا وبدأنا بالمناسك الطواف ثم السعي بين الصفا والمروة ثم التقصير.

وبعد الانتهاء من المناسك فارقتُ القافلة لأننا كُنّا نسكن في الخِيَم ، وذهبتُ أبحثُ عن خانٍ أسكنُ فيه كي أبدأ رحلتي في البحث عن الفتاة المجهولة ، أهي كالعجوز صاحبة الإبريق تظهر لي فجأة أم كالعجوز الذي التقيتُ به في بغداد ، أم إني سأبحث عنها بقية عمري .. إن الأمر غامض .. والألغاز في كل مرحلة تزداد تعقيداً...

وبعد البحث وجدتُ خاناً ، وأنزلتُ أعراضي عندهُ ، ودخلت على صاحب الخان فسلمتُ ورد السلام ، وسألته عن غرفة للسكن

فقــال : نعم ...

لدينا غرفة في الطابق الأعلى ، وغرفة في الطابق السفلي ،والتي في الطابق الأعلى أغلى أجرة .

فقلت له : يا سيدي .. أنا طالب علم وأبحثُ عن غرفة صغيرة ...

فقال : إذاً ، الأحسنُ أن تسكن في الطابق الأرضي واتفقنا على السعر.. وحملتُ أغراضي ودخلتُ غرفتي للراحة ؛ فلم أخرج من غرفتي إلا لقضاء الحاجة والوضوء ، وثم أعود إلى الغرفة للتسبيح والذكر.

وتذكرتُ القاعدة :

قاعدة (١٦٦)

الذَّوْقُ يُجلي الطَّبْعَ، ويَفْتَحُ مَا أُغْلِقَ، وَيَجْعلُ للَعَمل حَلاوَة ، وعلى القلب طَلاوَة ،

ومن هذا وذاك كان النُّور والسُّرور والحرور ..

ونِمْتُ ليلتي بهدوء ، ومع الفجر كنتُ فى الحرم ؛ فصليتُ .. وبعد الصلاة جلست للتأمل والتفكر والتذكر .. وسمعتُ من الطرف الشرقي لسور الحرم جمعاً من النَّاس قد جلسوا للذكر وهم يقولون :

يا دائمَ الفضل على البرية ، يا باسطَ اليدين بالعطية يا صاحب المواهب السنية (حق) صلِّ على محمد وآله خير الوَرَى سجية ، واغفر لنا يا ربنا بهذه الوَقْتية ؛ فتذكرت بغداد كأنَّ طريقة الذكر قد تشابهت ، ولكن المكان تغير .

وما بين سَمَاعي وذكري أحسستُ بأن النَّغمات كأنها أشعة الشمس قد اخترقت جَسَدى الزجاجي ، فالنَّشْوة قد أخذت مني مَأخَذًا ما بين صحوي وسكري ، يا الله لقد تذكرتُ كلامَ العجوز التي قالت لي : لحلاوة الإيمان حال، ها أنا قد حدث لي ما قالت العجوز.

وبعد الذكر قُمتُ وتأملتُ الكعبةَ وبدأتُ أصفُها ، فالركنُ الشَّرقي يقابلُ بئَر زَمْزَم باتجاه الشرق وهو الركن الذى وُضعَ فيه الحَجَر الأَسود .. ويسمى بالركن الأسود انتسابًا إلى الحجر .

وهي النقطة الأُولى إلى الطواف وإليها المنتهى .

والركن العراقي يلي الركن الشَّرقي ويواجه الشِّمال باتجاه العراق ، والركْنُ الغربي يلي الشمال باتجاه المغرب .. ويُسمى بالركن الشامي أيضًا لمواجهته الشام .. والركن اليَمَاني يلي الركن الغربي ويسمى بالركن الجنوبي لمواجهته الجنوب ، وبالركن اليماني باتجاه اليمن ، ويُسمى بالركن المستجار وهو الموازي لركن الحجر الأسود ...

وقد سمعتُ يومًا بعض أوصاف الحجر الأسود، وهو عبارة عن عدة أجزاء بيضاوي الشكل كالكرة الأرضية مائل إلى الطول .. بطول الذراع .. والروايات أنه أسود اللون من الأَعلى فقط ، والباقي أبيض .

والرواية الأُخرى أنه أسود اللون قُطرُه (٣٠سم) ، وقد سُرق ثم رُدَّ إلى مكانِهِ في زمن القَرَامِطَة ..

والبيت الحرام رغم مكانته العظيمة الآإنه تعرض للهَدْم والحَرْق أكثر من مرة، ووقع فيه قتال وسفْك دِمَاء.

والصراع مُستمر؛ لأننا أُمة تحترمُ المقدسات حسب الآراء الفقهية وهذه الآراء تتضخم فتتحول إلى أمر عقائديّ ، وبالعكس العَقَائديُ إلى فقهي حَسَب الزَّمان والمَكَان ورجال السياسة ؛ فلكل دولة رجَالُهَا من السياسة وفُقَهَاء المَنَاصب .

ودائماً مذهب الدولة له رجال من نفس المذهب يؤيدونَ ما يَفعُله السَّاسَة .. سَيَّسَ الله تَحتهُم النَّار بظُلْمهِم ..

ولمّا عُدتُ إلى غُرفتي اضطجعتُ على جانبي الأَيمن مُستقبلَ القِبْلَة فَغَفَوْتُ ، وليتني لم أَغفُ .. حيث جاءني هاتف وقال لي : قم وابحث عن الخال .. ومن يبيع البذور .. وما انتهى الهاتف إلا ويدٌ حمراء تحملُ قضيبًا من حَديد يَهْوي بها على جنبي فَفَزِعْتُ من نومي وأنا في حالة يُرثى لها من الإرهاق والتعب ، فقُمتُ إلى الحَمَّام واغتسلتُ ولبِسْتُ

بعض الملابس الجديدة وخرجتُ من الخان ؛ فوجدتُ صاحب الخان وجماعة من الأَشخاص معه يجلسون على دكتين مُتقَابِلتيْن ؛ فسلمتُ وجلستُ بينهم ، ناويًا السؤالَ عن عمل لكن حديثُهم كان عن الأولاد والمال والتجارة والنساء وشهوات الدنيا ؛ فأحدهم يقول :

رزقني الله طفلاً ، وأحدهُم يقول : اشتريتُ بيتًا والآخر يقول : أُهدِيَ إليّ فرس وما إلى ذلك ... والحديث ليس فيه طعم الحياة الحقيقية بل طعم الموت والفناء يا لهم من أُناس يُجاورون بيت الله وهم بعيدون كل البعد عن الرقي وحلاوة الايمان...

وفجأة اتجهت الأنظار إليّ فسألني صاحبُ الخان وكان اسمهُ الحاج ابن المنصور وكان رجلاً بشوشَ الوجه ، مُولعا بتربية القِطَط ، وكان يذهبُ بنفسه إلى بعض القصّابين ويجلب لهم من الحَوايا وما اختلط بعظم ، والكبد والرئة (الفِشَّة) وغيرها

وسألني : هل طابت لك الإقامة فى مكة ؟

فأجبتُ : بالطبع .. إنه البيت الحرام ، ومن هنا انبثق النور النبويّ ....

فابتسم وقال : متى سنبدأُ الدَّرسَ ، ألم تَقُل إنَّكَ طالبُ علم ؟؟

فقلتُ : أني أبحثُ عن عَمَل أولاً ثم أبدأُ الدراسة .

فقال لي : عظيم .. وسألني رجل من الجالسين وهو الحاج داود ذو الأنف الطويل .. وكنتُ في صغري أسمعُ أنّ الذي أنفُهُ طويل يكذب كثيراً ؛ فإِنّ الكذب الكثير يطيلُ الأنف .. ولهذا كنتُ في صغري إذا كذبتُ على أمي انظر إلى نفسي في المرآة

قال لي: وماذا كنتَ تعمل في بلادك ؟

فأجبْتُه بالصدق وقُلتُ له : كان لي دكان في سوق الحميدية أبيعُ فيه السجاد الإيراني .. والتُّحف المصنوعة من الفضة والنحاس ، فَضَحِكَ ضحكةً قوية وضحكوا معه كأنه يستهزأ وقال : ما شاء الله ... ما شاء الله ..

وقال إنَّ الخَانَ بناؤهُ قديم ، وخوفي أن تَتَفطَر الجُدران .. كأنهُ يقول: إنك كاذب ولكن بطريقةٍ بهلوانية ..

ثم ردَّ قائلاً : إذا أردت العمل فتعال إلى دكاني ، واعمل مع الذين ينظمون الأَغراض في المخزن الكبير فاعتذرتُ منه بأدب وقلت : إن شاء الله في أقرب وقت أزورك في متْجَرِك .

وكان من الجالسين الحاج إبراهيم أبو الأساور .. وكان يضعُ سواراً من نحاس فى عضده اليمين من فوق الملابس .. وكانوا إذا سألوه عن السوار يقول : هو سوار جدي .. وكان يلبسهُ فى المعارك والغزوات .. وكان كريما يُحب الناس ويساعد الفقراء ويصنع الطعام للمحتاجين كل يوم جمعة وله خان أيضا فلما سمع ضحك أصحابه واستهزاءهم بي قام من مجلسه وقال يا بني:

تعال أريد أن أكلمك ؛ فخرجنا من المجلس واتجهنا بعكس اتجاه الحرم كأننا نتجه إلى السوق، وبدأ يُكلمني هل تجيد الحساب ؟؟

قلــتُ : نعم

فقــال : هل أنت متزوج ؟

قلــتُ: نعم ولي ثلاثة أولاد .

فقــال: هل أتيتَ إلى مكة للدراسة ؟؟

قلــتُ: نعم

قال: لأن أكثر الناس يأتون هنا للتجارة ويقال إنها كانت في السابق موطأ قدم للعلم والعلماء.

فقلتُ : إن هذه البلدة الطيبة ستبقى منارةً للعلم والعلماء ؛ فحلقاتُ العلم كثيرة .

فقال أبو الأساور : أين هذه الحلقات ؟

فقلتُ: في الحرم ...

فقال أبو الأساور : إني لم أدخل الحرم منذ عشر سنوات .. وهنا كانت الصدمة!!

فتوقفتُ ... واعتذرتُ من الرجل ولم أكمل المسير معه ، واتجهتُ عكس اتجاهه وأنا أستغفر الله وأتعوذ من الشيطان .. وقلتُ : يا الهي ، من هذاالرجل ؟ يُجَاور ولا يزاور ...

وتذكرتُ القاعدة التى حفظتها من العجوز في دمشق :

قاعدة (١٦٧)

لكل شيء زينَة ، وَزِينَةُ الطَّريق الأَدَبُ ..

قاعد ة (١٦٨)

مَنْ لم يتأدَب يكون كالذئب ، أو الثَّور الهَائج بين النَّاس ..

أقوامٌ لا يعلمون من الدنيا غير الحرث ... إنهم في غمرة بل في سَكْرة .. هكذا الدنيا عوام وخواص وتذكرتُ قاعدةً أخرى مع وصولي إلى باب الحرم .. كيف وصلتُ لا أعلم ؛ لأنني كنتُ في شدة الغيظ من هذا الرجل أبي الأساور أصلحهُ الله.

فدخلتُ الحرم وأنا أتذكر القاعدة :

قاعدة (١٦٩)

الوقوعُ في الخَطَايَا من أَمْرَيْنِ : الفَراغُ وعَدَم القَنَاعَة ، فَدَاوِي الأولَ بالعلمِ، والثاني بالصبْرِ والجوعِ .

ثم جلستُ إلى أذكاري وتأملتُ قليلاً حتى أذان المغرب ؛ فأكملتُ الصلاة ثم توجهتُ إلى السوق للبحث عن العمل حسب الوصية لعلي أحظى بضالتي .. وهو الرجل ذو الشامة في خده الأيمن ، فبدأتُ أعرض نفسي للعمل على أصحاب الدكاكين الذين يبيعون البذور ، وأنا أسير في السوق رأيتُ أمرأةً تلبسُ السَّواد ، والنقاب قد غطَّى وجهها ، وهي تُمسك بيد طفل صغير لم يتجاوز الرابعة ، وتسير بسرعة وتسحب الطفل ، فظننتُ أنها تريد أن تخلع يد الطفل ، ما هذه القسوة !!

فأشفقتُ في نفسي على الطفل ، وتذكرتُ أولادي وزوجتي ، كم هي الغربة قاسية؟؟

ثم عُدتُ إلى الحرم ، وأنا أدخل إذا بجمع من الناس يجلسون حول شيخ جليل يتحدثُ في مسألة من المسائل الكلية وبالتحديد مسألة : "أنّ ما غَيَّر الَفْرضَ في أولهِ ، غيره في آخره" فجلستُ أسمع الشرح والتعليق ، وفكري ما بين الطفل الذي رأيته في السوق وبين أطفالي لكنني استمعتُ إلى الشرح :

فذكر الشيخ من الأمثلة أن من تيمم وصلى ورأى الماء في آخر صلاته فتلزمهُ الإعادة .. أو لا تلزمهُ خلاف في المسألة بين من يقول بالإعادة ومن لا يقول ....

ثم قمتُ من بين الجمع .. واستلمت ركن الحجر ، وتلمست الحجر بيدي وبدأتُ بالطواف ، ثم أذَن المؤذن للصلاة ؛ فصليتُ وجلست للذكر، وإذا برجل يلبس زي الأمازيغ يسلم عليّ ويجلس إليَ ويقول لي: يا عاشق : أعلموكَ أم أنكَ متيمٌ بلا وجهة؟؟

فقلـــتُ : يا عم .. إني في حيرة من أمري ..

فقــال لي : من عزم فليتوكل .
فقلـــتُ له / إنني لم أجد ضالتي
فقـــال لـــي :

قاعدة (١٧٠)

مَنْ أَرادَ مُرَاداً في سَبيلهِ نَالَه دونَ عَنَاء ..

قلـتُ له : كيف هذا ؟؟
قـــال : اصبر وستجد ، ثم قال : اسمع هذه القاعدة :

قاعدة (١٧١)

التَّوَاجُدُ فِي الرِّضا إِمْكانٌ ، وَالْهُرُوبُ مَنِ السُّخْطِ بُرْهَان ؛ فَلَا تُشَاكِلْ وَلَا تَتَشَاكَلْ .

فأكملها وقام عني ، والغريب أنه لم يسلم ..
وبقيتُ في الحرم وأكملتُ صلواتي ونويتُ أن أعود إلى الخان بعد العشاء وأخلد إلى النوم ... وغدًا أذهبُ إلى السوق مبكراً كي أبحث عن الخال ..

الرجلُ الطويل

من الصباح وقبل الذهاب إلى المدرسة

سمعتُ طرقات الباب الخارجي للبيت وهو باب من الخشب على الطراز القديم عليه مقبض من حديد، فخرجتُ أفتح الباب، فإذا بالسيد طالب وهو يقول لي : لا تذهب إلى المدرسة واجلب حقيبةً صغيرة معك ..

فقلتُ : نعم يا سيدي / ثم تركني وانصرف ولم يقل شيئًا ..

فعدتُ إلى غرفتي وغيرتُ ملابسي ..

وأخذتُ حقيبة صغيرة من القماش كنتُ أستخدمها أحيانًا في بعض الرحلات العائلية .. وفيها أوراقي وكتبي وبعض الملابس .. أخذتُها فارغة ما عدا الأوراق والأقلام .. وكان السيدُ طالب واقفًا بباب بيته ومعه شخص ثالث بقرب سيارة (مارسيدس) موديل ١٩٧٦م ، باب واحدة بيضاء اللون ، وكانت المقاعد من الجلد خمري اللون.

ولما رأيتُ هذه السيارة الجميلة: قلتُ ـ في نفسي ـ : إنه يريد السفر خارج بغداد، ولابد أن الأمر مهم ...

صعدنا السيارة وانطلقنا وكنا في صمت أنا والسيد والسائق ، وفجأة قال السيد طالب :

اكتب هذه القاعدة ... وقبل كتابة القاعدة قال لي السيد طالب : لم لم تسألني إلى أين نذهب!!

قلــتُ : وهل للخادم أن يسأل مولاه.

فقـال السيد: أستغفر الله .. أنت ابني وأنت كالشجرة أسقيك بالعلم كي أرى ثمارك بإذن الله .

ثم قال : نحن سنذهب إلى مسجد الكوفة ..

فقلتُ : لك الأمرُ يا سيدي .

وقال : اكتب :

قاعدة (١٧٢)

المتوكل لا يُدبِّر ، وهمَّهُ مُدْبر ،

وَالْمُتـفكّرُ يُدَبِّر وأحْــواله في تدهـور.

وبعد كتابة القاعدة عاد الهدوء مرة أخرى ، وتفكرتُ في مسجد الكوفة ، وكنا قد قرأنا عنه خلال الدراسة أنه مسجد يقع في مدينة الكوفة ضمن محافظة النجف على جانب الفرات الأوسط غربًا / ويبعد (١٧٠كم) جنوب بغداد ، و (١٠كم) شمال شرق النجف.

وهي منطقة مستوية مرتفعة عن مياه الفيضان .. بعيدة عن مناطق الأهوار والمستنقعات ، وضفتها الغربية أعلى من ضفتها الشرقية بمقدار (٦-٧ متر) وأراضيها خصبة جداً .. بنيت عام (١٧هـ) بالقرب من مدينة الحيرة ، ومن الجهة الشمالية الشرقية يقع قبر النبي ذو الكفل .

ومسجد الكوفة مربع الشكل تقريبًا، وأهم ما يُميزهُ أنه يحتوي العديد من الآثار والمعالم التي ما زالت قائمة إلى يومنا هذا فالمحراب والمصلى ما يسمى بالسفينة يعتقد أنها أرض المسجد الأولى ، وهي منخفضة عن أرض المسجد ، وفي وسط المسجد حفرة مُثمّنَة الأضلاع فيها دكة القضاء في وسط المسجد ، ويحتوي المسجد على "**المَزْوَلَة**" ، وهي بناء اسطواني بارتفاع (٣ متر) ، وعرض (متر ونصف المتر) تستخدم لمعرفة أوقات الصلاة وزوال الشمس ...

وبعد أن أملاني السيد القاعدة .. بدأ بذكر " يا دائم الفضل على البرية ...) الذي تقدم ذكره..

ثم وصلنا بعدها بقليل إلى مسجد الكوفة .. وعندما نزل السيد وقف أمام الباب الرئيسي كأنه الشاخص ، كشجرة ثابتة لا تهزها الريح .. وقف على قدر من يذكر الله بمسبحته ثم بعد ذلك دخلنا المسجد وكان وقت الظهر ، فاتجه السيد إلى المزولة وتلمسّها ، ووضع رأسه عليها ، ويدور حولها ، ثم توجه إلى المحراب ، وبعدها إلى مكان الصلاة فجلس حتى أذن المؤذن ثم صلينا ، ثم اتجه السيد مرة أخرى إلى المزولة ، واتكأ عليها ؛ فجلسنا أنا والسائق أمامه ، وهو مازال يُتمتم من بعد الصلاة، كأنه بدأ بنفس الذكر " يا دائم الفضل على البرية " ، ثم أخذته غفوة وهو متكيء فلم نتكلم ، وأفاق قبيل العصر كأنه مرعوب وينظر إلى الجهات الأربع ، كأنه يدور في دائرة مغلقة أو كأنه في اسطوانة دائرية يتلمس جدرانها باحثًا عن الباب ؛ فاتجه إلى مناطق الوضوء فتوضأ .. وبعد الوضوء صلى ركعتين ثم أذن المؤذن للعصر ، وبعد أداء الصلاة اتكأ السيد إلى نفس المكان في المزولة وبعد صلاة العصر

بدأت حلقاتُ العلم في المسجد بالانعقاد فجلس السيد في إحدى هذه الحلقات.

وصاحبُ الحلقة يجلس على أريكة مصنوعة من الخشب الأحمر ، وعليها صوفة خضراء قد تدلت من أطراف الأريكة .. وكان رجلا ضخما كبير الرأس مفلطح الأنف ، شفته السفلى عريضة ، ضيق الجبهة ، عيونه غائرة .

وكان يتكلم في مسألة من مسائل الأصول وما تحتها من فروع وذكر مسألة " أن ما غير الفرض في أوله غيره في آخره"

مثل مسألة نية الإقامة للمسافر ، واقتداء المسافر بالمقيم ..

فسألهُ السيد : وكيف بالمُتيمم إذا رأى الماء؟

فقال الشيخ : إن المتيمم إذا أبصر الماء في آخر صلاته بعد ما قعد قدر التشهد قبل أن يسلم ؛ فإنه تفسدُ صلاته ، وفي القول الآخر لا تفسد .

وهنا سأله رجل كان يجلس في أطراف الحلقة .. رجل طويل نحيف يلبس ثوبًا أسودَ .. وذو عمامة بيضاء ، سأله حول مصلي الجمعة.

فقال الشيخ : إن هذه القاعدة تحتها فروع كثيرة والآراء فيها أكثر من ثلاثة أوجه.

وقال: أما بالنسبة للجمعة فإذا مضى الوقت بعد ما قعد قدر التشهد قبل أن يسلم تفسد في القول الأول .. والقول الثاني : لا تفسد .. والثالث : لا تصح صلاته.

ثم قام السيد من مجلسه واتجه إلى مجلس رجل كان يجلس على الأرض وقد توشَّح بالبياض من رأسه إلى قدمه ، وقد جلسوا أمامه على شكل هلال ؛ فسلم السيد وجلس خلف الحلقة وجلسنا بجانبه .. وقال الشيخ ذو الوجه المضيء والعينيين الواسعتين وكان مقرون الحاجبين دقيق الأنف ، وكان البياض والحمرة قد اختلطا في بشرته ، وكانت تبدو عليه الحماسة ، وكأن حب الرُّمّان يتفقأ في وجهه ثم يهدأ بعد ذلك..

فقال : أتعلمون من هو المتوكل ؟

فقال له رجل : هو الذي يذكر الله كثيراً .. قال الشيخ:

<u>قاعدة (١٧٣)</u>

الْمُتَوَكِّلُ هوَ الَّذِي إِذَا لَمْ يَعْمَلْ يأْتِيه الرِّزْقُ وَهُوَ جَالِسٌ، لَكِنَّه يَعْمَلُ .

ثم قال : أتعلمون أن للمتوكل علامة ؟
وقال : علامة المتوكل هذه القاعدة :

قاعدة (١٧٤)

قَاتِل شَهْوَتَكَ حتى النَّصْر ، ثُمَّ ضَعْهَا في سَجْنِ التَّهذيب ..

وقال : للمتوكل في حياته قناديل ، واسمعوا هذه القاعدة :

قاعدة (١٧٥)

اجعل في حَيَاتك قَنَادِيلَ نور المُوافقاتِ كَعِمَارَة المَسْجِدِ ، والوَقْتُ دُونَ مَعْصية .

ثم قال : طُلاب الدنيا يتقاتلون ولا يعلمون منها شيئًا واسمعوا :

قاعدة (١٧٦)

الدُّنيا خذ منها على قَدْر خِدْمتِكَ ، والآخرةُ خدمتُها تُقَابِلُكَ بالعشرات والمئات والألوف،

الأولى بالإنصاف، والثانية أضعافٌ وأوصاف ..

ثم قـال : ونختم الكلام بقاعدة الأنفس ، من فهمها نجا وأحرز الفهم قــــال :

قاعدة (١٧٧)

سبعةٌ في التَّرَقِّي :

أَمَّارَة للشَّهوَةِ مُخْتَارَةٌ ، وَلَوَّامَةٌ تَتَأَرْجَحُ مُخْتَارَةً ، ومُلهِمة لَهَا الخفايا سَتَّارَة ، مُطْمَئِنَّةٌ بَعْدَ الجُهْدِ مِقْدارَةٌ، رَاضِيَة عَرفت بِالذَّوْقِ مِدْرارة ، مَرْضِيَةٌ نَالَتْ مَنِ الرِّعايَةِ مسيارة ، ثُمَّ التَّمامُ وَبَعْدَهَا المَنَازِلُ يا أهلَ التُّقى سَيَّارَةَ ..

ثم قال الشيخ : وهذه السبعة تصل إلى اثنتي عشر ، وبعدها التزكية الثانية (انتقال المنازل) ، والمرحلة الثالثة (التزكية في تثبيت المقام) ؛ فهذه أحوال أهل العرفان ، والحمد لله رب العالمين.

ثم قام السيد وأخذ يتجول في أطراف المسجد ، وإذا به يجد على أحد أركان المسجد مكتوبًا على العمود الموجود على الجانب الشرقي:

قاعدة (١٧٨)

النِّعَمُ تَتَسَاقَطُ من السَّمَاءِ كَالْمَطَرِ ، فَتَسْقُطُ عَلى تُربَتِهَا ، والإنسانُ تُرْبَة ، فإن سقط المطرُ في أَرضٍ وأَنْتَ فِيهَا للكَسْب وَلَمْ يأتِكَ الرِّزْق أو الْعِلْمُ أو الصِّحة أو الْحالُ او الْمَقَامُ ؛

فَاعْلَمْ أنها لَيْسَتْ مَكَانَكَ

فغيِّر ثم غيِّر

حتى تَلْتَقِي بِتُرْبَتِكَ فَتَسْقط عَلَيْكَ النِّعم، وَتَنَالَ حَظَّكَ من الأمر .

ثم توجه السيد ووقف في وسط المسجد ورفع كفيه ووجههُ إلى السماء وقال : الله بمدِّ النَّفَس ، ثم توجه إلى الباب الخارجي وهو يقول :

هيا بنا كي نعود إلى دار الدم والشر والفتنة ، وهذه المرة بدأ السيدُ بذكر (النفي والإثبات) وهو يقول بصوت عالٍ : "لا إله إلا الله ".

ثم قال : يا تحسين اكتب :

قاعدة (١٧٩)

مَنْ تَقَيَّدَ بالشيء نَالَ من الشيء،

وَمَنْ أَصبَحَ عَبْدًا لِمَنْ ليس كَمِثْلِهِ شيء نَالَ كُلَّ شي ..

واعلم يا تحسين :

قاعدة (١٨٠)

إن كُنتَ في خَلْوتِكَ واسْتَوحَشْتَ فَمَا تَخَلَّيْتَ وَلاَ تَجَلَّيْتَ،

وأُنُسكَ مَقْطوع ..

ثم دخل في الصَّمت وبَدَأ يذكرُ حتى وَصلنا بغداد مع صلاة العشاء ، فدخلنا مسجد المدرسة الجيلانية وصلَّينا .. ثم قال لي السيد : اذهب وسنلتقي غداً ..

فما كان منّي إلا السَّمعُ والطاعة..

سوقُ مكّة

وادٍ غير ذرع بين الجبال .. وتسمى بكة ، وصحراء فاران .. والروايات أنها تُذهب نخوةَ الجبابرة ، أو بَكّت أعناق الظلمة ، أو المكوث للعبادة ، وبيت الأمان ، ولها عدة أسماء أخرى مثل (أم القرى) و (البلد الأمين) و(تهامة) و (البيت العتيق) .

مساحتها خمسون وثمانمائة كيلو متراً ، والمأهول بالسكان ثمان وثمانون كيلو متراً .. والمسجد الحرام وما حوله ست كيلو متر .. ترتفع عن سطح البحر (٢٧٧م) .

وقعت فيها بعض الحوادث منها حادثة العتيبي في القرن الماضي الذي اتخذ الحرم حصنا له وقاتل من خلاله ، وحادثة الحجيج وكانت شبه مظاهرة ...

مناخها حار جاف في الصيف ، ودرجة الحرارة تصل إلى ٤٧مْ ، وفي الشتاء ما بين (٢٥) نهاراً ، و (١٧) ليلاً أمطارها تتركز في تشرين الثاني وكانون الأول والثاني ، وفيضانات مكة مشهورة منذ العهد الأول .

وأما الجبال المحيطة بها ، فجبل النور الذي فيه غار حراء ، وجبل ثور وفيه غار ثور الذي مكث فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة .

وجبل عرفة ويبعد عشرين كيلومتراً ..

وتُعتبر مكة محط القوافل التجارية ، وكانت لهم رحلات في الماضي رحلة الشتاء والصيف ، وأسواقها تُعتبر من المراكز التجارية المهمة ومن هذه الأسواق (عكاظ ، مجنة ، ذي المجاز) والسوق الأخير المذكور (ذي المجاز) بقـــي إلى اليوم باسمه هذا ..

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي وبعد القرار الذي اتخذته في المساء بأن أخرج إلى الأسواق .. خرجتُ إلى سوق ذي المجاز ، وهو شبيه بسوق الحميدية في دمشق ، وسوق السربادي في بغداد ..

الأماكنُ تتشابه في الشكل دون الجوهر ، وتصميم الدكاكين يشبه بعضه بعضا في الأبواب ، وكذلك الطرق ، غير أن سوق الحميدية يختلف بحجره الأسود القديم ، والبنيان الأثري المميز، وأنا أسير في السوق كان على لساني ذكر (يا ذا الجلال والإكرام) وإذا بي عند دكان الحاج محمد نجيب وتحته مكتوب على القطعة (المحبوب) فاقتربت منه

وسلمت فرد السلام بكل حفاوة وترحيب ثم قال : تفضل ونادى بعض العاملين لتقديم الماء والحلوى.

وقال : لا تستغرب .. فإني حفيد ابن جدعان الذي كان يُقدم الفالوذج في الجاهلية ، وأنا أقدم لك حلوى المستكة .

فابتسمتُ لكلامه ، وشربت الماء ، وأكلت من الحلوى وأنا أنظر إلى هذا الوجه الدائري الأسمر ذو الشامة والابتسامة ، وعليه علامات الطمأنينة .. إنه فعلاً الرجل المحبوب اسمٌ على مُسمى كمحله .

فقلت له يا عم فقال : لبيك

فاندهشتُ من الكلمة وقمتُ احترامًا لهذه الكلمة وأنا أضع يدي اليمين على صدري فوق القلب مع انحناءة في كتفي .

فقــال : أستغفر الله يا ابني ... اجلس اجلس

قلــتُ يا عم / لم آتِ سيداً بل خادمًا ..

فغضب الرجل

وقــال أستغفر الله .. كيف تقول هذا الكلام

وسألني ماذا تستطيع أن تعمل ؟؟

فقلت : أي عمل ترضاه ؛ فإني أستطيع أن أقوم به بإذن الله ..

فسألني : ماذا كنتَ تعمل ؟

قلت له : لا تستغرب وأتبعتُها بصوتٍ هادئ : لا تكذبني..

فقال الرجل : من تعلَّم الصدق يُصّدق الناس ولو أقسموا على أي أمر .

فقلتُ له : كان لي دكان كبير لبيع السجاد والتحف وكان من أكبر متاجر سوق الحميدية ، فبكى الرجل .

وقال : إذاً أنت الشخص المطلوب .. فلم أجبه .

فقال : بالله عليك ماذا تعرف عن ابنتي .

قُلتُ يا عم : ماذا تقول ؟

وبدأ يتوسل بي بقوة ويقول :

إن ابنتي ترى في المنام منذ سنين بائع السجاد والتحف الدمشقي يأتي ويقرأ عليها لتُشفى من المسّ ؛ فقلتُ له : يا عم اتحفظُ سراً .

قال : نعم يا بني وأمسك بيدي اليمين وأدخلني في خانه الكبير المملوء بأكياس القمح والشعير .. وفي نهاية الخان بابٌ صغيرة ؛ فدخلنا من الباب وإذا بفُسحة فجلسنا فيها .

فقال : نعم يا بني .. تحدَّث

قلتُ : يا عم إنّي رجل قد تركتُ تجارتي ، وسرتُ في طريق العاشقين ، وقد وكلت إليّ أمور وأوامر ، وأنا أسير على الخُطى ، وما دخلتُ مكةَ إلا للقاء ابنتك ولا أعلم لماذا .. إلا إنني في المرحلة الثانية ، الفتاة بنت صاحب دكان الحُبوب ذو الشامة .

فقال الرجل : والله يا بني إن ابنتي تذكرك دائما ، وتقول سيأتي ويحررني ، لأن ابنتي منذ سنين وهي مخطوبة لابن عمها ، ولم تستطع إتمام الزواج بسبب حالات الصَّرع وهذه الأمور التي تداهمها .

ثم قال الحاج : هيا بنا إلى المنزل .. فقُمنا وذهبنا ونحن في الطريق قال : حدثني عن أهل العشق .

قلتُ : يا عم هل سمعتَ بقواعدِ أهل العشق ؟

قال : لا والله .. ولكنّي سمعتُ بأهل الطريق والسبيل وأهل العرفان الذين سلكوا طريق الحق .. ونبذوا الباطل .. وطردوا من صدورهم الغل والحقد والحسد والكراهية ، ونقوا أثواب قلوبهم حتى وصلوا لتقديم قربانهم إلى الله ..

وهو القلب السليم ..

فقلت له : اسمع يا عم هذه القاعدة :

قاعدة (١٨١)

كَلاَمُ الحَقِّ عِبَادَةٌ، وَمُخَالَفَتهُ وَثَن،
وَمَنْ تَكلَّمَ فِيمَا لاَ يفْهَمهُ فَقَدْ أفْسَده ،
فَالْخَيْرُ أَنْ لاَ تُفْتِيَ إلا بِعِلْمٍ ..

فقال : الله الله .. تاجر سجاد .. وحكيم في أصول العبادة على السجاد ، وكلامه من كثرة السجود منجاة ..

فقال : اسمع يا عم هذه القاعدة :

قاعدة (١٨٢)

موافقةُ الهوى لِما أتى به الرَّسولُ توفيق ، والرَّادِعُ إن كان من نفسِكَ إيمان ، والنصيحةُ تحتاجُ إلى قبول الآخر ، والشُّكْرُ في زيادة الخير إحسان ، وما ضاقتْ به نفسُكَ فعليكَ بالاستغفار .

فقال : ما أجمل هذه الكلمات يا بني ، والله كأنني أسمع كلمات حروفها من نور ، ونغمها من عالمٍ ملئ بالإيمان .. واقتربنا من بيت الحاج محبوب ، والبيت في حي قريب من بيت الله الحرام ، بيت ترابي شبابيكه وشُرفاته مصنوعة من الخشب على طول البيت ، وهي بارزة إلى الأمام كأنها مظلة لا تُشبه شبابيك الشام ولا شبابيك العراق ، كأنه طراز معماري خاص ..

طرقنا البابَ ، وتذكرتُ ذلك الكف الحديدي الموجود على أبواب البيوت في بغداد ، ففسحوا لنا الطريق ، ودخلنا البيت كأننا نهبط من سفينة لأن السلم كان عاليًّا ، ودكاته غير متسقة .. ثم ممر طويل على جانبه الأيسر ممر آخر ثم فناء البيت ، وفي وسط البيت حوض ماء كأننا في الشام.

وعلى جانبي الفناء غرف أمامها مساند خشب ، وفي الجانب الشرقي من الفناء، وكان عليها أماكن للجلوس .

فقال الحاج : ادخُل يا بني ؛ فهذه الدار الفناء مكان للضيوف ، أما دار الأهل ففي الجهة الأخرى وجلسنا .. ولم يكن وقتُ الظهر قد حان بعد .

فقال لي الحاج محبوب : امكُث قليلاً حتى أذهب وأقول لأهلي وأبشرهم بخبر لقاءنا .. وذهب الحاج وهو يسير ويُكرر قوله تعالى : "بَلْدةٌ طيبةٌ ورب غفور" .

وهنا قال السيد طالب وهو يقصُّ الحكاية :

لا تندهش يا تحسين .. إن أبطال هذه القصة كأنهم يتشابهون في التسابيح والأوراد .. وكلهم من أهل الطريق والحب ؛ فالنفوس الطيبة تلتقي مع بعضها في الدنيا والآخرة ..

ثم استكمل السيد طالب سَرْدَ الحكاية فقال :

يقول رفيق : فسار الحاج متجهاً إلى الممر الذي يؤدي إلى البيت ، وبعد برهة من الزمن أتى الحاج محبوب يركض وقال : مرحبًا مرحبًا بضيفي العزيز ... تفضل تفضل معي ، فقمتُ معه ونحن نتجه إلى الجهة الأخرى من الفناء عبر الممر المؤدي إلى بيت أهله .

فدخلنا إلى بيته ، وكان يشبه الأول .. والفراق أن هذا البيت أصغر بكثير من البيت الأول ؛ فاتجهنا نحو إحدى الغرف .. وجلسنا ثم نادى الحاج محبوب بعض الخدم لجلب الماء والحلوى والفاكهة .

وبينما نحن جلوس دخلت عينا فتاة توشحت بثوب لونه كلون أوراق الشجر لا يكاد يرى منه إلا الوجه والكفين ، وقد سلمت سلام العليل ، وكأن شهيقها يشبه شهيق رجل يحمل على ظهره دلواً من الماء وهو يصعد جبلاً ، والزفير كريح دخلت من فوهة نافذة .

فجلست وقالت: يا غريب .. ولستَ بغريب؛ فأنت رفيق وتحمل الإطار، وأخذتَ من العجوز الرق، وعندي من تحررهُ ويرافقُك، وإنّي أنتظر منذ سنين وهو ينتظر معي، ومفتاح قيد عبوديته في جسدي عندك أنت؛ فبكيتُ وقلت : يا ويلي ... ما هذه الأحداث التي أمر بها!! .

فقلت في نفسي ، إنّي لا أعرف العلاج ، وما جربتُ أن أعالج أحداً ، ولا علمتني العجوز ، ولا عجوز الخلوة ولا أهل الطريق الذين مرّوا بي .

فأطرقتُ رأسي ، وتذكرت حديثًا للصَّحابة وهم يقولون : يا مُحّمد .. عندما يمرضون "فعن الهيثم بن حنش قال : كنا عند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، فخَدِرَت رجلُه .. فقال له رجل : أذكر أحبَّ الناس اليك ؛ فقال : يا محمد فكأنما نَشَط من عِقَال"

فقمتُ ووضعت يميني علي رأس الفتاة ، وقلت : يا محمد في سري ثم قلت : يا محمد في علني ؛ فإذا بالفتاة تتصرعُ جُلوساً وتُطْرق برأسها .. وتتكلم بصوت كصوت الرجال يقول :

إني أنتظرُك منذ سنين .. فسألتهُ : لماذا قد جريت من الفتاة مجرى الدم؟؟

فقال: كنت أريد الذهاب لصلاة العيد وأنا بكامل قِيافتي ، وعند مروري من زقاق هذا البيت نزل عليّ من شُرفتهم بعض الماء ، وأنتم لا تعلمون أن الماء الذي تتطهرون به هو نجاسة عندنا فما كان منّي إلاّ أن أعود إلى بيتي وقد غمرني الحزن ؛ فأردتُ الانتقام ، والذي حدث أني قد سُجنت ويا ليتني لم أحمل حقداً ؛ فإني قد سمعت شيخاً من شيوخنا يقول :

<u>قاعدة (١٨٣)</u>

الشَّرُّ كاللُّقْمَة إِنْ استسَغْتَهَا نَالَكَ، وَإِنْ لَفظْتَهَا نلْتَ منه ، فَلَيْسَ كُلُّ الجَمَالِ حَسَن، فَلرُبَّمَا يُعجِبُكَ السَّيْفُ وَتُقْتَلُ بِهِ ..

ويا ليتني سمعت كلام أمي الزاهدة عندما قالت لي هذه القاعدة :

قاعدة (١٨٤)

إِنَّ للقلب مشارقَ ومَغَارِبَ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِرْآةٌ ؛
فَإِذَا أعطيتَ التَّوْحِيدَ أَشْرقَ داخِلَكَ نورُ الْإِيمَانِ ، فَانْعَكَسَ عَلَى المرآة فَأَشْرقت المَشَارِقُ والمَغارب ..

ثم قلتُ له : ما اسمُك ؟

قـال : عبدالله .. ونحن من المسلمين الأوائل .. وقد دخلت الإسلام منذ أكثر من ألف سنة ؛ فقلتُ له : يا عبدالله : بحق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اخرج من جسدها .

قـال : لا أستطيعُ الخروج إلاّ أن تضع يدك على رأس الفتاة ، وأن تضع الإطار على ظهرها فسأخرج عندها .

فقلتُ له : الآن الآن إن شاء الله .

وقلتُ للعم محبوب : سأذهبُ إلى الخان وأجلب الإطار وخرجت مسرعًا باتجاه الباب ، والعم محبوب يسير خلفي حتى وصلنا الخان ؛ فذهبتُ إلى غرفتي وقالي لي العم محبوب : اجلب جميع أغراضك فإنك ستبقى معي في البيت ؛ ففعلت ذلك ، ودفعت ما تبقى من حسابٍ لصاحب الخان ، ثم رجعنا إلى البيت ونحن في الطريق تذكرتُ قاعدةً في التوحيد والنية الخالصة :

قاعدة (١٨٥)

إِذَا بَحَثْتَ عَنْ شيء تَجِده، وَلَكِن عَنِ الَّذِي لَيْسَ بشيء أَيْنَ تجده ؟
إلاّ إِذَا كَانَتْ لَكَ نية خالصة إِلَيه فستجد الْحَلَاوَةَ فِي أَنَّهُ لَيْسَ بشيء ..

ثم وصلنا البيت وطرقنا الباب ودخلنا ؛ فسبقني الحاج من بيت الضيوف إلى بيتهم وناداني فدخلت ، وكانت الفتاة واسمها (ماريا) في حالة من الذكر والاهتزاز والصوت ليس صوت ماريا ، بل صوتُ عبدالله من إخواننا من الجن .

فلما وصلتُ سَكَت عن الذكر وقال : اقترب يا رفيق واكتُب عنّي هذه القاعدة:

قاعدة (١٨٦)

خُطْوَةُ الْقُرْبِ بِأَلْفٍ ، وَالْمَسَافَةُ أَلف ..

يا رفيــق : " **القُرْبُ : إِخْلَاصٌ وَتَوْحِيد**"

ثـم وضـعتُ الإطـارَ علـى ظهـر ماريـا ، ووضـعتُ يـدي اليمـين علـى رأسها .. وقلت : يا محمد ثلاثاً ؛ فأُغشي عليها ؛ فحملتُ الإطار ووضعته جانباً وخرجتُ من الغرفة ..

فخرج العم محبوب خلفي وقال : ما الذي حدث ؟

فقلـــتُ : وأنــا فــي نفســي لا أعــرف مــا حــدث ، قلــتُ لــه : نامــت .. وستصحو بخير بإذن الله !!

فخرجنا من الغرفة إلى بيت الضيوف..

فقلــتُ : ألم يؤذن المؤذن؟؟

فأجاب (ميمون) خادمُ الدار : نعم لقد أذن للظهر منذ أكثر من ساعة ..

فقلـــت فـي نفسـي : هـول الموقـف ومـا حـدث جعلنـا لا نسـمع أذان الظهر، فقمت وتوضأت وصليت ، ثم تناولنا طعام الغداء ، وبعدها نمت على أريكة في بيت الضيافة ، وما صحوت إلاّ على أذان العصر ، فذهبنا وصلينا العصر في الحرم.

وأنــا فــي طريــق العــودة مــررت بطريــق غيــر طريقــي الأول ، وإذا بصوت يخترق سمعي ما بين رجل يسأل والآخر يجيب كأنها حلقة علم ؛ فتتبعت أثر الصوت وإذا بمدرسة الأنوار المحمدية .. باب كبيـرة .. وبنـاء ضـخم علـى الطـراز القديم ؛ فدخلت مـن البـاب ، واذا بباحـة وحلقـة علـم كبيرة ورجل يعتلي منبراً لـيس كمنـابر الشـام عاليـة وكبيـرة.. عبـارة عـن ثـلاث مراقــي ؛ فجلسـت فــي الحلقـة واسـتمعت وإذا بالشـيخ يشـرح هـذه القصيدة :

طَرَقْتُ بابَ الرَّجَا والناسُ قد رَقَدوا
وبِتُّ أشكو إلى مَوْلاي ما أجِدُ
أشكو إليكَ يا ربِّ أموراً أنتَ تعلمُها
أنَا مالي على حَمْلها صَبْرٌ ولا جَلَد
وقُلتُ يا أملي في كلِّ نائِبَة
يا مَنْ عليه لِكَشْفِ الضُّر أعتمدُ
وقد بَسَطْتُ يدي بالذُّل مُفتقراً
إليكَ يا خيرَ من مُدَّتْ إليهِ يدُ

فَلا تَرُدنَّها يا ربِّ خائبةً
فبَحْرُ جُودِكَ يروي كُلَّ مَنْ يَرِدُ ..

ثم قال الشيخ : وملخص هذه الأبيات يحتاج إلى معرفة هذه القاعدة:

قاعدة (١٨٧)

الدُّعَاءُ يَحْتاجُ إلى عَزْمِ الصَّبْر ، وَالَوقتُ البعيد كالقريب ، من بَدَأَ بِهِ فليعلم أَنهُ يتعامل مع الله ، فليتحمل الشِدّةَ حتى تأتيهُ المُؤانسة .

ثم قال الشيخ : من أراد أن يسلك طريق العاشقين فعليه بأمرين : الشرع والأدب، وقال :

قاعدة (١٨٨)

الشرعُ والأَدبُ مفتاحا باب العرفان ، والسببُ والمُسبب فَدَع ، والخِدْمَةُ لأَهلها ، واياك أن تقدمها لمن أراد بكَ الذُّل، إلاّ إن احتاجَ ، واحفظْ سيرةَ العلماء .

ثم قال : واعلموا يا أَولادي :

قاعدة (١٨٩)

الْأَدَبُ أَدبان ، وَلَهُ جَنَاحان : أَدَبٌ مَعَ اللهِ وَأَدَبٌ مَعَ النَّفْسِ ، فَمَنْ أَرادَ أَنْ يَتَأَدَّبَ فِي الْحضرةِ فَعلَيه أَنْ يعرفَ نفسَهُ ..

ثم قال : وبهذه المعرفة يكمن الخلاص من الأربعة (إبليس والنفس والهوى والدنيا) ولابد أن تحاسب نفسك ، وأن تلجمها بلجام من حديد ، وبرادع من نار كي تكف عن الحسد والكذب والخيانة والبهتان والنميمة والبذاءة وقلة الحياء وقلة الصبر والشكوى واستخدام (لو) ، وعدم الرضا بالقليل ، والسعي للحرث ، والتباهي بكثرة الأولاد والأموال

والقصور ، وأن تأخذه العزة بالإثم حتى أنه لا يدري كيف انزلق ، وما إن يصحو إلا والعمر قد فات فيصيبه الندم ، وتطوقهُ الحسرة وهو على أبواب عالمه الآخر فيكون الخُسران المبين..

ثم قال الشيخ بعد ذلك :

"اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، وهيء لنا من أمرنا رشداً ، واجعل في حواسنا نوراً كي يكون لنا راشداً هاديًا مهديًا لطريق الحق ، اللهم هيء لنا في أنفسنا ما يمنعنا أن نكون في مواطن السخط ، اللهم اجعل لنا ما يرفعنا كي نكون في مواضع الرضا يا أرحم الراحمين"

ثم انتهى الدرس وتفرّق الطلاب ، فتبعتُ الشيخ وسلمتُ عليه فردّ السلام وقال: أهلاً بالعاشق ..

قلتُ : يا شيخ انصحني ، فقال :

قاعدة (١٩٠)

تَوْبَةُ الْمُنِيبِ شُكْرُ الْمُرْتَضَى، صَبْرُ الْعَنَاءِ رِضا المُجتبى، إتباعٌ فِي الطَّرِيقِ وَابْتِعَادٌ عَنِ الْهَوَى، جُوعَ المغارم عُزلة الْمَغَانِمِ، صَمْتُ الْجَوَاهرتَغْرِيدَةُ أُنْسِ الْقَلائِدِ، سهر البكا وَالْجَوَانِبُ قَد جَفَا، والفِكْر قَدْ أنبتَ فِي الأجسَاد المُكَا ..

وقــال لي :

قاعدة (١٩١)

هِمّةُ البُغَاة ودينُ الهَوَى والجَدَلُ والنِّزاع أولُ طريق الضَّلال.

ثم سار الشيخ وسرت معه ، فسألني : هل أنت غريب في هذه البلدة؟

قلــت : نعم .

قـــال : من أي البلاد ؟

قلــت : من الشام .

قـــال: أهلاً ومرحباً بديار قطب العاشقين الشيخ الأكبر محي الدين.

فقلــتُ : يا شيخ .. إني أطمعُ بأن أكون في خدمتك ..

قاعدة (١٩٢)

فقال: "مَنْ خَدَمَ يُخْدَم"

يا مرحبًا بك .. فما إن رأيناك إلا وقد أحببناك ؛ لأنك تحمل الأمانة ، وترد عن الدين الإهانة.

فقلتُ : يا شيخ متى الدرس؟

قال : اذهب .. وغدًا سيكون لنا حصة في دروس الرّحاب

فقلتُ : يا شيخ : وما الرحاب ؟

قال: السيْرُ بين أحوال الشيخ محي الدين ..

فذهب الشيخُ ، وعُدت أدراجي إلى بيت الشيخ محبوب ودخلتُ غرفتي وبدأت بالتسبيح ، وأنا أتذكر بداية قصيدة الشيخ (طرقت باب الرجا) ، فتذكرتُ الإطار وأخرجته من الكيس فوجدتُ أن لونه قد تغير ، ومال إلى السواد ، ورق العجوز قد أصبح كالزجاج مرآة ومرآة .

النقوش كأنها خُطَّت بنور ، واللمعان ينتقل من ركن إلى ركن ، وكأن الإطار قد استبدل ولكنه هو ، فبحثتُ في الجوانب عن باب الرق ففتحته وأخرجتُ الرق كي أري أين وصلت ، فقرأت في محل ما وصلتُ إليه : أنك أتممت الأركان ، فعليك أن تخرج إلى صحراء مكة ، وتؤوي إلى أحد الوديان ، وتبدأ رحلة المغرب في البحر والسفينة عن طريق هذا الإطار ، ولكن أتمم بعض الدروس وتَسلّح بالعلم .. ها قد بانت الأمور ، وإنها كهاتين ، علامة الساعة بإشارة النبي وقوله : (بعثتُ أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى)

وبعدها نظرتُ في الأطار فرأيتُ وجهي كما أراه في مرآة في الظلام ، قد توسعت عيناي حتي صار وجهي عينًا وفي وسط العين نقطة بيضاء ، وهي تقترب مني من بعيد ، كأني جالس في صحراء وأنظر إلى فارس من بعيد وهو يتجه نحوي.

وما هي إلا برهة وإذا بفارس بدرعه ، وخوذته وسيفه وحصانه الرمادي واقف على رأسي ويقول : تفضل ماذا تريد ؟؟ بصوت عال أرعبني.

فقلتُ : لا أريد شيئًا ..

قال : أنا دليلُك إلى بحر الزمان لا مكان ، إلى بحر من ينتظرونك في السفينة، كي تلتقي بأصحاب دائرة الجمال .. كي يكتمل العدد وتبدأ

العلامات في التحقق .. ثم سلم بصوت أعلى واختفى فرأيتُ نفسي ممسكًا بالإطار في وسط الغرفة ..

فقلتُ : يا الهي ما الذي يحدثُ من هذا الإطار ؟!

فخرجتُ من غرفتي ، فوجدتُ العم محبوب ينتظرني في فناء الدار ، وهومشوش ، وعلامات الفرح والسرور ظاهرة على وجهه ، وهو يقول : ما أعظمك أيها الشيخ وأخذني بالأحضان وقبلني وقال / أطلب ما تريد ...

فقلتُ على رسلك يا عمّاه ، ماذا حدث ؟؟

قال : إن ابنتي استيقظت من النوم وكأنها لم يعتريها شيء كل هذه السنين وقالت: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

في منامي وأعطاني حبات من التمر وقال :

كُلي فإنها من أشجار المدينة ، وقد عزمتُ أنا وابنتي أن نذهب غداً منذ الصباح إلى مدينة الحبيب .. فهل تأتي معنا ؟

قلتُ : بالتأكيد يا عم ؛ فإني قدمتُ إلى مكة وأنا أترقب الفرصة كي أذهب إلى زيارة الحبيب صلي الله عليه وآله وسلم .

ثم قال العم محبوب / إن آبنتي تريد أن تشكرك

فقلتُ : يا مرحبا بها يا عم ؛ فأتت ماريا وهي تحمل على يديها قطعة من القماش فسلمت ثم قالت : هذه هديتي لك..

فقلتُ : ما هذا يا أختاه ؟ .. قالت : قطعة من رداء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اشتراها لي أبي منذ سنين وهي أثمن ما أملك أقدمها هدية لك .. وهل هناك ما هو أثمن من شيء مسَّ جسد رسول الله .

فقلتُ : يا أختاه ، شكراً على هذه الهدية الثمينة وأنا سأهديك هدية أيضًا ، ولكن هديتي لك هي بضع كلمات فاسمعي :

عليك بماء زمزم فإن في الحديث الشريف " ماء زمزم لما شُرِبَ له"

واشربي منه دائماً ولسانك يلهج بالدعاء ؛ فإنك في سلامة .

وقلتُ لها : واسمعي هذه القاعدة :

قاعدة (١٩٣)

سُلوكُ الأنفُسِ وَقَيْدُ الحَوَاس طَرِيقُ السَّالِكِ مُنقطعاً عَن الوَسْوَاس .

واسمعي هذه القاعدة :

قاعدة (١٩٤)

أحرق بَدْءَ نفسٍ كليلةٍ لتَرقىَ إلى الإشراق دون بلية ،
فَقَطْعُ النفس رُقيُ أنفسٍ ووصولٍ لدرجات أنفس .

فقالت ماريا : ما أجمل هذه الكلمات يا شيخ .. علمني مما تعلمت .. فبكيتُ وقلتُ : يا ابنتي يا ماريا .. والله إني طالب وأبحث عن العلم في كل مكان ، يا ليتني الآن صبي في التاسعة عند معلم الصبيان كلما أخطأتُ قومني. . فقالت: هذا تواضع منك يا شيخ ؛ فقد حار الأطباء في علاجي وأنت عالجتني دون مقابل ..

قلتُ : يا ماريا .. ما من رجل كامل إلاّ ويحتاج إلى مربي ومعلم ، وإن الشرع عِلْمٌ من الصدور وليس السطور .. وقلت لها : لماذا لا تحضرين عند الشيخ في مدرسة الأنوار المحمدية ؛ ففرحت ماريا بهذا الأمر .. قلتُ : ولكن بعد إذن الوالد ، فالتفت العم محبوب واعتذرتُ منه .. فقال : لا عليكَ .. أنت شيخنا وصاحب فضل علينا..وإني موافق أن تذهب ماريا إلى الدرس.

ثم انتهت الجلسة وأخذتُ قطعة الثياب ، وسرت إلى الغرفة .

ولم أخرج من الغرفة ، وصليت صلواتي ، وأديت أذكاري في غرفتي إلى ما بعد العشاء حيث جاء إليَّ ميمون خادم الدار وقال : يا سيدي أتريد العشاء.

فاعتذرت منه وقلتُ : لا أستطيع .. وبقيت في غرفتي أذكر الله وأسبح حتى منتصف الليل ثم أخرجتُ الإطار .

وهنا قال السيد طالب: غداً نكمل الحكاية ..

أما الآن فاكتب يا بني بعض قواعد التربية والسلوك في طريق أهل العِشْق:

قاعدة (١٩٥)

المراقبُ للنَّفس، والناظر للطريق سيرى الأَنوارَ في نفسه أو أمامه .

قال : واعلم أن التنزيه من أهم أركان العبادة واسمع هذه القاعدة :

قاعدة (١٩٦)

مَنْ تكلّم في إثَباتِ الشَّكْل ضلَّ ، والرَّسمُ لا شَكْلَ فقد هَلّ ، كالصَّحراء سَقَطت في وَسَطها قَطْرةُ مَاَء فما أَنبتت مرعى ولا أضحت بحراً .

يا بنـــي :

قاعدة (١٩٧)

التنزيهُ والفقر وليس فقر الحال والمال بل منزلةُ الفقر ما اجتمعا عند رجلٍ إلا واخترق الأَرض والسماء .

وقــال

قاعدة (١٩٨)

الفَقْرُ بكامل الرّضا فَقّر ،وبأقله حَصْر .

واعلم أن التنزيه والفقر يولدان التوحيد ومعناه

قاعدة (١٩٩)

توحيدُ الله بأن لا يميل مَقْصُودكَ إلاّ لهُ

" ما زاغ البصر وما طغى"

ثم قال لي السيد طالب : قم واذهب وسنلتقي غداً إن شاء الله ..

يومُ الخِدْمَة

التقيتُ بالسيد طالب حسب الموعد لإكمال الحكاية وأخذ القواعد فقال لي: اليوم يوم الخدمة فلم أفهم مرادهُ وما سألت .

ثم قــال : ماذا تناولت على الغداء ؟؟

فقلـتُ : يا سيدي ، أكلتُ البطاطا باللحم ..

قـــال: إذاً تستطيع أن تعمل وأنت راضٍ دون ضجر ، والبطاطا واللحم سيعطيانك القوة بأن تمسك بمقود المكنسة والممسحة ، وهو يبتسم وينظر إليّ باستهزاء فأنت ابني، ولكني أريد أن أوصلك إلى بر الأمان والنجاة من أمواج الدنيا التي تغرق وتحرق، فالنجاة في الفهم، والنجاة في السمع والطاعة واسمع يا بني :

قاعدة (٢٠٠)

الشُّغْلُ وَالخدمةُ مَا بَيْنَ الْفَرَاغِ وَالْامْتِلاءَ، وعندئذ الطَّلْقُ إِلَى عَالَمٍ لَيْسَ بِالنَّظَرِيُّ، شُغْل الخدمة اشْتِغالٌ، وَاشْتِغالٌ فِي الْفَرَاغِ دُونَ الْامْتِلاءِ طلْق .

إن فهمتَ هذه القاعدة فإنكَ ستسمع كلامي وتأخذ أوامري دون أف ولا ضجر ولا حيرة ...

ولا تفكر في أوامري أنها نابعة من الهوى أو الشر واعلم واسمع وتيقن : إن خالف كلامي الشرع فاتركني وإياك والتقرب مني، وإن كنت حافظًا للشرع فالزم ...

ويا بني اسمع هذه القاعدة :

قاعدة (٢٠١)

تمامُهُ بَدْءُ الْمَنَازِلِ، والفنَا أولُ شيء كالمبازل ، ثُمَّ البَقَا دَوامُكَ من الْمَهَازِلِ ؛ فَلَا تَعْطِي لِنَفْسِكَ مَاشَاءَتْ مَنِ السَّنَابِلِ، دَليلُنَا تُوَرّمُ قَدَمِ الحَبِيبِ، لَا أطروقة مَنِ الجَنَاجل ..

ثم قال السيد: الباحث والمسافر لطلب الحق يتبلور في داخله عالم كعالمنا هذا ولكن بشكله المصغر واسمع هذه القاعدة:

قاعدة (٢٠٢)

مَنْ جَمَعَ المَعْرفةَ عَلِمَ افتقَارَهُ إلى الله ؛
فاستعد للسَّفر الطويل بالزَّاد والرَّاحلة .

ثم بدأنا بالسير ، فجلس السيد تحت نخلة قريبة من مسجد الخلاني ، وأرسلني لجلب الماء من بئر مسجد الخلاني ، وأعطاني الزجاجة ، وذهبتُ لجلب الماء وعندما عدتُ سلمت عليه وقلت السلام عليكم فرد السيد طالب : السلام عليك قلت له يا سيد : أليس الجواب بأن تقول : وعليكم السلام فابتسم وقال : اسمع يا هذا .. علمتُك الرماية فتريد إصابتي

اعلــم : أن من الاحترام والحب أن نبدأ دائماً بالسلام لأن الله بدأ بالسلام، ألم تسمع قوله تعالى (سَلامٌ قولاً من رَب رحيم) و (سلامٌ عليكم طِبْتُم) و (سلامٌ هي حتى مطلع الفَجَر) .. قلت : نعم يا سيدي ..

ثم أخذنا الزجاجة وبدأنا بالمسير من منطقة الصدرية فوصلنا إلى مسجد صدر الدين ؛ فجلسنا عند عتبة المسجد ، فقال السيد اكتُب :

قاعدة (٢٠٣)

من أرادَ أن يعرفَ لماذا لم يصل إلى الحقيقة والحقائق فليُقارن أعمالهُ بمن سبقه من الآل والأصحاب والتابعين ؛
فإنهُ سيعلمُ أين قصر ، وماذا فعلوا هم ، وما نحن عليه .

وقــال :

قاعدة (٢٠٤)

اعلم أَنَّ مَنْ رَافَقَ أَهْلَ الخَيْرِ نَالَ مَنْ خِصَالِهِمْ .

يا بني :

قاعدة (٢٠٥)

من الشَّرعِ أن تُحاسِبَ نفسكَ على ذِكْرِ الآخرينَ بالخير فكيف بالشر ، وادعُ اللهَ أن يُنبت في لسانكَ عَظْمَاً ، كلّما أردتَ سوءاً يلتصقُ في فم حَلْقِك .

ثم ابتسم وقال لي : قُم ، وأثناء سيرنا قال لي :
أتريد أن يكون لك كرامة ؟

وابتسم وقال : أي شيء خارق للعادة ؟

فقلتُ بشيء من الحياء والخوف ونوع من الطموح : نعم .. فتوقفنا عند جامع المصلوب قرب سوق الدهانة فقال: سيأتي يوم عليك ويكون لك هنا باب للرزق فتعجبت من هذا الكلام وقلتُ في نفس : (هل إنه يعلم الغيب) !! واستغفرتُ الله في نفسي

ولكن للعلم والتأريخ : ما إن وصلتُ إلى سن الرّشد إلا وكان لي دكان صغير لبيع الأعشاب في تلك المنطقة.

فجلسناعلى بوابة المسجد وكانت الدكة من حجر مُقَطَّع ...

فقـلت : كيف يا سيدي يكون للإنسان كرامة؟

قاعدة (٢٠٦)

اتباعُ السُّنة وطَريق آل البَيْتِ الكِرَام وإيّاك والبِدْعَة .

ثـم قـــال :

قاعدة (٢٠٧)

اعلم أنَّ الاجتهادَ يكونُ في النُّور السَّاطع ؛ فإنَّ طُرقَ الخفَاءِ اجتهاد لأَهْلِ الدُّنيا .

وقال لي: يا حبيب / وكانت هذه أول مرة يناديني بهذه الكلمة فقال :

قاعدة (٢٠٨)

نَظّف ثَوْبَ باطِنكَ، وَلَا تَظْهَرْ بِهَذَا الثَّوْبَ الْقَدِيم وَالْفَم الْيَابِس مَنْ كَثْرَةِ الصَّوم، والجبين الْمَجْرُوح، فالحق إِخْلَاصٌ، وَالْبَاطِلُ تظاهر وَلَا خلاصَ .

وقــال اعلــم:

قاعدة (٢٠٩)

إِذَا انْطَفَأَ سِرَاجُ قَلْبِكَ اظلمَ وجْهُكَ، وَكُنتَ مثلَ قطعة الخبْز الْمَحْرُوقَة لَا تُؤكل وَلَا تُحْتَرَمْ .

ثم قال : قُم لنعد إلى سوق الصدرية ؛ فذهبنا عند مسجد الألفي هناك ، وكان بقرب هذا المسجد الصغير بيت قديم له بوابة كبيرة من الخشب وعليه زخارف ومطارق يدوية ، ففتحنا الباب ، ودخلنا إلى باحة كبيرة ، وكان وسط البيت شجرة نبق (سدر) وأمرأة عجوز جالسة على مقعد من خشب ضريرة .. وقبل أن نسلم عليها.

قالت : أهلا يا طالب ؛ فاندهشت : كيف عرفته؟

ثم بدأ الحوار بينهما والسؤال عن الأحوال فقالت : إن الإبريق تكلم ، هيهات للنجاة إلاّ بالمناجاة ، فتعجبتُ من هذه الكلمات ، وكيف أن امرأة عجوزاً تتكلم بهذا النغم .

فقلتُ بكل أدب وسكون : يا أمّاه كيف عرفتينا و نحن لم نتكلم ؟؟

فقالت : يا بني .. إني أشم رائحة الزهور .. وأدعو الله أن يجعل لي عقلا منيراً ولساناً ذاكراً وأنفاً كأنف الثعالب ..

وقالت لي : لكَ الخير ، فاتخذتُ هذه الكلمة ديْدنًا إلى يومنا هذا .

إنها أم الخير كما ينادونها أهلُ محلة الصدرية ، فجلسنا تحت هذه الشجرة ، وفي هذه الباحة الجميلة ، أرضها من الطوب العريض ، والبيت كبير جداً بطابقين ، بناؤه قديم جداً وأم الخير تسكن فيه لوحدها ، وهي ضريرة ومع ذلك فهي تخدم نفسها وتطهو الطعام بنفسها ، وتغسل الثياب ، والمكان نظيف جدا وطعامها لذيذ جداً وكلامها كالسحر ينفذ إلى الجسم ، إنها أم الخير حقاً .. فرحمة الله عليها

وعندما جلسنا تحت الشجرة قال السيد اكتب :

قاعدة (٢١٠)

الظّاهِرُ يَعْكِسُ الْباطِنَ، وَالْباطِنُ يَعْكِسُ الظّاهِرَ..

واعلـــم :

قاعدة (٢١١)

أَنَّ الإنْصافَ أن تنصُرَ النَّاسَ عَلَى نَفْسِكَ
وَلَا تَطلبْ مِنْهُمْ الاتِّصَافَ ..

وقـــال :

قاعدة (٢١٢)

السُّلُوكُ مَحوُ الْمَنْزِلَةِ بِالرِّضا وَبِالْسُّؤَالِ تأْخذ وبِالْخَفَاءِ تُعْطي ..

وقـــال :

قاعدة (٢١٣)

اِعْمَلْ بِأَدْنَى الْأَعْمَالِ مَكَانةً، وَاعْلَمْ أَنَّ الطّعامَ يَصُدُّ الْمَحْبُوبَ، والخلْقُ يقْطَعُونَ الْاتِّصَالَ، فإن نَجَوتَ مِنْهُمَا كَانَ ذِكْرُكَ أُنْس .

يا فتـــى :

قاعدة (٢١٤)

إيَّاكَ أن تُنْفِقَ مالاً على عملٍ تستطيعُ أن تعمله ، وأنفق ما ادخرتَ لمسكينٍ واقفٍ على الباب ينتظِرُ العطَاء .

يا بنـــي :

قاعدة (٢١٥)

مَنْ أَذلَّ نَفْسَهُ دخَلَ بَابَ العِزَّةِ ، وَأَلْبَسَهُ اللّهُ ثَوْبَ الهَيْبَةِ .

يا فتى قريش وابتسم وقال : أم فتى القرش ؟!!

فقلتُ يا سيدي : إني لا أفكر إلا بالرضا فهي كلمة جدتي ، والتي كانت تقولها بلفظ : (من رازيم ، من رازيم) أي أنا راضية راضية ، وهي تذكر الله بمسبحتها اليُسُر السوداء .

وعندما تنتهي من الذكر تضعها في رقبتها كالقلادة ، كم أنا مشتاق إليك يا جدتي، رحم الله جدتي وطيب الله ثراها ..

قال السيد طالب : يا فتى قريش : بيت الخلاء أول الطريق ، اذهب واغسل حمامات المسجد فقلتُ : إني أكتبُ يا سيدي ومعي قرطاسي وأوراقي وملابسي ؛ فقال: بصوت الأسد ونظرة الصقر : اذهب .. فما كان مني إلا السمع والطاعة .. وبعد الانتهاء من غسل الحمامات قال: اذهب واغتسل ، ونلتقي إن شاء الله في صلاة المغرب وهو يكرر قوله تعالى :

"الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً " (سورة الفرقان: ٢٦)

الإبْحـــار

دخلتُ غرفتي وأنا أمسح وجهي بالرداء المبارك ، فدخلني السرور والانشراح ، وتذكرت الهدايا التي أخذتها منذ صباي إلى يومي هذا من أبي وأمي وأصحابي وزوجتي ، ومن حولي في السوق ، وكم جاءتني قطع ثمينة من النفائس المصنوعة من الحديد والذهب والفضة والأحجار الكريمة فتخيلت كل هذه الأمور ، ووازنتُ بينها وبين الرداء ، فما كانت كل هذه الأشياء مقابل الرداء الا كذرّة غبار تطايرت في الهواء..

يا لهُ من رداء ثمين عزيز على قلبي ، إني اليوم حي ، وقبلها كنتُ ميتاً ، فجعلتُ الرداء في عمامتي وربطت رأسي وتعممتُ ، ثم أخرجت الإطار وسمعتُ صوتاً من داخلي يأمرني أن أعلق الإطار على الجدار فعلقته ووقفت أمامه ، وأنا أنظر إلى الإطار ، فرأيت من وسط الإطار كأن زوبعة بدأت تدور فأحاطت بالإطار وأحاطت بي ..

وإذا بي على متن سفينة في وسط البحر ، وأنا واقف على إحدى جوانبها وضعت يدي على عمود من حديد مثبت على طرف السفينة ، وفجأة مَرّ رجل بجانبي وقال : مرحباً يا مختار

فنظرت في نفسي : ما هذا الاسم ؟

أنا اسمي رفيق ..

فأخذتُ أفكر وأنصح نفسي بالحذر من أي تصرف..

فنظرتُ إلى ردائي وملابسي ، فعلمتُ أن في الأمر سرًّا؛ لأن هذه الملابس ليست ملابسي ، ولا أملك مثلها ، فوضعت كفي على وجهي ، وخفتُ لأَني لدي لحية طويلة.

فقلت في نفسي : أبحث عن مرآة ، فبدأت بالنزول من سطح السفينة إلى الطابق الأسفل .. طابق الغُرَف.

وخلال مسيري ؛ فإن كل من شاهدني قال مرحبًا يا مختار .. الكبار والصغار الرجال والنساء .. وأنا لا أعرف كيف أتحرك في السفينة .. أين المطبخ ؟ أين الحمام؟ أين الغرف ؟ وأين غرفتي ؟ وكيف وصلت إلى هنا ؟؟

!!

وفجأة : رأيت امرأة في عقدها الرابع وقد توشَّحت بوشاح الرجال وثياب أهل الحرب وهي تنظر إليَّ وتقول :

يا مختار هذه غرفتك فاقترب ؛ فاقتربتُ منها وسلمتُ فردت السلام وهي تقول: لا تخف إنك الآن في دور إنجاز المهمة .

فقلـتُ لها بصوت فيه نوع من السكينة : هلا تجلسين معي كي أفهم ؟
قالـت : نعم .. هيا بنا إلى السطح
فقلـتُ : قبل أن نصعد أريد أن أشاهد وجهي فقالت : ليس الآن فإن شاهدتهُ ستزداد الحيرة في داخلك .
فصعدنا إلى سطح السفينة ووقفتْ في مكاني الأول .. كأنها تعرف أني كنت واقفًا هنا..
وبدأت تحدثني أنك أنت بائع السجاد وقد وقع عليك الاختيار يا رفيق.. وفي العالم ذو الأبعاد الثلاثة اسمك رفيق وفي العالم ذو البعد الرابع اسمُكَ مختار فلا تستغرب واسمع هذه القاعدة :

قاعدة (٢١٦)

الْاِخْتِيَارُ أَعَلَى الْمَرَاتِبِ ، نيلُهُ بِكَسْبِ الْمَقَامِ، أَوْ عَطَاءٍ لَا بِهِمَّةِ هُمَامِ .

ثم قالت : إنك لم تكن من الزاهدين العابدين ولا الذين داوموا على الخدمة ، ولا من أهل الطريق ولكن في يوم من الأيام كان الشيخ شمس الدين صائماً ، فمرَّ بسوق الحميدية مع أذان المغرب فسلم عليك وقال : ألي بشرية ماء ؟؟ فركضتَ إلى داخل المحل وجلبتَ قدحاً من الماء وقطعة حلوى ، وقدمتَهَا للشيخ فنظر إليك الشيخ ؛ فرأى فيك علامات الشخص الذي يُختار كل مائة سنة لكي يحمل الأمانة..
وقد ذكرك الشيخ شمس الدين ، وبعد وفاته بخمس سنوات كان الاتفاق عليك ، بأن تكون المختار في حمل الأمانة (الإطار) ..
ثم سكتتْ وتأملتْ .. وأنا عدتُ بذاكرتي إلى السوق قبل سنين وكان الوقت وقت المغرب واليوم كان الأربعاء ، ذلك الرجل الطويل المهاب ذو اللحية البيضاء والعمامة الصفراء .. وقد تلثم بذؤابة العمامة .. وبيده عصا خيزران .. وعندما اقترب من المحل سلم عليَّ بقوله : حياك الله وبياك
ولم يقل السلام عليكم ، وقال / هل لي بشربة ماء ؟
نعم ، أَتَذَكَرُ عندما نظر إليَّ ، وبعدها نظرتُ إليه فأحسستُ بالخوف في بادىء الأمر ثم بالطمأنينه .
نعم ، إنَّ صورة الشيخ بقيت في ذهني كل هذه السنين ولم أنس تلك الصورة..

ثم قالت المرأة لي : أنت الآن في سفينة الزمان تبحر كي تصل إلى نقطة البداية ، وما هذا الإطار إلا بوابة تدخل فيها ما بين العالمين كي تمهد الطريق حتى يصل الشخص المطلوب .

فقلتُ : يا سيدتي هل لي أن أسأل ؟

قالت : كلاّ لا تسأل ولا تهتم بهذه الأمور ولا تفكر بها واذهب إلى دروسك ، وضربت على كتفي ضربةً خفيفة ؛ فوجدتُ نفسي ملقىً على الأرض في غرفتي في بيت الضيافة في دار الحاج محبوب ، وأذان الفجر يخترق مسامعي ، فصحوت ونظرت إلى الجدار ، وإذا بالإطار في مكانه ..

فقلت : كيف حدث هذا ؟ أهي رؤيا أم حقيقة ؟!!

هل ما رأيته هو من الإطار ، أو حدث لي شئ آخر وأغمي عليّ ؟ !

فقمت إلى الوضوء وتوجهت لأصلي الفجر في الحرم وأكملت صلاتي وأورادي حتى الشروق ، ثم توجهت إلى مدرسة الأنوار المحمدية ، وكانت حلقة الدرس منعقدة ، والشيخ يتكلمُ حول المقولات العشر.

قال الشيخ :

زَيْدُ الطَّوِيلُ الأَزْرَقُ ابْنُ مَالِكٍ *** فِي بَيْتِهِ بِالأَمْسِ كَانَ مُتَّكِي
بِيَدِهِ غُصْنٌ لَوَاهُ فَالْتَوَى *** فَهَذِهِ عَشْرُ مَقُولاَتٍ سُوَا

ثم قال الشيخ : اسمعوا يا طلاب : المقولات العشر مهمة .. وتدخل في أمور حياتنا وتتوقف عليها جميع الأمور ؛ فالجوهر واحد مع تسعة أعراض : فزيد جوهر ، والطويل عرض ، والأزرق لون ، وابن مالك نسبة بين شيئين ، في بيته مكان ، بالأمس زمان ، كان متكي حال ، بيده تملك ، غصن لوى فعل والالتواء الانفعال أي ردة الفعل ، وهذه التسعة تقابلها تسعة ، والمقابلة ليست مناظرة بل مقابلة بلفظ آخر: الأول : الكم وهو متصل ومنفصل ، والمتصل مثل الخط والسطح والحجم ، وهو ما يسمى المستقر والثابت ، وأما المنفصل فهو العدد وهو غير مستقر مثل الزمان ، وأما الكيف فهو نفساني وكمّي واستعدادي ومحسوس ، ونعني بالمحسوس : الحواس الخمس ، والنفساني كالعلم والإرادة والحب والبغض ، والكمي : الزوجية والفردية والإعداد والاستقامة والانحناء والخطوط والسطوح والأشكال ..

أمـا الاستعدادي : فاستعداد الـشيء للنمو كالطفل بـأن يكـون رجـلاً / والبذرة بـأن تكـون شـجرة ، وأمـا المحسـوس فـإدراك المرئيـات كـالألوان والمـذوقات (الحـلاوة والمـرارة والمجوجـة) ، والمسـموعات : الصـوت الجميل والبغيض والحسـن ، والمشـمومات مـن الـروائح الطيبـة والزكيـة والكريهة ، والملموسات من الناعم والخشن والحار والبـارد ، وأمـا الأيـن فنسبة شئ مادي إلى مكان فمثلاً نقول : جابر بن حيان الكوفي ، أو حسن الحـضرمي ، فنسبة الشخص إلى المكـان جـابر إلـى الكوفـة ، وحسـن إلـى حضرموت .

والمتـى : نسـبة بـين الشـيء وبـين زمانـه كمـا نقـول : اليوم والأمـس ، والوضـع : نسـبة أجـزاء الشـيء بعضـها إلـى الـبعض الآخـر ، والمجمـوع إلـى الخـارج كالقيـام يحـدد موضـع الـرأس إلـى الأعلـى والعنـق تحتـه ، ثـم الصدر والبطن والعجز والأقدام ، أما المِلك فنسبة الـشيء إلـى شـيء آخـر يحيط بـه بلـون مـن ألـوان الإحاطـة ، كـالتعميم يحيط بـالرأس والـتقمص يحـيط بالجسـم ، والفعـل : وهـو يحكـي عـن تـأثير شـيء مـادي ويسـمي بالفاعل في شيء مادي آخر ويسمي بالمنفصل كقوله تعـالي "تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ " أو حركـة الذراع ، والانفعـال يحكـي عـن تـأثير شـيء مادي في شيء مادي آخر كتأثر الزجاج بالحجر المرمي عليه فينكسر .

أما الإضافة فنسبة شـيء إلـى شـيء بالقيـاس إلـى نسـبة أخـرى كـالأبوة والبنوة ، فإذا نُسِبَ الابن إلى الأب فقد نسب الأب إلي الابن .

وبعدها قال الشيخ : من لديه سؤال ؟

فقـام أحـدهم وقـال : يـا شـيخ مـا فائـدة هـذا الـدرس ؟ أهـو مـن الأمـور الشرعية؟؟

فقال يا بني : العلوم مُكملة لبعضها ، والمجتهد لا يصـل إلـى الاجتهـاد الحقيقي إلا بجمع علوم الآلة ثم يتبحـر فـي علـوم الطبيعيـات والطـب ، ثـم يسلك طريق الأخلاق فتكتمل عنده الصـورة وهـذه المقـولات هـي فـي كـل العلوم ، وفي كل نواحي الحياة ، فمعرفتها توضح المعاني والعلاقات .

ثم قال الشيخ : الآن إلى استراحة قصيرة كـي نستقبل صـلاة الظهـر .. وقام الشيخ وانصرف.

الذكـــــريات

تذكرتُ السيد طالب رحمه الله وطيب ثراه وقدّس سره وأنا في السوق أشتري خاتماً من الفضة وعليه قطعة من الياقوت النجمي ، لأن السيد قال لي يوماً : إن هذا الياقوت له فوائد كثيرة

فقلت له يا سيد : إنه حجر فكيف له فوائد؟

قـــال: أسمعت بالقنبلة الذرية ؟؟

قلــتُ : نعم

قـــال: القنبلة الذرية أساسها من حجر اليورانيوم وهو حجر خامل غير مشع ، ولكن بمجرد فصل الثقيل والخفيف عن بعضهما البعض ، فالخفيف مادة مشعة ، وافرح : فإنهم يُسّمونه الكعكة الصفراء .. والخفيف (٢٣٥) مشع ، والثقيل (٢٣٨) فيا بني كل الأشياء هي جزيئات ، والجزيئات ذرات والذّرات نواة والنواة فيها البروتون والنيوترون .

ثم تذكرتُ العلم الحديث الذي اكتشف (أكس) في داخل البروتون ، وفي (أكس) ذرات أصغر والله أعلم ماذا سيُكتشف في المستقبل ..

أشتريتُ الخاتم من سوق القلعة في أربيل ، وكان هناك ساحة بقرب السوق فيها نصب تذكاري يوحي بمأساة القوم ، جلستُ في الساحة ، وتذكرت الذكريات المريرة التي مرت في حياتي وحياة بلدي ، وأنا في الساحة أنظر للخاتم الجديد ، وخاتم السيد طالب الذي أهدانيه منذ سنين طويلة.

فقلَّبتُ الذكريات المريرة ، وتذكرت الآية الثانية من سورة الأنفال : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" (سورة الأنفال: ٢)

وتذكرتُ أحوال السلطة في بلادي كيف أبادت أمة وشردت الآلاف وخربت أربعة آلاف قرية ومدينة لو جعلناها في لوحة رسام ، لكان الناظر إلى اللوحة يفر منها رعبًا، كما في وصف القرآن لقصة أصحاب الكهف قال تعالى : "لَوِ اطَّلَعتَ عَلَيهِم لَوَلَّيتَ مِنهُم فِرارًا وَلَمُلِئتَ مِنهُم رُعبًا" (سورة الكهف :١٨)

فهذه اللوحة إذا نظرت إليها وجدت المرأة العجوز وهي ملقاة على ظهرها بزيها الفلكوري، والأصابع متشنجة ، وفخذاها التصقا ببطنها ، فاغرة الفم، مشوهة الوجه قد تعرّى صدرُها فترى حلمةً قد

سَقَت طُهراً، وسجدت في أتم السجود تخشى الله قد هتكت حرمتها ، يال هذه الحلمة وحرمتها عند الله.

وإلى جوارها طفل في السنة الأولى لا ترى غير رأسه المُهشّم واليد اليمني ونصف البطن ، وبجانبه بضعة رجال ونساء وأطفال قد اختلطوا كي يكونوا تلة كأنها ربوة الأرواح تشتكي إلى بارئها بهذه الصورة..

وفوق هذه الأجساد كيس أسود لا يُغطي كل الأشلاء وعلى الكيس قطعة حجر مكتوب عليها بالدم (اللهم إني مظلوم فانتصر) وعلى جانب التلة طفلة في الرابعة وطفل في السادسة ، وطفل في الثامنة وطفل في العاشرة ، وطفلة في الرابعة عشرة، وطفل في الخامسة عشرة ، وبنت في الثامنة عشرة ، وشباب في العشرين كأننا رسمنا لوحة التطور البشري من يوم المولد إلى حين البلوغ ولكن هذه المرة تختلف بعض الشيء ، فالشاب مقطوع الرأس والبنت الجميلة عارية مشوهة ، والأطفال بُقِرَت بطونهم لا أعلم .. أكانوا يشكون من الزائدة فأجروا لهم عملية جراحية فورية !! وبجانبهم عجوز بزيه الذي يُفصح عن هويته ولغته ويقول : والله إني مسلم ، وأحب الله والرسول ولكنني لا أعرف العربية ، فلغتي هي لغة أخرى .. ولي أعراف وتراث ، وإني أحب القمح في غصنه الأخضر أحرقه كي يكون طعامي اللذيذ ، ولا أحب الثريد وهذا ليس كفراً ولا محواً لسنة الرسول صلي الله عليه وآله وسلم إلا إنني أبرزُ هويتي .. وتحت هذه الرسوم بركة من الدم ، وعلى سطح البركة فُقاعات كأنها تغلي ... يا للعجب !!

دَم على الأرض يَغْلي ، ومكتوب في كل فقاعة (لا إله إلا الله محمد رسول الله .. يا حق .. اللهم عليك بالظالمين) .

وفي بعض الفقاعات أسماء بعض الشهداء .. ومنهم من أعرفهم وتجمعني بهم أيام جميلة مثل" كاك لقمان .. وكاك كاظم .. وكاك آزاد .. وألان .. وكاك دياري .. ودلشاد .. وفرهاد .. وكاوه .. ونرمين .. ونرجس وغيرهم" .

وتذكرت مع هذه اللوحة آلاف الضحايا ، وتذكرت سنة (١٩٨٨م) فقد سميت هذه المعارك ضد المدنيين العزل بحملات الأنفال ضد الأبرياء ، كم هو قبيح على الظالم أن يتخذ الدين ستاراً كي يستر عيوبه فانظروا إلى البون الشاسع بين الأنفال في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذه الحملات ضد المسلمين يعبدون الله تعالى ، وقد حملوا رايات

العلم ونشروا الدين في أصقاع الأرض ، حتى ترى على قبورهم قد كتب الاسم واللقب والمذهب وفي نهايته (الكردي) والحقيقة أن ما حدث لا يمكن تصوره بكامله ولكن سنذكر بعض الصور:

الجنود يركضون في إحدى القرى .. أحدهم أمسك بخروف والآخر قال : اتركه فإني أمسكت بهذا الكبش ثم ذبحوا الكبش وبقروا بطنه وأخرجوا الكبد وتركوا الخروف للهوام .

ولكن ليس هذه الحالة فقط بل مئات المواشي إما يأخذون الكبد أو قطعًا من اللحم ويتركون الباقي .

والصورة الأخرى:

أنهم يلعبون بثياب النساء الفلكورية التي تدل على تراث القوم ويقلّدون ، ثم يقتلهم الجنود ويشردونهم كأنهم ليسوا من البشر ولا تقاسموا معهم الخبز والماء والحُب والمجاورة منذ مئات السنين إن لم تكن الألوف .

والصورة الأخرى:

إنهم يصفّون الأسرى من القوم أطفالاً وشبابًا وشيبًا ثم يقومون برميهم بالرصاص كأنهم يلعبون في ميدان الرماية ، وهذه الأجساد هي دماهم ، بئس اللعبة وبئس القوم ، وبئس ما يفعلون.

وتذكرت أيضًا : بجوار الأنفال مشهد حديقة فيها ورود وأشجار وأزهار بألوان برّاقة كأنها قوس قزح.

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة فإنها ليست حديقة من الزهور ، بل حديقة من الأطفال والنساء والشباب وكبار السن قد تساقطوا على الأرض كما يتساقط الذباب على نافذة الغرفة وأنت ترش عليه المبيد القاتل ، يالبشاعة الموقف.

ومن ناحية أخرى أناس يُنقلون بسيارات كبيرة مُخصصة لنقل الرمل والحصى من المقالع إلى الشركات ؛ فهذه السيارات تنقل الناس من القرى إلى معسكرات وإلى حفر موجودة في بعض الأماكن كي يردموها بالبشر حتى تكون طرقًا صالحة للسير عليها؛ لأننا نفتقد التراب والحصي والرمل كي نملأ الحفر ما أقسى الإنسان !!

وما أقسى الحكومات عندما يكون على رأس الهرم فرد وهو يقبض على زمام الحكم بقبضة حديدية وفكر طائفي أو قومي.

وأنا جالس في هذه الساحة بأربيل تذكرت الصورة الأخرى لجنوب العراق ؛ ففي سنة (١٩٩١م) خرج أهالي الجنوب في مظاهرات ليطالبوا

الحكومة بالعدالة ورفع السيف عن رقابهم ورقاب علمائهم .. ولسانُ حالهم يقول: ألا يكفي كل هذه السنين ونحن في حروب إما داخلية أو مع دول الجوار ، والظلم الواقع على الناس كبير .

ثم توسّعت هذه المظاهرات وصار لها مطالب بالعدالة الاجتماعية وحرية الرأي والفكر والمعتقد، والكف عن العداء وخوض الحروب داخلية أو خارجية ما بين (١٩٦٣ -١٩٧٦) وحرب إيران من (١٩٨٠-١٩٨٨م) وحرب أكتوبر (١٩٩٠م) ثم الدخول مع أمريكا في معركة توقفت في ظروف غامضة، وإن كان للعمر بقية فإننا بإذن الله سنكتب رواية (الحروف الغامضة).

وكأنَّ الذي حصل في المنطقة الشمالية والجنوبية هو نفس الأمر مع بعض التغيير في الإخراج ولكن في الجنوب بالإضافة إلى قتل الناس والمقابر الجماعية كان التعدي على المقدسات الدينية ، والذنب على الطرفين؛ لأنَّ الذين يقاتلون الحكومة قد اختبأوا في هذه الأماكن المقدسة ...

ومن الصور الأخرى البشعة :

أنهم كانوا يسقون بعض الأسرى وقود السيارات ثم يفكون قيده ويقولون له أنت طليق قد ظهرت براءتك واذهب إلى أطفالك يا ابن الجلدة وشرطهم أن يركض بأقصى سرعة، تخيل رجلا يشرب الوقود حتى يتم إطلاق النار عليه فتنفجر بطنه !!

وهذا مشهد آخر من مشاهد هوليود العراق

والصور والمشاهد كثيرة، والاستمرار في عرضها سيفقد الكتاب رونقه ... وإني تذكرتُ هذه القاعدة :

قاعدة (٢١٧)

الأَقوالُ والأفعالُ والرِّضا والسُّخط يجتمعون ويتفرقون ؛ فالأفعال مع الرّضا نعمة ، والأَقوال مع السُّخْط نقمة .

فإن الحكومات المبنية على الأحزاب والأفكار القومية والطائفية تسمع منها الشعارات الظاهرية فقط، ولكنها تفعل في السر الأهوال وأما المسألة الأخرى من مسائل الصور في بلدي :

عندما رحلت السلطة القديمة وحلّت السلطة الجديدة مكانها بعد عام (٢٠٠٣م)؛ فإن القديمة كانت مبنية على القومية الفارغة ، وهم ليسوا قوميين بل مدعين ، ويحكمون الشعب بالحديد والنار؛ كأنهم قرأوا لميكافيلي ما كتبه عن الحكم، وتأثروا بهذه الكلمات فطبقوها على شعوبهم، والآن أصبح الحكم حصصًا ما بين القومية والطائفية، فكل قوم وكل طائفة استقطعت مساحة من الأرض، وبدأت تنادي بما تريد، وإن كانوا على حق أو على باطل فإننا نريد نقل الصورة الثالثة : الذين فقدوا الحكم ماذا حل بهم ؟

لقد حلَّ بهم ما حل بالقومين في الشمال والجنوب من التشريد والقتل والإبادة الجماعية ، فكأن من في السلطة ينتظرون الحجة ، وكل ما يحدث من عنف في العراق يتهمون به أهلَ الصورة الثالثة.

مثلاً: انفجارُ قبة في إحدى المساجد المقدسة سنة (٢٠٠٦م) بمجرد أن وقع الانفجار .. هذه الحادثة الإجرامية التي نجهل الأيدي التي قامت بها ولكن المتهم الأول هؤلاء .. وفي نفس السنة وقبل أن تنتهي قُتِلَ منهم بقدر ما قتل من إحدى الطائفتين؛ كأن عدد القتلى في كل طائفة يوازي الطائفة الأخرى.

ولنأخذ هذه الصورة مثلاً :

رجلٌ في الستين من عمره في يوم ٢٣ / رمضان مع حفيده في التاسعة من العمر ... مع جار لهم صاحب سيارة أجرة (تاكسي) من طائفة أخرى ليأخذهم لزيارة ابنه السجين.

وبمجرد أن عرفوا أن هذا الرجل ينتمي لتلك الطائفة اعتقل هو وحفيده ووضعا في صندوق إحدى السيارات ، أما سائق السيارة فضربوه كفّين وبصقوا على وجهه ثم أطلقوا سراحه .. وتم اقتياد الرجل والطفل إلى منطقة نائية خارج بغداد ، ومع الغروب قال الرجل العجوز : إني صائم وكان مقيداً .. فبمجرد تلفظه بهذه الكلمة انقضوا عليه وفتحوا فمه .. وسقوه حامض الكبريتيك المركز ، وأثناء مصارعته للموت قطعوا رأسه ووضعوه في تنور عملاق كأن أبناء احد العمالقة القدامى من أرض اليمن كان يعمل هنا خبَّازاً.

أما الطفل فاستطاع أن يتسلل من بين الخرائب لأنهم أهملوه والله أعلم لماذا أهملوه ، وظل الطفل يركض حتى استطاع الوصول إلى أحد البيوت القريبة فحكى لأهل البيت ما جرى فخبئوه لأيام حتى سمحت

الفرصة أن يعيدوا الطفل إلى أهله، وظل هذا الطفل يُعاني من حالة نفسية غريبة .. والصور أكثر ما بين الطائفيين والقوميين والكل يريد أن يحقق المكاسب لنفسه بالعنف.

يا حسرتي على بلدي التي تسودها الدكتاتورية والاستبداد والطائفية والقومية والعنف العرقي والأمراض النفسية التي لا تهدأ إلا بالدم ..

والحديث يطول ...

لبستُ خاتمي الجديد في يدي الشمال، وخاتم سيد طالب في يدي اليمين ، فحركته من أُصبعي ثم قبلتُ الخاتم وتذكرت القاعدة:

قاعدة (١٢٨)

مُوَافَقَتُكَ للأوامِرِ دُونَ تَضجر حُب ،

وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ أَنْ تُسْقِطَ نَفْسَكَ من جَبَلٍ عَالٍ .

وأنا متوجه إلى البيت .. تذكرتُ الطوائف الصغيرة والأقليات التي اضمحلت وليس لهم أي ذكر في بلادنا رغم أنهم يعيشون بيننا وتاريخهم عريق في هذه البلد...

ألا لعنةُ الله على الظالمين ..

الجلسـة

يقول رفيق:

بعد إتمام صلاة الظهر عُدتُ إلى دار الضيافة، وأنا في طريق العودة شعرت بصرخات داخلية من أعماقي ، فتذكرت القاعدة التي سمعتها عندما كنت أجلس في ساحة مسجد الشيخ محي الدين:

قاعدة (٢١٩)

الصَيْحَةُ فَيْضُ المتُوَاجِد، وعَلاَمَتُها النَّفْيُ والإثْبات ،
إن أَتَتْكَ .. فَالنَّاسَ فاهْجُرْ ، أَو تَحمل الأَذى ..

وقلتُ في نفسي بعد إتمام الغداء ، سأعود بعد صلاة العصر للدرس لأنه سيتعلق بالأخلاق وتربية النفس ، وبعد الغداء ونحن في بيت الحاج محبوب جلسنا .. الكل حول باحة .. الرجال في جهة ، والنساء في جهة ؛ فكنتُ أنا والحاج محبوب وصديق له يدعى درويش محمد ، والحاج رضوان ، والحاج صبحي ، وابن الحاج محبوب واسمهُ أحمد ، ومن الجانب الآخر زوجة الحاج محبوب ، وزوجات الحضور ، وماريا ، وبعض النساء لم أعرف أسماءهن.

فبدأ الحديث عن التصوف فقال أحمد ابن الحاج محبوب : إن أهل التصوف هم أهلُ البدع والخُرافة ، قد شَوّهوا الدين .. وعندما أراهم أرى أناسا لا يحملون العلم ولا الفهم وكل ما يفعلونه هو الضرب على الدفوف والرقص والأعلام فأين هذا من السُّنة؟

فأجاب درويش محمد : يا بني هدِّأ من روعك .. واسمع بإذن مُنصفة وعقل متفتح ؛ فالتصوف هو :

قاعدة (٢٢٠)

عِلْمُ تَطْبِيقِ الْأَخْلاَقِ الْحَمِيدَةِ ، وَالتَّخَلُّصُ مَنِ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ .

فقال الحاج رضوان : أليس من الصوف ؟؟

فقال الحاج محبوب : أظن أنهم يُنسبون إلى أهل الصُّفّة الذين كانوا يجلسون في مسجد سيدنا رسول الله من فقراء الصحابة .. فقال الحاج صبحي وكان يميل إلى أهل التصوف : إنه من الصفاء والنقاء والطهر

والتزكية والبحث عن الحقيقة وأن تكون إنسانا مُتخلقاً بسنّة النبي بالحرف.

فقال أحمد : إنكم تقولون كلاماً ليس له أصل في الحقيقة.

فقالت ماريا من الجانب الآخر من الباحة .. وكان يوجد ستار بين جلسة الرجال وجلسة النساء ..

قالت : من يذهب منكم إلى الشيخ عبد الرحمن الطويل ، سيرى الأخلاق المحمدية مطبقةً في مدرسته ، و الكل يحفظون القرآن والحديث ويعملون به ويبحثون عن أقوال الأئمة الأطهار والصحابة الأَخيار والتابعين الذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإحسان ..

يقول الشيخ عبد الرحمن :

قاعدة (٢٢١)

التَصوفُ تَنقيةُ السِّر من المُتُعلّقَات الدَنيئة بتزكيتِهَا ، وحفظ الأَخلاق من الأعْلاق .

ويقــول :

قاعدة (٢٢٢)

الْمُتَصَوِّفُ يَقْتَدِي بِالْأَثَرِ، ويُطَبِّقُ حَسْبَ طَاقَتِهِ الْقَوْلَ وَالفِعل، وَيَبْحَثُ عَنِ الدَّقائِقِ لِنَيلَ الحَقَائق .

فقال أحمد : إذا كان هذا هو التصوف ؛ فوالله سأخدمُ هذا الشيخ وأنا أول المتصوفين.

وهنا تكلم الحاج محبوب قائلاً : سمعتُ رجلاً من المتصوفة في السُّوق يوماً وكان غريباً ليس من أهل هذه البلدة ، كأنه من الشام أو العراق ، وكان رجلاً طويلاً ذو عمامة خضراء ولحيته كثة جميلة عليها أثر الحناء ، بيده عصا مزخرفة للوهلة الأولى تظن أنها قديمة ثم إذا تمعنتَ وَجدْتَها زَخْرفَة ، أبيض الوجه ، أقنى الأنف مقرون الحاجبين ، مستطيل الوجه كبير الرأس ، وكان يتحدث إلى جماعة في السوق قريبًا من محل ، يتكلمون عن الأخلاق والآداب ، وأن هذا الدين كله أخلاق وقال:

قاعدة (٢٢٣)

السَّيْرُ في البيْدَاء طريقهُ الأثر ، فإنْ تاهوا بليلٍ فبالنجم يهتدوا ،

والنبيُّ طريقهُ الأثر ، وهو نجمنا للهداية .

وقـــال :

قاعدة (٢٢٤)

العُرَفَاءُ منازِلُهُم قلوبهُم ، أينما حلّوا أحلوا الرَّكْبَ ، يُضيّقونَ على أنفسهم ، ويوسعون على أحبائهم بالشَّرْعِ والاجتهاد ،

وبالعِشْقِ يؤنسونَ ضيْفَهُم .

فقلــتُ : هؤلاء القوم يحذرون كل الحذر من البدعة حتى أنهم لا يحفظون الشعر ولا ينظمونه خوفاً من كلمة الغواية ويقولون :

قاعدة (٢٢٥)

حفظُ الأدَبِ ليس مِنَ الأدَب،

بل النَّظَرُ والتخلُّقُ بالنَّظر إلى صاحب القبّة الخضراء غايةُ الإِرَب .

ثم سألتْ إحدى النساء فقالت / بعض الكلمات تتردد على لسان القوم مثل : الوجد والتواجد فما المقصود بهما ؟

فأجاب الدرويش محمد قائلاً :

قاعدة (٢٢٦)

الوَجْدُ دَوَامُ الحُضُور حتى السُّرُور .

والتواجـــد:-

قاعدة (٢٢٧)

الوُصولُ في الوَقْتِ، وَالخَوْفُ مِنَ المَقْتِ،

وَحُسْنُ بَاطنٍ عَلى ظَاهر دون سَقْط .

فسأل الحاج رضوان : يا درويش محمد أنهم يقولون :

الغيبة والدخول في الغيبوبة والفقدان وما يحدث من هذه الأمور؟

فقال (٢٢٨)

كالوجوه النَّاظِرَة ، معانيها كثيرة ، فَفَقَدتْ حاضِرهُ ، وغابَ عن ناضِرهِ ، كلُّ شيءٍ إلاَّ خاطِرهُ .

ثم انتهى مجلسُنا على خير وافترقنا .. وذهبتُ إلى غرفتي وأنا أسير وأسمع صوت النساء يتحدثون بينهم ويُتمتمون حتى دخلت الغرفة وأغلقت الباب وقلتُ : أضطجع قليلا ثم فكرتُ أن أُخرج الإطار وكنتُ مُترددا بين الإخراج وعدمه ولكن حب الفضول جعلني متواصلا مع الفصول ؛ فأخرجتُ الإطارَ وعلقتهُ على الجدار ونظرتُ فيه .. والاّ نفس الزَّوبعة بدأت من بعيد تدور حتى خرجت من الإطار وأحاطت بي، وأحاطت بي ، وإذا بي على نفس السفينة والكل يُناديني : يا كابتن كأنني أسير في الممر لأصعد إلى سطح السفينة ثم سمعتُ من أحدهم قال : صباح الخير يا كابتن أيها المختار ، وأنا أعرف أني كنت ما بين الظهر والعصر !! ولما صعدتُ إلى سطح السفينة كانت سفينةً عظيمة كبيرة واسعة فيها خلق كثير يعملون ، ما أعظمها من سفينة .. لو أردتُ الوصول من موضعي القريب من موضع السلم إلى نهاية السفينة أحتاج إلى نصف ساعة .. ومن السلم إلى مقدمة السفينة أحتاج إلى (١٠ دقائق) .. عُرْض السفينة كأنه بطول سوق الحميدية وصولاً إلى الجامع الأموي بل أطول من ذلك لأنني لا أستطيع رؤية السطح مستوياً ما بين أعمدة متصاعدة وصناديق كبيرة بحجم المنازل قد صُفّت جنبًا إلى جنب على أشكال عدة ، وفي وسط السفينة كأننا شيدنا بناءاً أستطيع أن أقول بالمساحة أنه ضعف مساحة المسجد الأموي وهو طبق على طبق ، وفي كل زاوية ركن واستطالة وجنب كأنها شُرْفَةُ منزل؛ فإذا رفعتَ رأسك وكنت بعمامة فستسقط من رأسك لشدة الارتفاع ! ما هذا البناء العجيب ؟ ما هذا الذي أنا فيه، وعندما خرجت من غرفتي مُتجها إلى السطح كانت الممرات عريضة، والمسافة من غرفتي إلى سلم الصعود كالمسافة بين الصفا والمروة.

وأستطيع أن أشبه البناء وسط السفينة بارتفاع جبل عَرَفة .. وإذا نَظَر الناظر من جانب السفينة إلى البحر فالمسافة كرمية قوس .. وإذا أردت النزول فالأدوار كأنها لا تنتهي .

وفي داخل السفينة مصنع لتصنيع المعدات الحربية وليس السيوف والخناجر، ولا البنادق المشهورة في زمني كالبندقية (البرنو) وغيرها

المصنع الأول كانوا يُصنعون أقراصًا ، والقُرص بقَدْر الكف ، وسُمْكه بقدر الأصبع ، وفي وسط القرص كالعين، وجوانب القرص مضغوطة كالخاصرة ولها من إحدى الجوانب رأس مدبب، وإني شاهدتُ أحد الطباخين يصطاد بهذا القرص سَمَكا ، فقال لي : شاهد يا سيدي كيف نصطاد السمك؟

ثم أمسك القرص بيده اليمين، وَقّرب القُرصَ من فمه وقال : نريدُ سمكة وزنها (١٠كغم) ولما سألتُ عن هذا القرص قالوا إن هذا القرص هو لاختراق الدروع البشرية في الحروب.

ثم دخلتُ مصنعا للأدوات المنزلية ..

والغريب أنهم يصنعون الملاعق والأقداح والصحون، ويصنعون شيئًا آخر يشبه الملعقة ليس بملعقة؛ لأنها مسطحة ومدببة وقالوا : هذه قنبلة ترميها باليد فتذهب إلى مسافات بعيدة وسمعتُ أحد الخبراء يقول إنها تذهب أكثر من (٣٠٠٠متر).

وهذه المصانع كانت في طابقي .. طابق غُرف القيادة .. والمطبخ الكبير .. وصالة الضيوف .. وصالة الألعاب وكوني رئيس هذه السفينة وهي ليست سفينة بل مدينة تَسير وَسط البَحْر؛ فاتجهتُ بخطوات ثقيلة نحو غرفة الألعاب وإذا ببعض الخدم يتقدمون ويفتحون باب الغرفة / وهنا العجب العجاب .. غرفة جدرناها مرايا ، سقفها يُضيء بمجرد دخول المكان / أرضها من الرخام الممرَّد ؛ كأن الماء يجري من تحتها ، مرسومٌ على الأرض مواضع الأقدام وعلى الأعمدة وجوانب الغرفة مواضع الأيدي ؛ فجربتهُ بوضع الكف في مكان الكف؛ فإن المكان يتغير كالمقبض ، ومقبض آخر بارتفاع وانخفاض في الأرض كأنك تصعد السُّلم وتنزل من آخر !!

ما هذا الأمر والغرابة .. إنها تزداد بثقل وخفة الصوت .. كما يقول الخادم: يا سيدي خفف وَزِد وَزْنًا بالكلام ؛ فأصابني الرعب وخرجتُ من الغرفة وأنا في غاية الحيرة ... ما الذي حدث ؟!!

وعند خروجي من الغرفة وجدت على الجانب الشمال مكتوبا على الغرفة

(المَشْروبات) ..

وعندما دخلت وجدت امرأة محجبة عليها علامات الصلاح فسلمتُ عليها فردت السلام وقالت : تفضل يا سيدي

فقلـتُ : ماذا لديكم من مشروبات ؟
قالـت : إني أُعِدُّ أنواع الأشربة لمن في السفينة فقلتُ لها : اسقني .
قالـت : باردٌ أم حار
قلــتُ : حار .. قالت : لاذع أم حرّيف ؟
فطلبتُ حرّيفًا .. وكان معي المعاون وقال إن الغرفة مخصصة لكل أنواع الأشربة وكان اسمهُ الشيخ أسامة .. وإذا بالفتاة تلتقط شيئا من على الطَّاولة ، وبدأت تكتب وأثناء الكِتَابة انفتحت المنضدة إلى الأمام وإذا بقدح زجاجي رقيق جداً ، وكأنه معلق بالهواء تخرج من فوهته الأبخرة دليل أنه ساخن ..
فقالت : تفضل يا سيدي .. فتناولت القدح فوجدته بارداً .. ولما تذوقته كأني أشرب شراباً من العَسَل والقُرنفل مَمْزوجا بطريقة تكاد تَذهَبُ بالعقل .. وما إن شربت من القدح إلا ووجدت نفسي أمام الإطار .. وهذه المرة لم يحدث لي كما حدث في المرة السابقة ..
وهنا سمعتُ أذان العصر فقلتُ في نفسي أذهب إلى الصلاة ثم بعدها إلى مدرسة الأنوار المُحمدية وعندما وصلتُ إلى المدرسة كان الشيخ قد عقد درسه في المدرسة .
وهو يقول :

قاعدة (٢٢٩)

الظُّلُمَاتُ انجلَت، والأنوار اِنْبَرَتْ،
لَا شُهُودَ إلا الجَذْبُ لِلْمَشْهُود.

وقـال : هذه قاعدة في الأخلاق والسلوك؛ فالعبدُ ينتقلُ من ظلمة إلى نور وهكذا حتى يستقر، والظلمة في الحسيات أقوى من الضوء، وفي المعنويات النور أقوى من الظلمة، الأول الضوء من الظلمة، والثاني النور يَعدِمُ الظُّلمة.

قاعدة (٢٣٠)

مَنْ اِمْتَلَأَ كَأْسُهُ نَالَ الحُضورَ وَقَدْ اُخْتِيرَ ،
وفَاضَ منْ فَيْضِهِ حتى الجَذْب؛ فكَان فى الشُّهُود بأن يَرَى الحَقيقة .

وقـــال :

قاعدة (٢٣١)

غِيَابُ الأعْلامُ وترْك الأنَام والحُصُولُ على الوسام درَجُ السَّالكين للنَّجَاةِ من مَدْرَجِ الهَالكين .

وقـــال :

قاعدة (٢٣٢)

من تساوت سرائرهُ والعَلَن، وتساوى عِندهُ التبْرُ والتُّراب غاب عنهُ الأعلام وما تعلَّقَ بالدُّنيا وتَرَكَ الأنَام .

والمعنى : أن الناس نيام فاذا مَاتوا انتبهوا ؛ فالقُشوشُ تجعل على العين الظلمة، فانتبهوا وغَيِّبوا معالم الأعْلام حتى تكونوا على أول الطريق.

فقام رجل وقال : يا شيخنا ما الجمع ؟؟

فقال الشيخ : سألتَ عن عظيم فإِنَّ الأَمر كُلَّهُ جَمْع ،

واسمعوا هذه القاعدة:

قاعدة (٢٣٣)

الكُرْهُ والحُبُّ ولاَ حُبَّ إلاَّ للواحد الأحد، فَرّقْتَ حتى هَلكت، وَجَمَعْتَ حتى سلكْت .

فقال الرجل : يا شيخ لم نفهم شيئًا !!

فقــال: اسمع: إن أمر الدين النَّصيحة، والنصيحة قَعْرُها الحب، وسَنَامُهَا الحب، وما بينهما عشْق ينتقلُ بين طرفي الرحى كي يسحق الكُرهَ ، ويُخْرجَ حبًا كي نصل إلى القلب السليم ؛ فمن كان حبهُ لله فقد نال التوحيد ، ونزع من قلبه الشرك وحَسُنَ في المناجاة ، وتذوق طعم الدُّعَاء ، ومن فرق هذا الحب ما بين قبر أو رجل يريد رزقا أو عِلْما فقد تشتت وهَلَكَ ، ومن جَمَعَ هذا الحب لله كان في طريقه فسلك فَنَجَا .. آهٍ من غَبْرَة .. وآهٍ من سَمْرة .. إنها لحظةُ أبجد في سِرِّهَا المُنَجَد ، ما كَانَ القافُ من سِرِّ قَرَشَت إلاّ وحَلَّ تمامُ الكلام...

الآغا

طرقتُ الباب في الموعد فخرج السيد وقال : أهلا بك يا (چرة) اسم جديد من تسعين إلى چرة.

قـــال: سنذهبُ اليوم إلى سوق الأدوات القريب من ساحة الشاعر معروف الرصافي ؛ ففي وسط الساحة نصب تذكاري من البرونز للشاعر المذكور، وحول الساحة من جانبي الطريق أناس يعملون في تركيب الزجاج والأقفال وأدوات الأبواب والشبابيك ويبيعون الأدوات الصحية، وعند وصولنا إلى الساحة قال السيد : سنذهبُ إلى صاحب الفرن ، ألم تسمع بخبز (باب الآغا).

فقلـتُ : لا يا سيدي ...

فقال السيد : هو الخبز الحار والمكسّب والرَّخيص .. والمعنى أنه خبز طيب ولذيذ وساخن كأنَّهُ قطعة حلوى وفي طريقنا إلى صاحب الفرن قال اكتبُ هذه القاعدة:

قاعدة (٢٣٤)

وَصيةُ الحَقِّ ميزانُ الصِّراطِ،

مَن التَزَمَ بِهَا مَا غَابَ أُنْسُهُ، وَلاَ نَالَ أبْسُه .

وكان السيد في ذلك اليوم يسير بفرح وسعادة وفي يده مَسْبحة من (النارجيل) وهذه أول مرة أرى في يده شيئًا؛ لأنه لا يحمل أي شيء لا مسبحة ولا كتابا ولا يلبس خاتمًا ولا يحمل في جيوبه أي شيء، حتى أننا مررنا بأوقات حرجة في الشارع حيث يسأل رجال الأمن عن البطاقة الشخصية وهو يستهزأ بهم ويقول تسبيحته الدائمة:

"يا دائم الفضل على البرية " وهي تسبيحة أهل العشق المشهورة بعد الفراغ من الفروض .. وفي السير ومحو القروض ..

وصلنا إلى فُرن الآغا .. وصاحب الفرن رجل طويل أصلع ضخم كأنه أمرد وليس بالأمرد .. ليس له شارب ولا ذقن .. خفيف الحواجب والرموش .. وإذا نظرتَ إلى عينيه ترى احمراراً شديداً .. وصوته كأنه رجل يتكلم في فراغ له صَدَى ..

فسلَّم عليه السيد طالب :

فرد السلام بابتسامة وصوت : والسلام عليكم .. يا أهلاً بالسيد .. والله إني في اشتياق إلى هذه الزيارة وهذه الإطلالة.

فقــال له : ما العبارة ؟

قـــال: إشارة وإشارة ..

والسير ؟

قـــال

قاعدة (٢٣٥)

السَيْرُ لا انقِطَاع ، وَالطَّرِيقُ مُعبَّدة،

وإننا ما بَيْنَ المَفَارِقِ وَالطَوارِقِ ننتظر .

فلم أفهم شيئًا حتى قال له الآغا :

قاعدة (٢٣٦)

الرِّضَا غِنَى،

والسُّخْطُ سَقْطٌ فِي غَيَاهِبِ الجَهْل .

فرَّد عليه السيد :-

قاعدة (٢٣٧)

السُّخْطُ مَنْقَصَةُ المِيَزان، والرِّضَا مغْفِرَةٌ واتزان ..

فقـــال الآغــا :

قاعدة (٢٣٨)

مَنْ دَامَ اعْتِرَاضُهُ حَارَبَ اللهَ ؛ فَشُهِدَ خُذْلانَهُ قَبْلَ قِيَامَتِه ..

فقال السيد :

قاعدة (٢٣٩)

المُعْتَرِضُ فِي القَعْرِ يَعْتَرِضُ وَخُذْلانُهُ جَدَل فِي غَلَيَانَه .

ثم اتجهنا إلى الجانب الآخر من الفرن وكان مهيئًا بمجلس ؛ فجلسنا ونظر إليَّ الآغا وقال : يا غلام أنت من الكُتَّاب أم من الكتاتيب ؟؟

فقلـتُ له : الاثنين معًا يا سيدي ..

فقـــال : لكَ البركة ..
ثم قال للسيد طالب : هل أدخلتُهُ للخدمة؟
فأجابهُ السيد طالب : ينالُها في الحين ..
ولا يقصد الآن بل قصد الزمن المجهول فإنها إشارة .. وتذكرتُ عندما كُنّا يوماً عند السيد حسن في سوق الدهانة كان يقـول:

قاعدة (٢٤٠)

الوَقْتُ لا وَقْت، والحينُ حين، وحينُ الزَّمانِ أمْرٌ وكَلاَم .

فالإشارات كثيرة في هذا العلم .. والجهل أكثر .. والذي لا يفهمُ الإشارة يتهم القوم بكثير من الكلام البذيء فهو وعائهم وديدنهم في السير في طريق الجهل والظلم ثم قال الآغا للسيد طالب : اجعل الحينَ الوقت ودعهُ من غد .. فنظر إليَّ السيد طالب وقال : افرح إنكَ ستسمعُ الحكاية الى آخرها .. إنهُ السرور والبشرى .
حقا إني كنت أشتعل فُضُولاً وأغلي كالماء وأنتظر متى أسمع هذه النهاية...
ثم بدءا بالحديث فقال الآغا للسيد : أتعلمُ أن ميزان الرجل الصالح فى هذه القاعدة ؟
فقال السيد وما هي ؟

قـــال :

قاعدة (٢٤١)

لا تُفْتِ لنَفْسكَ وَلَا تُحَقّر ذَنْبَكَ ،
وَلَا تَقْلِبْ مِيزَانَ الْحَقّ بِأَن تستعظم ذَنْبَ غَيرِكَ وتُهَولَ أَمْرَهُ .

فقال السيد : نعم .. واسمع هذه :

قاعدة (٢٤٢)

مَنْ يُفْتي إن أَصَابَ أَخْطَأَ لَيْسَ فى الْمَسْأَلَةَ
بَلْ إنه دَخَلَ سَاحَةَ الْخطَرِ .

فقال الآغا : الله الله .. ما أعْظَمَ هذا الكَلام إنه في غاية الدقة .. نعم إنهُ من تَصّدى فقد ذُبِحَ بغير سكين ..

ثم سأل الآغا عن القاعدة : أن ما حصل مفعولا بإذن الشرع كان كأنهُ حصل مفعولاً بإذنِ من له الولاية من بني آدم ..
فقال السيد طالب : نعم وبعضهم اشترط قيدَ السلامة في المسألة كالصيد هو مأذون ومباح بشرط أن تكون إصابةُ الرَّامي في دائرة السلامة ؛ فإن أخطأ وأصاب إنسانا هل يضمن أو لا ؟ خلاف .
ثم قال السيد : ومن هذه المسائل : المسجد .. لو أردنا أن نشتري له قنديلا أو حصيرا فهنا ننظر إذا كان الشراء من أهل المسجد أو من رجل غريب فالمسألة تتفرق تختلف .. في الحالة الأولى والثانية هي بأمر الشرع أي بالتوكيل وهو أمر شرعا : فإذا ما تولد منه الهلاك فالمسألة فيها خلاف بين الضمان وعدم الضمان ، وهي مسألة اعتبارية تعود إلى قانون العدالة هل كان إهمالاً أولا ؟ .. وهل من أوكل إليه الأمر كان غنيًا أو فقيراً أو صاحب تجارة أو عاملا، فكل هذه الحالات تدخل تحت قاعدة العدل والعدالة وفي المسألة ميزان قيمة الإنسان أن لا تتأثر ..
فقال الآغا : عظيمٌ أيها السيد إنه كلام بديع .. يجب أن تكون مسائل الفقه تحت باب العدالة .. وليس ككلام الفقهاء ..
والصورة الأخرى : إذا تولد عليه الهلاك كرجل سقَط عليه القنديل أو الجدار أو دخل عود حصير في رِجْله . أو إن الرجل إذا قعد في المسجد غير منتظر للصلاة فعثر به إنسان فتلف ، هل يضمن أو لا ؟ كذلك خلاف ومن المسائل أيضا :
إذا كسرَ رجلٌ المعازف والملاهي أي آلة ذلك ، فهو مفعولٌ بإذن الشرع ، فصار كأنه مفعولاً بإذن من له الولاية وفيه خلاف في الضمان .. وشرط السلامة قيد ..
وكذلك من الصور :
القصاص لو وجب على رجل في نفسه ؛ فقَطَعَ الوليُّ يدَ القاتل ثم عَفَا عن القصاص فهل يضمن أولا ؟ خلاف
فالقاتل القِصاص عليه ككل والجزء تحت الكل وهكذا في باقي الصور والمسائل، والسلامة ليست شرطًا ، والخلاف قائم .. والخلافات الفقهية رحمة للتيسير على الأمة وأما الخلافات العقائدية فهي دمار الأمة وهي الطامة الكبرى ..

وبعد هذه المناقشات شربنا الشاي وسلمنا على الآغا وخَرجنا .. وقال السيد : سنذهبُ إلى جهة الكرخ فخرجنا من منطقة (الحيدر خانة) متجهين إلى ساحة الرصافي ، وثم قطعنا الجسر فوصلنا جانب الكرخ ..

فقال : سنتجهُ مشيًا إلى شارع حيفا وكانت بنايات عالية ؛ فدخلنا مدخلا وانحرفا شمالاً ثم يمينًا وإذا بنا أمام بيت كعبة البهائية ؛ فجلسنا على مقربة من هذا البيت المربع الشكل ذو النخلة العالية في وسطه .

فقال السيد : أتذكر لمَّا مررنا من هنا منذ فترة من الزمن ؟؟

ثم قال : ما معنى الفترة ؟

قلتُ : هي مدة من الزمن .

فقال السيد : الفترة هي الزمن بين زمنين .. أو بمعنى أوضح انقطاع واتصال كما قال تعالى (عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ)

ثم قال السيد : إن صاحب هذا البيت هو علي محمد رضا شيرازي ، ولكن محمد رضا شيرازي يقولون ليس أباه بل عمهُ ويقولون : بل عمه (الميرزا علي) تاجر من تجار شيراز ، له بنت واحدة ويقولون : إنه غريب عن الميرزا التاجر، والحقيقة أنه لما كان في سن الفتوة اشتغل عند الميرزا وكان ذكيًّا حاد الفكر، فقَّربه الميرزا منه واهتم به وأرسله إلي العراق في تجارة حتى دخل النجف ودرس في حوزتها ثم درس في بغداد وبدأ بالتنقل ما بين شيراز وبغداد والنجف ، وقد زوجه الميرزا التاجر بنتهُ الوحيدة..

وفي سنة ١٨٤٤م أعلن علي محمد رضا شيرازي الديانة الجديدة وسمَّى نفسه البابَ فسألتُ السيد : وما معنى الباب ؟

فقال لي : أي أنه باب الله .. وبعد فترة ادعي القُدسيّة ، ويقولون : الألوهية .. والإشاعات حول هؤلاء كثير .. منها ما هو صحيح ومنها ما هو كاذب ؛ لأنهم كانوا ضد السلطة الحاكمة ، وقد تكون السلطة هي التي ألفت وأرخّت لهم .

وهل تعرف يا بني .. وكانت كلمة جميلة على قلبي من شيخي وأستاذي : إن التاريخ يكتبهُ المُنتصر .

فانتقلتُ بفكري وأنا أملي هذه الكلمات على ابني المُقرَّب مِنّي حسن باوزير وأقول له اكتب :

في الزمن السابق كانت السلطة تؤلف الحكايات على من بالسلطة الآن، ومن بالسلطة الآن يُؤلفون الحكايات على السلطة السابقة، كأنَّ الزمن يعيد تلك الصورة (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) .

والبهائية ينقسمون إلى الشيخية والبابية فمنهم من يقول إنهم من الشيعة ومنهم من يقول إنهم ديانة جديدة .

وهذه الطائفة مؤلفاتهم قليلة ، عُلمائهم في المنفى .. وفي دول لا نعلم عنهم شيئًا، ولو كان لهم عقول لقاموا بتأسيس مراكز للإعلام ونشر الكتب وتحدثوا كما تتحدث ألسنة السنة والشيعة والزيدية والإباضية والظاهرية .. والأديان الأخرى فنحن نشاهد قنوات للمسيحيين ، وقنوات لنشر الإنجيل ، وقنوات لليهود ، وقنوات للبوذيين ، وقنوات لعبدة الكواكب والحيوانات ، وعبدة الهَنُ وغيرهم ..

ثم فجأة نَصَّبَ علي محمد رضا الشيرازي نفسه بعدة مناصب مخيفة في المعنى ، وكانت لهم تأويلاتهم في الظاهر من هذا الكلام ، والسلطة في إيران قد أعدمت الباب سنة (١٨٥٠م) .

وقبل إعدام الباب كان يقول : سيظهر رجل مهم يقود هذا الجمع .. وفي نفس الفترة كان بهاء الله في السجون الإيرانية ثم نُفي إلى العراق وأسس ديانته الجديدة هناك ، ثم تولى بعده ابنه عبد البهاء ، وفي زمن عبد البهاء انتشرت هذه الديانة في أوروبا وبريطانيا وأمريكا وإيران وتركيا وأفريقيا ، ويقولون : إن بريطانيا كانت حليفة للبهائية تدعمهُم وتؤيدهُم .

ثم وصَّى **عبدُ البهاء** قبل وفاته بأن تكون القيادة من بعده **لشوقي أفندي ربّاني** وتولى فعلاً عام ١٩٢١م وشوقي أفندي قام بدوره بتأسيس بيت العدل الأعظم .. وشوقي توفي قبل أيام عام (١٩٥٧م) وهو الذي سَنَّ القوانين ونظم هذه الحركة أو الديانة .

قال السيد : هل فهمتَ أنهم قتلوا صاحِبَهُ وأعدموه .. وهذا البيت الصغير ذو النخلة كعبة لهم يطوفون هنا وينذرون ويأخذون البركات .

أتعرف ما هو الكنز (كنز علاء الدين) الذي حدثتك عنه ؟؟

قلـتُ : ما هو يا سيدي ؟

قــال: تحت الشجرة ، سمعتُ من رجل مسن من البهائية في هذه المنطقة عندما داهمت الحكومة البيت واعتقلت من فيه وأغلقت البيت ، ومنذ ذلك الوقت دفنوا تحت الشجرة صندوقا فيه جميع الكتب

والمخطوطات التي تمتد إلى الديانة .. والعهدة على الراوي .. هل فهمت يا تسعين ؟

فقلتُ في نفسي : عُدنا إلى هذه الكلمة ..

قــال : اكتب :

قاعدة (٢٤٣)

مَنْ لم يَسْتُرْ عَيْبَ المُضْطَر بَانَت عَوْراتُ بَيْته ..

وقـــال :

لا تكُن سيفَ الله حَاملَ لواء الظُّلم فإِنَّكَ ستُقْتَلُ به ..

وقال تحسين يا بني :

قاعدة (٢٤٤)

إن رفقَتَنَا رِفْقَةُ تَربية ،

وَهذه نوع من السياحة لكي تعرفَ السَّاحة .

وقـــال

قاعدة (٢٤٥)

حَقِّر الدُّنيا بأَن لا تَهْواهَا، إِن أَقْبَلَت لاَ تَفْرَحْ،

وإن أَدْبَرَت لا تَحْزن ، فإِنَّكَ تصـفو ويصـفو فُـؤادُك ..

فبدأنا نسيرُ كأننا نعود؛ فقلتُ يا سيد: ألا تُكمل لي الحكاية عن هذه السفينة العجيبة التي لا أستطيع أن أتخيل شكلها أو ما فيها من أمور لا تتصور ؟

فقال : إن شاء الله غداً سنُبحر مع من يبحرون .. وبدأنا نسير وهو يتلو قوله تعالى : "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا" ويكررها فلمّا وصلنا منتصف الطريق افترقنا .. وكان للسيد وقت خاص في السياحة لوحده والله أعلم ماذا كان يفعل .. وبمن يلتقي .. ومن يربي ..

البَــرْق

اتجهتُ بعد العصر إلى **مدرسة الأنوار المحمدية** ، وشكلنا حلقة في وسط باحة المدرسة ، ثم دخل علينا الشيخ وجلس على أريكته وسَلّم علينا كأننا خَليةُ نحل في رد السلام وكان لسلامنا أزيز ..

فقال الشيخ : وللكلام صلة .. الدرس موصول بدرس البارحة ؛ فقاعدتنا الأولى اليوم في الفائدة من الصحبة ورقي الدرجات فإنَّ الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم كانوا رجالاً من التجار والنّجارين والحدادين والباعة والفقراء والمعدومين ومن كبار القوم فهم مجتمع كباقي المجتمعات ، لكنهم بالاقتران والصحبة ارتقوا ووصلوا واتصلوا واتصفوا بمكارم الأخلاق ، وتمثلوا أخلاق النبوة **(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)** ، فتحولوا من المجتمع المتناحر العصبي القبلي (وأد البنات وشرب الخمور والسرقة والزنا والربا والظلم والقسوة وكل آفات المجتمع الجاهلي) إلى مجتمع نقي زكي طاهر فيه الحب والإخاء والتعاون والبناء ؛ فبنوا مجتمعاً مترابطاً مترامياً أعظم من المدينة الخيالية لأفلاطون (المدنية الفاضلة) ، إنه مجتمع طبق قاعدة "أفشوا السلام" فنقول :

<u>قاعدة (٣٤٦)</u>

نَالُوا بالصُّحْبَة، فننال بالصُّحبة بإتباع النبي والآل والصَّحْبِ مَنْ زَمانٍ إِلَى زَمانٍ فِي بَطْنِ زَمَان، فَمَن صَحِبَ وَصَل، وبَالعِلْمِ والعَمَل اتصل يَسْمو من دَأَمَاء إلى دَأَمَاء ..

فالصحبةُ شرط مهم في اتساع المعرفة والوصول إلى الحقائق ؛ لأن الحقائق فوقها أعلام وهذه الأعلام لها شواخص والشواخص تحتاج إلي تشخيص ، والتشخيص من العارف بأصول الطريق لتوضيح معاني الإتباع ، فمن تربى تحت يد المربي فله شروط .. وشروطه : أن يكون في ميزان الجرح والتعديل من الأكفاء ليس عيه طعن ، وإن كان من أهل الحال والشطح ؛ فهذه الإشارات تُفسَّر .. وبعد الجرح والتعديل يجب أن يكون من أهل العلم .. قد درس وأخذ الإجازات العلمية من العلماء

العاملين ، وليس علماء اللفظ وتقليم الأظافر .. ويدورون ما بين أحكام الغُسْل والتيمم !! ومن علامات المربي هذه القاعدة :

قاعدة (٢٤٧)

قَوْلُ الصِّدْقِ والتَّصَدُّقُ من حَلاَل،
والصَّبْرُ مَعَ الدُّعَاء لاَ للزِّينَة وَالهَوى يميل .

فإنه لا يقول إلا الصدق وفي الصدق يكمُن الإخلاص .. كـ (لا) الناهية في مضمونها (الأمر) .

وما أوسع البطون هذه الأيام تحوي وتأوي كل أمر مريب ولا تتورع من طعام ولا شراب من أين .. فالمربي بعد صدقة الحاوي على الإخلاص له جمال الصبر في إلحاحه في الدعاء ، ولا يبحث عن زينة من الجمهرة حول ردائه .

وقد سَجَن هَوأه بين جدران الحق حتى لا يتطاول ، واسمعوا هذه القاعدة :

قاعدة (٢٤٨)

لا تُطعْ غَافلاً، واتبع الطريقَ بالانكِسار،
واسأل أَهْلَ الانتِظَارِ فَتَهْتَدي

وقـال :

قاعدة (٢٤٩)

المُعلِّم مُسَلِّم، من يدٍ إلى يد، وَالعِلْمُ بهذه الطَّريقة أسْلَم .

فسأل أحدهُم وقال : يا شيخ .. ذكرتَ قبل قليل الشَّطْح فما معناه ؟

فقال الشيـخ :

قاعدة (٢٥٠)

الشَّطْحُ قُوةُ غَلَبَةٍ كَامْتِلاءِ الإناء ، مَا إنْ امتلأ إلاّ وَفَاضَ
فالفرق بين مقامات الخاصة وضرورات العامة ؛ فالوَجْدُ رمز التمكين .

فقال آخر : يا شيخ لم نفهم شيئًا .

فقال الشيخ : اسمعوا وانتبهوا : الشطح كالشيء الذي طاح دون سيطرة .. كذلك قوة الغلبة فإن الإنسان الذاكر والمتحقق من الاسم لا

اللفظ يحدثُ لديه امتلاء كامتلأ الكأس؛ فيتكلم بكلام في اللاّوعي وليس في الوعي ، فكلام الوعي منمّق مدروس، وكلام اللاّوعي رمز وإشارة وتعريض كقوله صلى الله عليه وآله وسلم عندما سأله السائل في الطريق (من أين) قال : (من ماء) ففهم السائل أنهُ من قبيلة (ماء السماء) لكنه قَصَد : (**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**) وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل كلامه من مصدر القوة دون غَلَبة ؛ فسيدنا محمد بشر رسول (**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**) ..

أما نحن فبشر ؛ فالفيض يؤدي إلى غيض بعض الكلمات الإشارية التي لها أدلة ومعاني ولا يُحمل محمل الظاهر .. والذين يُفسّرون الشطحَ بالظاهر هم أهل الغلو والحقد .

والفرق ما بين أهل الشطح وأهل ظاهر الكلام كمقامات الخاصة ونقصد بالخاصة أهل العلم والتربية والسلوك وتطبيق السيرة النبوية بالأقوال والأفعال والتقرير وضرورات العامة كالحساب وكل شيء عندهُ بميزان .

كجمع الواحد مع الواحد يساوي اثنين

وأما الوجد فهو علامة على أن هذا الشخص ترك ملذات الدنيا وصَقَل نفسه ، ونَقا سريرتَهُ .. ولصاحب الوجد رمز تمكين ونقصد به كرامة ؛ فالكرامات للأولياء والمعجزات للأنبياء ، والإخبار للرؤيا .

وكل هذه الأمور هي جزء من النبوة والنبوة لا تكذب كما جاء في الحديث: (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

ثم قال الشيخ : فتح الله عليكم يا أبنائي ولكم الخير إن شاء الله .. وهكذا انتهى الدَّرس وكان السرور يغُمُرني والسعادة قَد بانت على وجهي ، وتحركت خلجاتي وأنا أقول : (لا اله إلا الله الملك الحق المبين .. محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين).

فاتجهتُ إلى الحرم وصليت والأشواق إلى المدينة تغمرني كأن شيئاً يُناديني من وراء هذه الجبال ؛ فعزمتُ على الرحيل إلى المدينة بعد إتمام الشروط الثلاثة كما في الرق والإطار ، وإني قد بدأتُ رحلتي الكونية ولا أعلم ما النهاية غير أنني أسعى ..

وبعد إتمام صلواتي وأذكاري في الحرم عدتُ إلى البيت ، وبعد العشاء تكلمت مع الحاج محبوب حول الرحيل ؛ فألح عليّ بالبقاء ، ولكن

الأمر قد صدر فجهزتُ نفسي وبعد صلاة الفجر انطلقت إلى مدينة الحبيب صلي الله عليه وآله وسلم .

وكنتُ لوحدي ، وفي صحراء مكة انتابني شعور غريب في أحد الوديان وكان الوقت وقت الظهيرة فدخلتُ الوادي .. وبركت براحلتي بجانب واحة صغيرة وبعض الأشجار ، فنصبت خيمتي الصغيرة ، وبدأت بأذكاري ، ولكن هذه المرة رأيت الزوبعة بدون الإطار تأتي من بعيد وتقترب مني ؛ فأحسست أني أشرب مشروبي على السفينة والشيخ أسامة يقول : يا سيدي المختار هل الشراب لذيذ ؟ فانتظرت حتى أستجمع قواي وقلت : نعم ثم قلت له خذني إلى غرفتي فقد نالني التعب ؛ فخرجنا من صالة المشروبات ، واتجهنا إلى سُلم صغير صعودًا ثم انحرفنا يمينًا ثم نزلنا وإذا ببوابة كبيرة وليست صغيرة بارتفاع ٣(ذراع) وعرض (٢ ذراع) وعليها من الأقواس قوس في بطن قوس ومكتوب على الباب **(يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)** (سورة المجادلة :١١) فدخلتُ غرفتي وأغلقت على نفسي ، وإذا بمكان للجلوس على شكل هلال ثم ممر على جهة اليمين ثم المطبخ والحمام ، وغرفة المنام ، وكل شيء في المكان يعمل بمجرد أنك تنوي فعل ذلك الشيء وهذه كانت حكايتي في المطبخ :

المطبخ فارغ ليس فيه شيء سوى منضدة ، دخلتُ المطبخ وفتحتُ الضوء ، وإذا بقدح من الشاي على المنضدة لأني كنتُ قد نويتُ أن أصنع الشاي ، ثم فكرت بقطعة من الخبز واللبن وإذا بصحن زجاجي بنفسجي اللون فيه لبن ، وصحن آخر فيه قطع من الخبز ، فما كنت أنوي شيئًا إلا ويظهر مباشرة على المنضدة .

شتان ما بين العالمين ، عالم ننتقل على الإبل ونشرب الماء في الطأس الكبير والجرة ، وطعامنا في صحون كبيرة .. أمّا العالم الآخر فهو باللمس والنية ، فقدح معلق وصحن تمسكه مرة فيتبعك حتى تُنهي الطعام ، والثياب تضعها في الدولاب الصغير ، وتأخذها من الآخر مغسولة مكوية ، ولبس الحذاء بمجرد أن تضع قدمك في موضع الرسم مع النية ، وألوان الثياب تنوي فيتغير اللون .. وإن أردت أن تلبس خاتماً فتنوي وتلبس ، وتلمس الجدار في القاعة المخصصة للشيء المذكور فترى العَجَبَ العُجَاب ، إنهُ عالم غريب ، التطور فيه فائق ، ويعجزُ اللسان عن استيفاء وصفه .

وفي نهاية غرفة نومي بوابة صغيرة من الزجاج المُلون .. ولمّا اقتربتُ لأفتح الزجاجة انفتحت .. وإذا بممر طويل يتسعُ لرجلٍ واحد .. في وسطه شيء يشبه الصرصر ، كبير الحجم جداً ، فخفتُ من المنظر ، وعدتُ إلى غرفتي فنويت لبس الثياب فلبست وخرجت واتجهت أسير وإذا بسلم فصعدت السلم فرأيت الناس يتحركون ويحملون الأوراق ، وبمجرد أن رأوني انحنى الكل برأسه كأنهم يُسلّمون فناديتُ أقربهم وقلت : كيف أصعد إلى سطح السفينة ؟ فكأنه استغرب من الكلام، ولكنه قال : تفضل يا سيدي .. ونحن في طريق الصعود كان المكان هذه المرة مختلفًا بدون سلالم ، وصلنا إلى مكان فوقفنا على دائرة فلَمَسَ الجدار وإذا بنا على السطح وبعد أن صعدنا قلت له: أريد الشيخ أسامة ؛ فما إن قلتها إلاَّ وكان الشيخ أسامة عندي قبل أن يناديه الرجل.

فسلَّم عليَّ الشيخ أسامة وقال :

يا سيدي إن هذه السفينة هي سفينة النية .. ما إن تنوي إلاّ والكل طوع الخدمة.

فسألتهُ : يا أسامة : ما هذا المكان الكبير بجانب غرفتي وفيه حشرة ؛ فابتسم الشيخ أسامة وقال:

يا سيدي هذه طائرة حربية وتسمى **البرق** .. وهي تنتقل بين البلدان كالبرق وتستطيع أن تحمل معها مائة ألف جندي ، وهي تغوص في البحر ، وتسير على اليابسة ، كما أنها دقيقة جداً في إصابة الأهداف و لدينا منها (٣٠٠) الآف طائرة ، وهذه التي إلى جنب الغرفة هي ليست لك ، إنها لصاحب الأمر.

وهنا توقفتُ كأنني سمعتُ أمراً جللاً ، فمددتُ يدي وأمسكتُ بكتف أسامة وقلتُ له :

بالله عليك .. ألا تقول لي ما الأمر ؟

فقال : يا سيدي نحن الآن في الخدمة .. ولا نعلم من الأمر شيئاً .. غير أنهم يقولون إنه سيولد في آخر الزمان .. ويقولون إنه مولود موجود .. والصراع بين أهل السفينة صراع مرير .. ومنذ سنين ونحن ننتظر المختار وقائد السفينة .. وها أنت بيننا ولا تعلم من الأمر شيئاً ، من الذي يعلم هل سيولد أم مولود ؟

فقلت : يا أسامة ... اسمع هذه القاعدة :

قاعدة (٢٥١)

الْإِخْلاَصُ وَالصِّدقُ بِهِمَا النّجاةُ إلى الْحَشْرَ
لَا يفْتَرِقَان ؛
فاجعل الْأَوْلَ لله وَحْدَهُ، وَالزَم الثَّانِي وإن خَلَت الْأَرْض .

يا أسامة : نحن في الخدمة نؤدي الواجبات والفروض ، ونطيع الأوامر والنواهي ، ولا نخرج عن حكم الشرع ، فإن كان مولوداً فأهلاً به ، وإن كان سيولد فمرحباً بهذا اليوم السعيد .. ما علينا إلاَّ الانتظار والدعاء وصفاء النية كي نصل إلى القلب السليم .

يا أسامة : إني سمعتُ من أحد شيوخي أن عمر الأرض ملايين السنين ، وأن سكانها قد عاشوا عليها من الأنس والجن ألوفًا في بطن ألوف ، ولا نعلم متى الساعة هل بعد ألوف أو ملايين السنين .

وما إن انتهيتُ من الكلام مع أسامة الا وأنا على راحلتي في وادي الجن بمكة فقلت : سأبقى هنا في هذا المكان الذي يبعث على الراحة والسكون ..

وفي هذه الأثناء رأيت راحلةً تتجه نحوي وعليها رجل أعرابي ؛ فبدأ يقتربُ مني حتى وصل فأبْرَكَ الجملَ ونَزَل وسَلَّم فرددتُ السَّلام.

ثم قال : هل لي بالصُّحبة ؟؟

فقلت : على الرحب والسعة ، ما هذه الدنيا إلا صحبة

فقال : إيش هذه الحكمة ؟؟

والله يا غريب وأنا غريب ، ما جَلَسْتَ في الوادي الا وإنك عارف أو حكيم!

فاستغفرتُ ربي وقلت :

والله .. إني طالب علم ، وأبحث عن الصحبة والعلم .

فقال الأعرابي : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ الله وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ)

فأجبته : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

فأجابني : (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

فأجبته : (الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

فأجابني : (مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

فقال : (أسْمِعْنا فالعلم أُنس ، والذكر أُنس)

فقلت : اسمع هذه القاعدة :

قاعدة (٢٥٢)

الصُّحْبةُ قَلْعُ المَذْمُوم، وزَرْعُ المَحْمُود .

وقــال لـي : اسمع :

قاعدة (٢٥٣)

مَنْ عَلِمَ كيف يَجْني ويأكُلُ ويُطْعِم فقد أَحْكَمَ قَلْبَه .

فبكيتُ .. ومع بكائي تذكرت الأهل ، وتذكرت ذاك الطريق الحجري في سوق الحميدية من مئات السنين ، وكم من شخص قد سار عليه من صالح أو طالح . وآثم أو محسن ، فأردت أن أسرح بأفكاري ، ولكن الأعرابي نبهني وقال:

قاعدة (٢٥٤)

الْغفلةُ تَجْمَعُ الخَوَاطِرَ، فتَهْدم مَا بَنَيْت .

فعدت إلى رشدي وقلت :

بدأنا بالعلم ولم نتعرف ...

فقال : اسمي رويم

فقلت له : اسمي رفيق أو مختار ؛ فقال : مختار جميل .. ورفيق جميل أيضًا ودليل الصحبة ؛ فدار بيننا حديث عن الأهل والوطن ، فقال لي : من أي البلاد أنت ؟

فقلتُ : من دمشق .. فأكمل وقال : أنتَ التاجر ... وهنا صُعِقْتُ ، وقلت في نفسي ، أهذه الخدمة من أولها إلى نهايتها التي لا أعلم متى ستكون غرائب وعجائب ولا أفهم ما الذي يحدث ؟

وكان هذا الكلام في خاطري فقال : لا تستغرب يا رفيق على البر ومختار على البحر .. وقال : أنا حارسُ الشواطىء في الشتاء والصحاري في الصف ، وسأعمل معك يومًا لأنك أنت المختار وأنا رويم خادمك .

فلم أتكلم بكلمة حتى قام وقال : السلام عليكم فرددتُ السلام ، وكأن قواي قد خارت ، ثم ركب ناقته وقبل التحرك قال لي يا رفيق : **كُل مَنْ لقيتَ فالخِضْر اعْتَقِد** .. واعلم :

قاعدة (٢٥٥)

أَنَّ السُّبُلُ كَثِيرَةٌ ، فَاسْلُكْ مَا تَوَسَّطَ وَكُلْ وَاتْرُكْ فُسْحَةً ، فَمَا تَرَكْتَ لِلْوَسَطِ وُصُولٌ، وَمَا امتلأتَ لِلطُّرُقِ لَاوُصُولٌ وَلَا حُصُولَ .

فقلت له : خُذ مني هذه :

قاعدة (٢٥٦)

مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ أَهْلِ السَّبِيلِ وَلَزِمَ الخِدْمَةَ وتَرَكَ الهَوَى ، والتَزَمَ بِمَا يَتَفَوَّهُونَ ، كُشِفَ لَهُ وَلَو بِوَاحِدَة .

فقال : اسمع يا رفيق

قاعدة (٢٥٧)

مَنِ أَسْقَطَ الْجَاهَ فَازَ بِالْحَيَاءِ، فَتَدَرَّجَ فِي طَرِيقِ الْإِيمَانِ .

ثم ذهب الأعرابي وبقيت في الوادي لوحدي ما بين الصلاة والتسبيح .. وقبل أن يجن الليل أشعلتُ ناراً وجلست أفكر في الإحداث وقلتُ : يا ليتني الآن طائر صغير أطير إلى أهلي .. وأنا ما بين الحنين إلى وطني وأهلي إذا بي اسمع هاتفًا يقول : يا مختار .

قاعدة (٢٥٨)

إِيّاكَ وَالنَّفْس، إِن أَلِفَتْ فإِنَّها فتنة، فَدَاوِهَا بِعَكْسِ هَوَاهَا دُونَ مَعْصِيَةٍ ..

فَفَزِعْتُ ووَقَفْتُ وأنا أنظر في بطن الوادي وكأنَّ سوادًا يتقدم نحوي ، ولمَّا اقتربَ السواد أكثر تبيَّنَ أنها المرأةُ العجوز التي التقيتُ بها في سوق الحميدية أول مرة فلم أصدق .. الظلام وضوء النار والَملاَمح تَداخَلت مع بعضها ولكني لمَّا تأكدتُ أنها هي فكأنَّ البرد سَرَى من قدمي إلى رأسي ، وركضتُ نحوها وأنا أبكي وأقبّل يدها وأقول لها : يا أماه لم تركتيني ؟؟

ما هذا الذي أنا فيه يا أمّاه ؟؟!!

فقالت بصوت مِلؤه الثقة والإيمان :

إهدأ يا بني وتعال نجلس .. فأخذتْ بيدي ونحن نسير حتى جلسنا على مقربة من النار ؛ فقلتُ يا أُمي : ماذا تفعلين هنا في الوادي ؟؟ وكيف أتيتِ ؟ وهل هي صِدْفة؟

فقالــت :

قاعدة (٢٥٩)

مَنْ خَطَا لله خَطْوَةً ، طُوِيَتْ لَهُ خَطَوَات، فَكَادتَ الأرضُ أن تكون لهُ خَطْوة .

فلما سمعتُ هذا الكلام هدأتْ نفسي ..

وقالـــت : اسـمع يـا بنــي .. إنـك مـن رجـال الطريـق .. وقـد آختـاركَ العرفاء منذ ذلك اليوم الذى أطعمتَ وسقيتَ فيه **الشيخ شمس الدين** لأنـه كان من كبار العرفاء في زمانه ويتصل بسند العلم إلى **الشيخ محي الدين بن عربي** ، ولمَّا وقع نظرةُ عليكَ اختـاركَ لمهمـة (الوَتَـد الفـرد) قُبطـان سفينة التحضير للمعركة الأخيرة ..

فقلتُ : يا أماه: لم أكن قائداً ولا ضابطاً ولا عالماً!!

فقالــت: يا بنـي .. إنكَ تحملُ القلبَ السليم ، وقالت : أخرج قرطاسًا وقلماً وأكتُب هذه القواعد ؛ فإنها ستساعدك على إكمال المسير ؛ فإنَّ الرحلة طويلة فأخرجتُ من جُعبتي بعض الأوراق ومحبرة وريشة ..

ثم قالت لي :

قاعدة (٢٦٠)

المَدحُ وَالذَّمُ فرحٌ وجزَعَ ؛

فَإن أَحْبَبَتَ الأَولَ، وَتضَجّرْتَ منَ الثَّانِي، فَإِنَّكَ قد أَخْطَأتَ الطرِيقَ، فَعُد من أوله، وَتحقق مَنْ أَحوالِكَ، لَعَلَّكَ مُسْتدَرج ، والتحققُ: أنْ يَتَسَاوَى عندك السِّرُّ وَالعَلن، وَلَا تَتَجَمل .

واكتــب :

قاعدة (٢٦١)

التَّوَاضُعُ يُسكّنُ النَّظَرَ، وَالْكِبْرُ يُسكّنُ السَّمْعَ ؛

فَالْخَيْرُ فِي غَضّ البَصَرِ، وَالشَّرُّ إنْ سَمِعْتَ مِنْ أمْرِهِم لَا مِنْ أمرِنا .

وقالت يا مختار:

قاعدة (٢٦٢)

التوجهُ إِلَى اللهِ فِي الخِدْمَة خُلُقٌ، وَخِدْمَةُ الخـلْقِ لِلتَّوْفِيقِ بَابٌ ، وَاعْتِقَادُ الخَلاَقِ معَ الخلْقِ غَلْق.

واسمع هذه وانتبه :

قاعدة (٢٦٣)

إِيَّاكَ أَنْ تُسْتَدْرَجَ أَوْ تَدَّعي يَوْمًا ،
فَإِنْ فَعَلْتَ أَمراً لَيْسَ مَن أَمرنا فَسَتَجِد نَفْسَكَ مَرْمِيًا أَمَامَ عتبةِ بَابِكُم فِي الشَّام لا عَقَلَ يُرْشِدُ وَلاَ فِكْرَ يتذَكَّر .

واسمــع :

قاعدة (٢٦٤)

مَن اتخذَ شَخصاً مَكْسَباً كَسَدَ وَلاَ كَسَب ، وكَنسَ مَا جَمْع ، وَلَمْ يبْقَ لَهُ إلاَّ الادعاء .

واسمـــع :

قاعدة (٢٦٥)

كُنْ نَاصِحَا لله، وَلا تَقُلْ إنِّي أُوصِلكُم إلى اللهَ والزم الْحُضورَ، واخْفِ ذلك .

يا رفيق : إن موعد رحيلي قد حان ..
فاكتُب عني هذه الكلمات :

قاعدة (٢٦٦)

لا تَرْمِ رميَ عمياء ، ولاتخطو خَطَوات مُتهور ،
وإنْ جلَسْتَ فاجلس في المكان المُناسب ، واحذر من فَلَتَات اللّسان ؛ فإنها تُبيحُ بالسِّرِّ فتُقْتَل ..

يا مختـــار :

قاعدة (٢٦٧)

مَـهِّد للنَّاسِ طَريقَ الحَق، وَأَغْلِقْ مَكَائِدَ الشَّيْطَانِ بِالنَّصِيحَةِ ..

واعلــم :

قاعدة (٢٦٨)

الجَلِيسُ أَنِيس، فكُن مَع أَهل التُّقى تُنْتَقى ..

فَسَلَّمت عَليَّ ، وَقَبلتُ يَدَهَا ، وقالت اعذرني : إنّي دخلتُ عليكَ السوق كأني أبيع إبريقا ، ولكن أصول الطريق كتمان السِّر.

يا رفيق : إنكَ ابني والسلام عليكم ؛ فقامت من المجلس وهي تتوجه بخطوات بطيئة نحو بطن الوادي فسارت وبدأت تبتعد وتختفي شيئًا فشيئًا وأنا أراقبها إلى أن لم يبق منها إلاّ خيال في ذهني ، ولكنّي نسيتُ أن أسألها : كيف ستعود إلى الشام !!

وفي الصباح سِرْتُ إلى بَطْن الوادي كي أرى وأتفحص الأمر ؛ فرأيتُ الوادي مخيفًا في النَّهار ، فكيفَ به في الليل !!

يا إلهي .. إنَّ هذه العجوز مِفْتَاح سرِّ حياتي .. فسلمتُ على الوادي .. وعدتُ ولمْلمْتُ أغراضي واتجهتُ نحو المدينة ..

العَطـــَّـار

قبل السفر إلى سلمان باك أي مسجد سيدنا سلمان **مِنَّا أهل البيت** قال لي السيد طالب عندما افترقنا :

غداً من الصباح سنذهبُ إلى مسجد سلمان .. ولدينا لقاء مع صاحب العقاقير الشيخ خليل هناك.

وخرجنا من بغداد في اليوم التالي في الساعة العاشرة صباحا واتجهنا إلى مبتغانا وفي أثناء الطريق بدأ السيد طالب يُردد تسبيحه المشهورة :

" يا دائم الفضل على البرية يا باسط اليدين بالعطية ...

وبعد مدة من الوقت توقف عن التسبيح وقال لي : كم كتبْنا من القواعد إلى الآن؟

فقلــتُ : يا سيدي .. قد تجاوزنا المائتين بقليل

فقــال : اكتُب :

قاعدة ٢٦٩ "

التَّوْبَةُ تَخْتَلِفُ عَنِ التَّوْبَةِ، فَتوبَةٌ تُقْلِعُ عَنِ الذُّنُوبِ ولا تعود وهي توبةُ العاشق، وتوبةٌ تتوبُ وتعودُ إلى الذنب وهي توبة العَوَام .. ويا لَهَا من توبة الدَّوام ..

ثم قـــال :

قاعدة (٢٧٠)

لا يُقْلِعُ عن الذَّنْب إلاّ قَلْبٌ يَحْتَرِق وَنَفس تَفْترق ..

وقــال لي :

منذ سنين سافرتُ إلى منطقة **(سلمان باك)** ، والسوق عبارة عن دكاكين على الطرفين ، وأبواب مغطاة بالأقواس الإسلامية وعليها بعض الزخارف ، وعندما تدخل من السوق من جهة بغداد فالدكاكين على جهة اليسار وهي خارجة من المسجد وكل هذه الدكاكين تعود إلى وزارة الأوقاف .

فترى البقال، والقصَّاب، والحَدَّاد، والإسكافي، والنَّقَّاش، والفكهاني، والبزّاز، والخرّاز، والنسَّاج .. وفي آخر الدكاكين على جهة المسجد دكان الشيخ خليل ويتكون من ثلاثة أبواب .. وكان الشيخ خليل يجلس في آخر

الدكان على مقعد من خشب وأمامه منضدة عليها بعض الكتب، وعندهُ طاحونة حجرية قد ورثها من جده وهم عائلة عريقة قد توارثوا هذه المهنةَ من الجُدود ويصنعون النباتات والأدوية النَّافعة لأكثر الأمراض ... والشيخُ خليل من أهل العلم وقد درس الفقه والأُصول وحفظ القرآن الكريم في صغره ..

وعندما وصلنا إلى مسجد سلمان منا أهل البيت توضأنا وأخذنا قسطًا من الراحة ثم صلينا الظهر .. وذهبنا بعد الصلاة إلى دكان الشيخ خليل .. وما إن رآنا الشيخ خليل إلا وقام من مجْلسه .. واتجه نحو السيد طالب وأخذ يده وقبَّلها بقوة ورحب بنا ترحيبًا حارًا ، وقال : نذهبُ لنتغذى في البيت ..

فقال السيد طالب : كلاًّ .. نتغدى في الدّكان .

فقال الشيخ خليل : أمرُك سيدي .. ثم أوصى أحد العاملين في المكان بالذهاب إلى البيت وإخبار الأَهل بتجهيز طعام الغداء وإرساله إلى الدكان .

ثم بدأ الحديث .. فقال السيد طالب ما الجديد في العِطَارة ؟

فقال الشيخ خليل : لقد توصلنا إلى علاج جيد يتكون من زيت الحبة السوداء مع زيت السمسم مع مطحون الحبّة السوداء مَخْلوطًا مع الجوز والزبيب ، ومسحوق ورق الورد العطري بعجينة متماسكة وهو علاج لفقر الدم والإرهاق والتعب والنحول وضعف الأعصاب والخمول .

فقال السيد طالب : لقد نسيتَ شيئًا في هذه الخلطة .

فقال الشيخ خليل : وما هو يا سيدي ؟؟

فقال السيد طالب : يجب أن تضع في هذه الخلطة مادة ذات نكهة وتكون مضادة للعفن ..

فقال الشيخ خليل : وما هي يا سيدي ؟

قال السيد : الشومر(الشَّمَر) (حبة حلوة) ..

فقال الشيخ خليل : صدقتَ يا سيدي ..

فقال السيد طالب : ضع (٥٠) غم من الشومر مع كل (١ كغم) من الخليط ..

ثم قال السيد : أين وصلتُم في دروس العلم؟؟

فقال الشيخ خليل : ندرس بعض الفروع الفقهية ونُدرجها تحت قواعدها الكلية.

وكنّا ندرس اليوم هذه القاعدة :

الأصلُ أنهُ تُعتبر التُّهْمةُ في الأَحكام ؛ فكل من فَعَل فعلاً ، وتمكنت التُّهْمةُ من فِعْلِهِ حُكِمَ بفَسَاد فِعْله..

فقال له السيد طالب : كيف وضحَّتَ للطلاب هذه القاعدة ؟

فقال الشيخ خليل : قلتُ لهم : إنَّ المتهم في الشهادة متهمٌ في البيع ، كبيع الرجل لأبيه وأمه وأولاده أو يشهد لهم ؛ فإنَّ الشهادة لهذه القرابات فيها تهمة، فكذلك البيع ؛ فالوكيل بالبيع إذا باع ممن لا تجوز شهادته له لا يجوز بيعه وكذلك في السَّلَم ..

وما إن انتهينا من الكلام في هذه المسألة حتى وصل الغداء .. وكان مرق الفاصولياء مع حبَّات القمح المطبوخة كالأرز (الحَبِّيَة) مع اللحم الضاني .. وصحن فيه دبس وقطعة من خبز الشعير .

فجلس السيد طالب جانبًا وأكل خبز الشعير بالدبس ، وكانت هذه ثالث مرة أشاهد السيد يأكل الطعام .. ونحن أكلنا الفاصولياء والقمح مع اللحم وكانت شوربة اللحم فيها الأعشاب من الزعتر وأكليل الجبل وورق الغار؛ فأكلنا وشبعنا وكان الطعام لذيذًا وما إن أكلت وشربت من الشوربة حتى شعرتُ بالنشاط والقوة .

وبعد تناول الغداء شربنا عرق سوس .

ثم قال السيد طالب : اكتُب يا خليل ، فقال : سَمْعًا

فقال السيد :

<u>قاعدة (٢٧١)</u>

مَنْ رَكَنَ إلى سِفْلَةَ القَوْمِ رَكَدَ مَاؤهُ وَسَاءَ سَمْتُه ..

واعلم يا خليل : إني سأعطيكَ هذه القواعد فاكتبها بماء المآق وقلم السَّهر واعمل بها قدر المستطاع ؛ فإن الزمان يأخذ بالرجال .. وكأنني أرى أننا لا نلتقي ؛ فبكى خليل وقال : يا سيدي .. أهي العقوبة أم الفراق ؟

فَرَقَّ السيدُ لحاله وقال : لا تحزن يا خليل .. هكذا الأيام تدور وتدور ، وقال اكتب يا خليل :

<u>قاعدة (٢٧٢)</u>

الطَّرِيقُ بريق ،

إِنْ أَظْلَمَ بأَوْلِهِ فاتركُهُ تورُّعاً ..

وقـال يا خليــل :

قاعدة (٢٧٣)

مَنْ أحْسَنَ إِلَيْكَ بِتَمْرَةٍ فاجْعَلْهاَ جَبَلاً ،
وَمَــنْ أُسَاءَ إِلَيْــكَ فالعَـفْوُ أَقْـرَبُ لِلتَّـقْوَى ...

ثم فجأة قال : يا خليل / ألديك خل ؟

قــال : نعم سيدي .

قــال السيد : املأ نصفَ قدح خَلاً ثم ضعهُ على المائدة ..

ثم قال السيد : هل عندك جَلَو ؟

قــال : نعم ..

فقال السيد : أحضِرْهُ ، ثم قال : يا خليل ما الجَلَو؟؟

قال خليل : لا أعلم..

فقال السيد : هو خَبَثُ الحديد ..

وقــال : انظُر ، فأخذ السيد قطعةً من الجلو ووضعها في الخل ؛ فتفاعلت وبدأت تفور ثم تفتَّتَ الجَلَو الخبيث .

فقـال السيد طالب : يا خليل :

قاعدة (٢٧٤)

ليكن دَمْعُكَ الخل لتَصْهر خَبَثَ القُلوب وخُبْثها ؛
فإِنَّ السَّاعةَ آتية .

وقـال اكتــب :

قاعدة (٢٧٥)

إِنْ مَرَرْتَ بِاللَّغْوِ فَأَعْرِض ؛ فَإِنَّهَا مِنْ عَلاَمَاتِ الصَّلاح

واكتُب يا خليل :

قاعدة (٢٧٦)

صاحبُ الْإِحْسَانِ يَشْهَدُ بالحَقِّ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ غَيْرِه ، وَيكونُ آمِراً بِالْمَعْرُوفِ نَاهِياً عَنِ الْمُنْكَرِ،

واللّينُ فِي طَبْعِهِ ، ويُسلِّمُ عَلَى مَن يَعْرف وَمَن لم يَعْرف

ثم قال السيد : يا خليلُ .. اجلب (جوزة الطيب) واجلب الفُوفلَة .. واجلب بذرةَ الخس ثم قال :

أفرك البذرة ؛ فَفَرك بَذْرة الخَس فانقلبَت من سواد إلى بَيَاض ثم قال : اضربْ جوزة الطيب ؛ فَضَرَبَهَا فانكسرت ؛ فخرجت حبة نصفُها عفنة ، والنصف الآخر سليم، فقال اضرب الفوفْلَة ؛ فَضَربها فلم تتأثر فقال السيد : اضربها بالمطرقة فضَرَبها فلم يؤثر فيها شيئا ..

قال السيد : اللَّممُ توبتها كبذرة الخس .. والشُّبهة كهذه (جوزة الطيب) تقول سليمة فتكسرها فتكون عَفِنَة .. وأَمَّا الكبائر يا خليل كهذه صَلبة لا تنكسر .. تطهيرها بالقِصَاص ؛ فاحذر فإن الأمر مهول .. والقيامة قد قامت والموازين قد نُصبت..

يا خليل :

قاعدة (٢٧٧)

الطَّالِبُ أَسدٌ مزيرٌ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْأَثَرِ، وَيتّبع وَيبْتَعِد عَنِ الظَّالِمِينَ

ثم قال خليل : يا سيدي .. إن الأفكار تتزاحم عليَّ في أوقات الصلاة .. وإذا جلست للتفكر والذكر .. وفي هذه الأثناء دخل علينا رجل يلبس بدلة عسكرية قديمة ورثة وشعره طويل ولحيته كثة وفي رقبته عدد من المسابح ، وبيده عصا ، وكان بنطال بدلته قصيراً فوقَ الكعب ، ويشد بطنه بحزامين من الجلد ، وقد علَّق على جانبه الأيمن زمزمية عليها قطعة من الخش وبجانبه الآخر سيف من خشب ، وفي جيبه الأمامي علبة كارتون صغيرة فارغة مملوءة بالسجائر المصنوعة باليد ، وفي يده (سبيل) قطعة من القصب الطويلة رفيعة قد جعلها لشُرب السجائر ، كأنه ينزعجُ من الدُّخان إذا اقترب من وجهه أو لديه حساسية من مَسْك السجائر فهو يُدخّنُ بهذه القصبة ؛ فدخل فسلم بصوت جهوري نقي : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فرددنا عليه السلام وإذا بالسيد طالب يقوم من مقامه ويقول له : اجلس يا أستاذ الجنود، وحامل اللواء المفقود ؛ فجلس وهو ينظر إلى السقف ثم ينظر يمينًا وشمالاً بحركة كأنه يُراقب

شيئا وهو يُدخن فقلت في نـفسي : أهو ينظر إلى ذُبابة أو بعوضة في السَّقف فيحرك نظره بحركتها .

ثم قال : كلامُكم كان جميلاً فاستغربتُ أين كان يجلس حتى يسمعنا ، أو هل كان مثلاً على سطح الدكان أو الباب الخارجي !!

ثم قال : وحديثكم كان جميلاً ثم نظر إلى الشيخ خليل و قال : يا خليل

قاعدة (٢٧٨)

اجعلْ نُورَ الإِيمَانِ يَتَخَلَّلُ إلى صَدْرِكَ ، ويُبِلُ لِسَانَ قلْبِكَ ، كي تَذَكَرَ بالقَلْبِ لا باللِّسَان ؛ فَذِكْرُ اللسَان تَشْتَرِكُ مَعَهُ الخوَاطر والأَوهام ، وذِكْرُ القَلْب يَطْرُدُ الوَسْوَاسَ، ويجعَلُكَ في أمَان.

فقال السيد طالب: يا صاحبَ الجند .. فنَظَر إليَّ السيد وقال : نعم يا بني

قال السيد طالب: أشكو من الهَم ، ويُداهمُني الغم .. فقال صاحبُ الجند :

قاعدة (٢٧٩)

الْهَمُّ حُبُّ الدُّنيا، وَالْغَمُّ التَّعَلُّقُ بِهَذَا الْحُبِّ ؛
فَتَمسَّك بالتخلية وخُذْ من التَّحْلِيَةِ

السيد طالب : وكيف لي بالتخلية ؟
صاحب الجند :

قاعدة (٢٨٠)

الصَّومُ لا نَوْم، وَالنَّظَرُ فِي الْأَعْمَاقِ،
وَالْكَفُّ عَنِ السِّباقِ ..

- يا طالب / أُخْرُج للسياحة واحمل معكَ شرطَها .
- يا صاحب الجند .. وما شرط السياحة ؟

قال :

قاعدة (٢٨١)

لِلنُّصح وَزِيادَةَ الْعِلْمِ ،

وَأَنْ تُدَاوِيَ الكَلْمَ، وَتَأْخُذَ الْكَلِمَ ..

وتلا قوله تعالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) .

ثم تدخل الشيخ خليل وقال لصاحب الجند : تفضل بالجلوس يا سيدي فجلس صاحب الجند .. وبدأ يلتقط فتات الخبز من على المائدة .. ويأكل منها ولم يزد على الخبز شيئًا .. ثم أخرج الزمزمية وشرب ثلاثًا.

ثم سأله خليل : يا سيدي .. كيف الخلاصُ من أوهام الصلاة ؟

فقال : يا خليل

قاعدة (٢٨٢)

صَحّح تَوَجُّهَكَ، وَتَصْحِيحُ التَّوَجُّهِ الفِرارُ إلى اللّهَ ..

ثم نظر إلى السيد طالب وقال : اكتُب هذه القاعدة :

قاعدة (٢٨٣)

المُعلِّمُ ذَاكِرٌ، يتلو كِتَابَ اللهِ، وَيَحْمِلُ هَذا الدّينَ، ويدعو النَّاسَ بالحِكْمَة وَالمَوعِظة الحَسَنة ..

ثم انصرف صاحب الجند ..

وبدأ السيد طالب والشيخ خليل ينظران إليه .. ولم يتكلما ولم يقولا شيئًا حتى انصرف من الدكان .. ثم جلسنا .. وقد أطرقا رأسيهما ؛ فخرجتُ إلى باب الدكان لأنظر أين يذهب صاحب الجند ؛ فإذا به يخطو خطوات بطيئة وسط السوق وهو يُدخّن بسبيله المصنوع من القصب وينفخ الدخانَ ويرفع رأسه إلى الأعلى ، وكأنَّ الدخان دوائر في بطن دوائر .. يا لهُ من إبداع وفن من صاحب الجُنْد .. قد شَكّل هذه الدوائر والأطباق الطائرة ؛ فراقبْتُهُ حتى اختفى عن الأنظار ، ودخلنا الدكان أنا والسيد طالب والشيخ خليل في حالة من التأمل والذهول.. وانتظرتُ حتى قال السيد: هيا بنا نعود ، ثم توجهنا إلى السيارة .. وفي طريق العودة قال لي السيد طالب: أين وصَلْنا في حكايتنا ؟؟

الحُــــكماء

وأنا على راحلتي متجه إلى **المدينة المنورة** .. في داخلي شوق للروضة والجلوس عند قبر الحبيب أتذكر السيرة العطرة لحضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والشوق يزداد في داخلي كلما اقتربتُ أكثر وكأني أصرخ وأبكي وأتنهّد .. وبينما أنا على هذه الحال إذا بي أرى نفسي في غرفتي على السفينة أصلي الفجر.. وهذه المرة أرتدي نفس الملابس في نفس الحال من البكاء ؛ فقمتُ من على سجادتي ، وأردتُ الخروج من الغرفة فتذكرت الشيخ أسامة عندما قال لي : إن أردت الصعود إلى سطح السفينة فقف على موضع القدم في الجانب الغربي من الغرفة .. وما عليك إلا أن تنوي الصعود فترى نفسك على سطح السفينة.

وأنا على السطح شممتُ رائحة الصباح .. أتنفس .. والصباح يتنفس ؛ فأسمع نفسي .. وأسمع تنفسه في نَفَسي .. وبدأتُ أراقبُ الأفقَ وأنا على سطح هـــــذه السفينـــــــــة ــــ المدينة الكبيرة ـــ فأحسستُ بضآلة حجمي إلى الكون العظيم .. وبدأتُ أشاهدُ الشروق .. ولكن الشمس لم تكن دائرية .. بل كانت دائرية غير منتظمة كطفل صغير أعطيناه قلما وقلنا له : أرسم لنا دائرة ؛ فاستغربتُ من المنظر وما أكثر استغرابي من كل ما تقدم في هذه الرحلة ؛ فكلٌّ شيء غريب .. طعامي .. وشرابي .. ومن حولي .. والسفينة (المدينة) .. آه تلو الآه ..

وأنا في حيرتي إذا بالشيخ أسامة يقول لي:

السلام عليكم ؛ فرددتُ السلام ..

فقال : اليوم اجتماعُ الحكماء .. فسألت : ما هذا الاجتماع ؟؟

قال: الاجتماع على رأس كل مائة سنة يجتمع الحكماء الأربعون في قاعة النية على متن سفينة النية .. ويُعطون الحلولَ لما يجري وسيجري على الأرض مدة هذه السنين .. والاجتماع بعد قليل .. وبين الحين والحين هناك استراحة خفيفة للصلاة والطعام .. ويستمر الاجتماع يومًا وليلة دون نوم ؛ فتهيأ يا سيدي لأنك أنتَ المختار الرقم المفرد في جلسة الأربعين .. فسألتُ الشيخ أسامة : يا شيخ .. وما هو دوري وماذا أقول ؟ وأنا لا أفهم عن هذا الأمر شيئًا .

فقال الشيخ أسامة : يا سيدي إن حكمتك آنية ؛ فأنت المختار .. وأنت تعرف عن أسرار الكون وأن أصحاب الحلقات والدوائر والمجالس منذ سنين طويلة وهم يبحثون وينتقون حتى وقع الاختيار عليك ؛ فتهيأ واذهب إلى غُرفتك وانوي الغسل وتبديل الملابس لحضور الاجتماع ..

فسلمتُ وذهبتُ إلى غرفتي ولكن لم أنوي .. وسرت على قدمي وأخذت بالمسير حتى دخلتُ غرفتي وأنا انظر في المرأة ؛ فقلتُ نويتُ الغسل والتجمل وتغيير الثياب فما إن رَمَشَت عيني رمشةً إلا وأنا في كامل قيافتي / وفي يدي عصا فنظرتُ إلى العصا وهي من خشب أسود كأنه خشب السيسم مطرَّز بالفضة .. مكتوب على العصا من رأسها الشبيه بالكرة إلى وسطها "الحكمةُ ضالة المؤمن أينما وجدها تلقفها".

فصليتُ على الحبيب .. وكنتُ لا أعرف مكان الاجتماع فأغمصتُ عيني ونويتُ ... واذا بي أجلسُ على كرسي منفرداً فوق دائرة من الكراسي أظنها أربعين .. وعندما فتحتُ عيني كان الكل قد قاموا وسلَّموا وقالوا : أهلاً بالمختار .

فقلتُ : أهلاً بكم يا حكماء الأرض ..

يا حكماءَ سفينة النية ؛ فدخل الشيخ أسامة ووقف على يميني وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والحمد لله حمداً لا نستطيع أن نصل إلى حق حمده على النعم الكثيرة التي لا تُحصى ولا تعد .. والعد ليس له أول ولا آخر .. والصلاة والسلام ـــ الأتمين الأكملين ـــ على سيدنا الرسول محمد وعلى آله الإطهار الأبرار أهل الهدى .. وعلى أصحابه الأخيار من حملوا رايات الدين في كل مكان كي ينشروا هذاالدين الحنيف .. دين الاستقامة والكرامة بعيداً عن اللغو والرياء والكذب والنفاق والبدع وكثرة القيل والقال.

يا أصحاب الحكمة : إننا اليوم نجتمع لكي نضع النقاطَ على الحروف .. ونجمع الحروف ونصف الكلمات .. وأن ننقي الزمان بكثرة صور المكان من البدع والظلم ؛ فالبدع تؤدي إلى التفرقة .. والفرقة ظلام في طياته الظلم .. وقد مر علينا مائة عام عندما كان بيننا الشيخ المختار ـــ طيب الله ثراه ـــ وأبدى لنا النصيحة وقام بدوره **الشيخ شمس الدين** صاحب الهمة والإرشاد.

وسلامٌ قولاً من رب رحيم ...

فقلتُ: يا حكماء .. كيف نبدأ ؟

فقال شيخُ الشرق : نبدأ بالشرق .. وإذا بالكل يفتحون الأصابع الخمسة ويرفعونها.

وقال شيخ الغرب : بل نبدأ بالغرب ؛ فرفع الكل أيديهم إلاّ شيخ الشرق ؛ فقلتُ لهم : الشرق أم الغرب .. ليس مهماً .. المهم أن نتفق على آلية الحديث والتقسيم وسنقسم الكل إلى ثلاثة أقسام.

القسم الأول : الذئب الأشقر، والذئب الأبيض ، وذئبٌ قد كُسِرَت رِجْلاه ، والنمر النائم ، والخفَّاش ، والبقرة ، والحية.

والقسم الثاني : وهو الوسط الذى يقع يبن القسمين :

فرس النهر، والذئب الأسمر، والكلب الوفي الأعرج، والأرنب، والسمكة ، والكلب الحائر، والدُّب، والخنزير، والسلحفاة ، والكلب المسعور الجائع، والثعلب الخبيث، والثعلب الرمادي، وعصفور التين، والثعلب الترابي، والقُنفد، والقط الحائر، والكلب النائم، والثعلب الودود، والأسد ذو الفم العفن ، والقطة العمياء ، والذئب الأبله .

والقسم الثالث :الذئب الذي لا يشبع، والأسد المطرود، وذئب أصله قط ، والنمر السليم، والذئب الهرم ، والأسد الأليف .

فقلتُ الأسماء عندكم والتقسيم .. بمن نبدأ ؟

وبدأت المشاوراتُ .. واتفق الجميع على البدء بالأرنب ؛ فبدأ الحديث فقال أحدهم : بلدٌ ممزق منذ سنين .. وقال الآخر : سبب التمزق هوالكلب الوفي الأعرج وقال : بل الذئب الأبيض .. وقال آخر : بل الذئب الأسمر .

فبدأتُ أتكلم وكان الكلام يسري على لساني دون إرادتي وأفهم ما أقول :

السببُ أن هذا البلد تحت أنظار الذئب الذي لا يشبع .. وفيه مصلحة الأسد ذوالفم العفن .. والذئب الأبيض له قطعة أرض فيه .. والكلب الوفي الأعرج قد سكن في البيت فترة من الزمن وغيَّر موازين القوى وقتل من المثقفين والمفكرين لحساب آخرين كي يبرزوا ؛ ففيهم طوائف وأديان قد انسلخوا من القومية.

والكل يساعد هذا البلد من منظاره الشخصي ، فأصبح عبارة عن قوى متناحرة، وهذا التناحر يصب في مصلحة الأسد ذو الفم العفن والذئب الذي لا يشبع في نهاية المطاف.

أما في الوقت الحاضر فالساحة للأقوى وللمُتهور وللمجنون الذي يُفضل المصلحة الشخصية على العامة ؛ فالقتال دار في هذا البلد منذ سنين طويلة والقتل صار ديدنهم بل إنهم يشربون في كؤوس عليها آثار الدم .. وهل تعلمون أنهم لا يأكلون قطع اللحم إلا نيئة .. هؤلاء يعملون لليوم ولا يعرفون أن التاريخ لا يرحم .. وسيكتب عنهم أبشع الكلمات .. وأنه لابد للحق أن يظهر .. وأن يُكشف اللثام حتى يظهر ويسطع بنوره الحقيقي .

وفي داخل هذا البلد - **الأرنب** - الكل يعمل للجوار وإنشاء البنوك والمشاريع والاستثمارات في كل النواحي ، والناس في حيرة من أمرهم فهم يركضون ويسعون من الصباح إلى المساء لتحصيل لقمة العيش وينامون .. ومنهم من يسهر إلى الصباح.. ومنهم من يُحشِّد ويخرج بثياب الملك يُهدد .. ومنهم من يكسر قدحًا ويهرب من أمه خوف العقوبة .. والألفاظ بين الطوائف في غاية الأدب لأننا أمة اقرأ وأمة الأدب !!

ولا ننسى أن الكلمات خالية من الملح كرغيف خُبز تأكله وقد نسي الخباز أن يضع الملح في العجين.

هذا وصف بسيط للأرنب يا حكماء .. ونريد الحلول.

فقال أحدهم : يجب أن نضع حداً للذئب الأبيض والذئب الأسمر والذئب الذي لا يشبع .. والأسد ذو الفم العفن.

وقال آخر : وضع الحد أن نُقاتلهم ...

وقال الآخر: كلا .. بل نجعل في سُدَّة الحكم في كل هذه البلدان أناسًا حكماء يخافون الله حقاً ، ولا يعملون لدين أو طائفة أو قومية.

وقال آخر: بل نجعل في هذا البلد قانونًا لنزع السلاح كما عند النمر السليم والمظاهر المسلحة سنجعله يتجه اتجاهًا علميًا، ولا ننسى أنهم أصحاب فكر تجاري وخصوصًا في الطباعة والنشر؛ فقال آخر : كيف هذا والمد الخارجي لا ينقطع ، فأجبتهُ وقلتُ : ألم نقل بالضغط على الدول التي تزيد في النار الحطب.

وقال آخر: إن سبب هذه المشاكل هو الذهب الأسود والرقع الدينية والذين يفكرون كهتلر .. وخوفي أنهم قد أصيبوا بعلة هتلر؛ فسألني أحدهُم، وما علة هتلر؟

فقلتُ : عندما كان صبيًا صغيرًا قد اعتدوا عليه بالضرب والشتم وأشياء أخرى منها كسر الساق وأصبع الوسطى .. ومن آثار الضرب

أنهم قد شجّوا رأسه من الخلف حتى أن بعض قطرات الدم تيبسَت على صيوان الأذن حتى أصبحت كالخال ؛ فقالوا بصوت واحد : يا لها من مصيبة ... والخوف أن من يتزعمون قد أصيبوا بهذا الداء.

فقال الحكيم الأبيض الطاعن في العمر ويطلقون عليه اسم (نوح)؛ لأنه قد شارك في أكثر الاجتماعات قال:

لو كان كلُّ زعيم يفعل ما يقول ولا يدعي ويكون أهلاً لظن الناس به ، وينظر إلى المرآة ولو مرة واحدة .. ويقول لنفسه : كفى كذبًا على الناس؛ فلتكن أسرارك كظاهرك .. ويتوجها بمخافة الله ؛ ففي هذه الحالة لا يُصاب بهذا الداء العضال داء هتلر ..

فقال آخر : كيف نختار الزعماء وهم من ملل وأطياف وأديان متعددة ؟

فقال أحدهم : الاختيار بأن يكون صحيح البدن والعقل ، ولا يخضع إلا للقانون والعدل .. وأن يكون إنساناً جيدا يعرف حقوق الآخرين .. ولا يُجبر أحداً بأن يتناول من نفس طعامه وشرابه .. وأن يرتدي نفس الثياب فلكل شخص طريقته في اللبس .. ويُحب نوعا من الطعام .

وقال آخر : دَمْجُ الزعامات أمر مُهم ..

وقال آخر : نعودُ إلى حكم الفرد !!

وقال أحدهم : يجب أن يكون لكل بلد (مجلس حكماء) يقررون في الأمور المهمة .. وهذا المجلس يكون تحت مظلة القانون .. والحكماء نختارهم من الأقوياء الذين يستطيعون تليين الحديد وكسب القلوب ويحملون الرحمة ولا يفرَّقون بين الأسود والأبيض ولا الغني ولا الفقير ولا يتكلمون في السر بأمور إن ظهرت في العلن يتعصَّبون ويشدون السروال إلى غاية الصُّرة .

فقلتُ لهم : نريد الحل ، تشاوروا وأريد منكم النتيجة والآن استراحة ثم نعود..

ونويتُ الذهاب إلى غرفتي لأصلي وأرتاح قليلاً وأتناول الطعام .. وبعد إتمام الصلاة والطعام نويتُ العودة وكان جميع الحكماء بالانتظار وبعد السلام قلتُ :

ما النتيجة ؟؟

وكانت النتيجة على شقين ، شق سلبي .. وشق إيجابي .. فالسلبي تقسيم البلاد إلى أربعة أقسام ، قسم لإنشاء سوق كبيرة ، وقسم فقط للخير ، وقسم فقط للفاكهة ، وقسم فقط للحم .

أما الجانب الإيجابي ؛ فدعمُ شخصيات لم تتعرض إلى مثل ما تعرَّض له هتلر في الطفولة فتنعكس على نفسه عندما يكبُر ، وندعم أناسًا عاشوا على استقامة منذ الطفولة حتى سن الرُّشد وكمال العمر وهؤلاء أصحاب النفوس المستقرة والأخلاق الحسنة ندعمهم كي نبني أمة متكاملة مترابطة يجمعهم جميعاً الوطن الأم للدفاع عن أمهم الأرنب فوافقتُ على هذا الكلام وقلتُ : إنه كلام جميل ورائع وثبتوا هذا الأمر في دولة الأرنب ...

ثم قلتُ لهم : ماذا تقولون في السمكة ؟؟

قالوا : نعم فالسمك مأكول مذموم كما يقال .. لذيذ عند الأكل ولكن بعد الانتهاء من الطعام نقول يا ليتنا لم نطبخ السمك في البيت .. ولم نأكل السمك أنه ذو رائحـــــة نتنة !!

وقال الآخر : آخ .. من دولة السمك .. وآه .. من أكل السمك .. الكل يعيش على ظهر هذه السمكة .. من أراد أن يشتهر برائحته العفنة فليلجأ إلى أكل السمك، وينادي بالسمك ويلبس جلد السمك ويُعلّق السمك على أبواب بيته وفي غرف النوم حتى أنه إذا تكلم بالمذياع ؛ فالحروف أسماك صغيرة، والكلمات أسماك كبيرة والجمل حيتان، وهو يصرخ السمك السمك، وعندما ينتهي من خطبته العصماء، ويملأ البطن من هذه الأكلة اللذيذة المفيدة خاصة السمك (الجِرِّي) فإنه يقوى العظام .. وينشط الذاكرة ويجعل الخطيب مفوهًا ...

وقال آخر: إن دولة السمك هي حديث جميع الدول وكل الرؤساء والساسة، ودولة السمك ليس بها باب ولا ترباس كي تغلق حتى لا يدخل اللصوص ، وإن هذه السمكة قد وقعت بين براثن الأسد ذو الفم العفن .. والأسد يأكل من السمك ويصرخ أنجدوني : إن شوكَ هذه السمكة قد فعل بي الأفاعيل وهو في نفسه يقول : أنه سمك لذيذ ويزيد مفاصلي قوةً وصلابة، وإن اللُّبَد من حول رأسي بدأت باللَّمعان من زينته المضيء.

فناديتُ : وما هو الحل ؟

فقال نوح " كان لي أستاذ قد قال لي مرة : إن أردتَ أن تكون مسموع الكلمة ؛ فحاول أن توفق ما بين العقل والقلب فيصطلحان مع اللسان كي

تستطيع أن تقول جملة مفيدة ... ويجب أن يصطلح الأخوان أو الثلاثة بأن يكون رأيهم واحداً ويوافقوا على الشروط المجحفة في حق السمك .. لكن الموافقة في صالحهم؛ فإن دولتهم السمكة سيصير لها حدود وبريق وينمو الزرع ويكثر النسل .. ثم في المائة الأخرى من الاجتماع سنقول لهم ماذا يفعلون .. وفي هذه الفترة سيصير للفراخ ريش ، وإن طائر النورس سيتعلم ألاّ يصطاد السمك بل يتعلم أن يأكل من لحوم الأسود التي أفواهها عفنة هل أنتم موافقون ؟

نعم ... إنه الرأي السديد السليم في هذه المرحلة

ثم قالوا: وما دمنا بين الأرنب والسمكة فلننتقل إلى الكلب الوفي الأعرج.

فقام الرجل الأسود الطويل واسمه (حسام) وهو ذو الدورتين ، وكان يسكن خارج سفينة النية .. ويعمل في حقول زرع الكلمات الطيبة وهذا الحقل موجود في قاع المحيط الأطلسي عند نهر الخير أراضيه خصبة .. وقد حظر الاجتماعَ الأول قبل مائة عام وبقي في السفينة .. وقد وكل أعمال الأرض الخصبة لابنه .

قام فقال : إن الكلب الوفي الأعرج قد كسروا ساقه .

وكان السبب (الذئب الأسمر) والثعلب الرمادي ، والسلحفاة ، والثعلب الترابي.

ولكن الذئب الأبيض قد جبَّر له ساقهُ ؛ فلم تقطع ولكن أنقذ ما يُمكن إنقاذه.

وهذا الطلب هو من أصول الذئب المفترس ذو العيون الدموية والذي يحمل رأساً كرأس الحمار ، بل رأسه ككائنات الفضاء ، ومنذ ذلك اليوم صار وفياً للذئب الأبيض ؛ فبدأ يطير خارج السرب .. ولكن لديه علاقات سرية مع الأسد ذو الفم العفن .. وبين الحين والحين يتصالحُ مع الذئب الأسمر وبقية أهل الغاب ثم يعود إلى الخراب لأنه اشترى الحلوى من الذئب الأبيض وباع لهم الكعك .. وأبناء الذئب الأبيض يسرحون ويلعبون ويمرحون في بيته .. والطامة الكبرى أنهم اجتمعوا عليه .. وهو من أصول الذئاب فتمزقت أرضه إلى عدة دول وبعضهم يريد أن يثبّت حكم اللغة ، وبعضهم يميلُ إلى الذئب الذي لايشبع ، وبعضهم إلى الثعلب الأسمر ، وبعضهم إلى الذئب الرمادي ، وبعضهم إلى الذئب الأشقر، وبعضهم إلى الذئب الذي قد كُسرت رجلاه .

فقام الحكيم القزم وقال : كفانا في الوصف ومن تدخل ونريد الحل .

فقلتُ له : يا حكيم وما الحل ؟

قال : الحل القصاص العادل من القتلة مهما تكن انتماءاتهم وميولهم وألاّ نتهاون مع المجرمين الذين أباحوا الدم والأرض والعِرض ؛ فليس هناك مبرر واحد يبيح قتل الآخر أيًّا كان الاختلاف معه ولو على الملة أو القومية أو الديانة أو المذهب أو الطائفة، ويجب أن نضرب بيد من حديد على أيدي الأفّاكين المخادعين، وكل غريب دخل الأرض ليقاتل إلى جانب الكلب الوفي السليم، وليس السليم بلفظ العرب الذي لدغتهُ الأفعى ؛ فاحترازاً يقولون السليم من جميع أبناء الكلب الوفي الأعَرج .

ويشكلون دولة مبنية على التفاهم، والأقلية لهم نفس حقوق الاكثرية ؛ فإن الأقلية والأكثرية والمحاصصة أكذوبة صنعوها وجعلوها في بطن الدجاجة الأُم كي تبيض في بلداننا هذه البيضة (محاصصة ، أقلية ، أكثرية) ؛ لأن المجازر عبر التاريخ كانت تُرتكب باسم هذه الأمور .. وصور التأريخ كثيرة.

وهذه الدولة شعبها ذكي مُتفتح متطور وحنين وخدوم يعمل ويُطيع ولديه اكتفاء ذاتي ؛ فليعد إلى أحضان القافلة كي تسير إلى المبتغى ، أما الأسد ذو الفم العفن فقد تمركز بينهم وبين الثعلب الودود ، وهو كالفطر بل كالكمأ بل كالدمل وليس من الدمامل نَمَا في هذه البقعة وهو مفروض الآن ... والكل يؤيد الأسد ذو الفم العفن ، الأسد المطرود يؤيده .. والذئب الذي لا يشبع .. والنمر السليم .. والذئب الهرم .. والذئب الذي أصله قط .. والثعلب الترابي .. والذئب الأبيض .. والذئب الأشقر .. والكل .. فالأسماء كثيرة ونحن في صدد العلاج وأن نضع أصبعنا على العلة فهو مفروض في المنطقة ولا خلاص ؛ فلماذا هذا التعب فأبناء السمكة يموتون منذ سنين .. والكل يشجب و يستنكر ويُدين ، ورغم كل هذه الأمور فالذبح قائمٌ فيهم.

فقام الحكيم ذو اللحية الصفراء وعليها آثار الحناء .. ذو الأنف المُدبب والعيون الصغيرة فقال:

نكفُّ عنهم ويكفّون عنا ، ونطبّق قانون صلح الحديبية .. والزمن كفيل والله مُظهرٌ أمرَه .. أمَّا بعض الساسة فيتاجرون بهذه القضية من أجل المناصب والمكاسب ، والشعب المسكين يُذبح هل أنتم موافتون ... قالوا : نعم .

أما الثعلب الودود .. وهنا قام النحيف الأسمر ذو العيون الغائرة والجبهة العريضة فقال :

إنّ صاحب هذه الدولة ليس بالذكي لكن أسلافه كانوا في قمة الحنكة والذكاء والمراوغة وهو ينتظر حتى يسقط الجمل فُيطبل ويُصفّق ، وإن كان الأمر مجهولاً فإنه يُراوغ .. والغريب أن في بلاده أناسًا يسكنون القصور الشبيهة ببيت الذئب الذي لا يشبع .. وأناس يعيشون على كسرة خبز مع قليل من الملح .. وهو لا يملك من الثروات غير أن الناس يأتون إلى دكاكينه كي يتفرجوا ويشتروا علاجه.

والحل : إمَّا الاستقامة وإرضاء جميع الطوائف .. أو الاستبدال، وهذه كانت المرة الأولى التي يتفقُ فيها كلُّ المجلس على هذا الرأي.

ننتقل الآن إلى الجانب الآخر عصفور التين الصغير .. هذه البلدة الصغيرة .. إنها كفخذ كبش شكلا وحجماً .. يملكون ما يملكون وأهلها أناس طيبون ، ومنذ التقسيم الأول لهذه البلدة المسماة بـ (دولة) كان فيها الظلم والعنف الطائفي؛ لأن الذئب الأسمر والذئب الأبيض يتناحران دائما فإذا أشتد التناحر بينهم فأول ما تتأثر هذه الدولة فيبدأ فيها الكر والفر ، ومن القديم جرى فيهم السيفُ أهو ذنب صاحب العصفور أم من يُعتمد عليهم من أهل القانون أو أنه تأثير خارجي؟

فقام الرجل الضخمُ الذي ليس له رقبة من كثرة اللحم ، أكتافه مع رقبته قد صارت كقطعة واحدة، وهو رجلٌ طيب في جوهره لكنهم يتهمونه بالغلظة .

قال: يجب تطبيق المساواة في هذه البلدة بشرط الانتماء للوطن .. وكل من يسمع كلام الجيران أو الأغراب أو الأهل على حساب دولة العصفور الصغير فهي خيانة عظمى .. ويجب الضغط على من يحكمون أن ينظروا إلى الشعب نظرة واحدة ليس فيها تمييز عرقي أو عنصري ، ويجب أن يسمحوا لمن يحمل المؤهلات العلمية والقيادية بأن يُدلي بآرائه ويستلم المناصب ولا تكون حكراً على أحد .

ويجب على الذين هم على كرسي الحكم أن يتنزهوا عن غواية الشيطان والدنيا كي يكونوا رموزاً في قمة النقاهة .. وليسمع صاحب العصفور بأن العدل سيقطع رؤوس من يخون ، وإن الذين يطالبون بحقوقهم يجب أن ينتموا إلى وطنهم ولا يسمعوا كلام **الغُرباء** .

فقلتُ له : رائع يا صاحبَ القلب الطيب ..

وقال نوح: هذه البلدة فيها صراعات منذ خمسين سنة أو أكثر .. وعلاجُها أن صاحب العصفور يُشكل لجنة من حكماء البلدة من كل الطوائف بشرط عدم الانتماء لا إلى الجيران ولا الغرباء ، ويجب قطع الأموال التي تدخل من خارج البلاد ، وأن يهيىء للمسلوبين الأرضية والدعم الكافي كي يكون لهم صوتاً مسموعاً.

فقلتُ : عظيم

ثم قام رجل آخر ويسمى ذو الحرب .. شعر رأسه ولحيته وحاجبيه المقرونين قد تداخلت .. قام فقال:

إمَّا صاحبُ العُصفور يجعل مخافة الله بين عينيه ولا يميل إلى مذهب ولا طائفة، وينظر إلى الكل بنظرة العدل .. ويختار الأوفياء ليكونوا البطانة الصالحة، ويبني هرم الدولة على هذا الأساس، أو فليرحل ونغير النظام وكفي؛ فإنهم يأكلون منذ سنين فقلتُ لهم : يكفي هذا فإن العصفور أخذ حَظهُ وزيادة ؛ فناقشوا هذه الأمور واختاروا لهم قبل أن يأتيهم الزلزال؛ فإن الضغط يولد الانفجار ، والظلم يولد الانتحار فمن نجا من الانفجار وقع في الانتحار .

ثم قال نوح : ويُعتبر وكيلي الأول في المجلس ، قال / تكلمنا عن ست دول من الوسط فلنتكلم عن القسم الأول ولنأخذ الذئب الذي قد كُسِرت رجلاه وقُطِعت كفّاه ينبح كثيراً فيزعج الكل فيطعموهُ فيسكت.

فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً ولكن يؤخر بعض الأمور لمصالحه الشخصية، وهو لم يسر على خطوات أسلافه ممن مضوا فإنهم كانوا أقوياء وجبابرة في الظلم وكان لديهم نوع من الموازنة والرحمة .. أما هذا الجديد فإنه لا يعرف غير أن يظهر بمظهر الفتوة ، ويأخذ الإتاوة فيسكت ومن يركن اليه يركن إلى حائط فيه شق لا بد له أن ينهار في يوم من الأيام .

مصلحته تفوق كل المصالح ، وكان في السابق عندما كان سليماً كانت ضربته توازي ضربة الأسد بكفه وكان أقوى الذئاب .. وكان يخرج في الليل والنهار ، أما بعد تلك الحادثة الأليمة من صاحبهم (ذو العلامة) ، فشَا فيهم الانحلال ، والقانون كالمطاط في بلدهم .. والجوع يسري بين الناس والغلاء فاحش والبطالة منتشرة ولم يبق لديه إلاّ القوة المدمرة وإني لأشك بفعاليتها ، وأتصور أنه زعيم ديني لدين جديد بعيد عن كل الأديان.

وهذا الذئب قد طال لسانه وصار شعر جسده يتساقط حتى إذا نظرت اليه تقول : إنه أمرد ؛ فهو يحب الجلوس مع النساء ويتباهى بالذكورية كأنه ديك رومي قد نزل ضيفا على مجموعة من الدجاج، ولا يسبب المشاكل، ولكن يؤخر من شر أهل الشر ، ويزيد في الشر .

وعلاجه / أن هذا الرجل يموت أو يدخل في غيبوبة أو يشيخ بمرور الزمن.

وقال آخر: وهو الرجل البحر هاديء الصوت .. بالكاد صوته يُسمع :

انشقاقٌ داخلي وإضعاف هذا الرجل ثم الخلاص منه واستبداله بحكيم ولا يحمل عقيدة التزمت .. والأحسن أن يعود الملك من قبره ...

- **ثم تكلمنا عن الذئب الأشقر :**

فقال نوح : إن هذا الذئب له ظاهر وباطن .. وشَقَارُةُ قد أخفى ملامح الكبر، فإنه كان في الماضي فتوة ، وسيطر على كثير من الأحياء ثم شاخ وتمرّض، وأحد أبناء المحلة الفقراء قضى عليه ، واستبدل الفتوة بفئة من التعصب القومي، وغيّر البلاد والعباد ، ومن المضحك أنه قد غير كتابة الأرقام ومنع الكتابة إلا بلغة المحلة ، ثم تغير أيضًا فأتت مجموعة جديدة قد أخذوا من القديم والحديث وأتوا بشيء جديد كأن المريض تزوج من القوم ، فولد له ابنًا فحمل الأفكار القديمة والحديثة ولديه حنكة ولديه علاقات واسعة بجميع الأطراف المتناحرة .

فمثلاً لديه علاقات بالأسد ذو الفم العفن .. وبالكلب الحائر الماضي .. ويُعادي الكلب الوفي الأعرج .. ويغازل الذئب الذي لا يشبع .. وقد هيء نفسه أن يحمل بقعة أرضه التي هو عليها ، ويزحزها حتى يدمج مع الذئب الذي أصله قط .. والذئب الهرم ومن حوله .. ولكنه قد خدم أهل المحلة وهو يعادي القط الحائر الذين يسكنون عنده وعند فرس النهر وعند الذئب الأبيض وبعض المناطق ؛ لأنه رأى منامًا في أحد الأيام أن القط الحائر انقلب سنوراً ثم نمراً بريًا لونه كلون الجبال وافترسهُ ، والقط الحائر يُمسِّد له الآن وُيمسِّد للكثير الكثير.

فقلتُ لهم : إن الذئب الأشقر علاجه أن يبقى على ما هو عليه وأن لا يتدخل في الباطن، وأن لا يبقى كثيراً وليعُطي الفترة لشاب جميل أو فتاة جميلة يحملون نفس الأفكار أن يتقدموا ..

وإجمالاً : هو يمكر دائماً ويظهر بمظهر المسكين لأن الشقار قد غطى المكر ، فقام أحد الحكماء الصامتين الذي كان يستمع واسمه البشوش .. قام وقال:

النمر النائم وله اسم مشهور فيه لفظ النائم ، ولا نريد الإفصاح عنه لكنكم تعرفونه، إنه يتكاثر وبتقوى ويزداد عزمًا وحزمًا، وقد بنى مدينة تحت مدينته، وإنه اشترى كوكب (أرضان) من مجرة قريبة على مجرتنا (قنطريوس) ويريد أن يحول شعبه إلى الكوكب الجديد لأنهم يتكاثرون بشكل رهيب ، وقد طور قدح الماء، فصار القدح صغيراً ويأخذ كميات من الماء أضعاف القدح الكبير حتى أنك لو شربت من القدح الصغير أنت وأسرتك والجيران لا ينتهي الماء.

وهو يقف ضد الذئب الذي لا يشبع .. والأخير دائماً يُريدُ مودته .. ودائماً يتحدث عن الأخوة والصداقة والمحبة مع النائم .. ويشتري ويتبادل معهُ بالتجارة ، ولكن النمر النائم قد نام بمزاجه وهو الآن في دور الشَّرْنقة كي يتحول من نمر إلى أسد الغابة الأوحد .. ومجلس الحكماء الذي عندهم قد قرروا المائة سنة القادمة أن يكونوا أسياد المجرة وهم لا يميلون إلى مذهب أو دين .. ويحبون مصلحة الراية التى سكنوا تحتها وفي الوقت الحاضر يشكلون بعض التوازن ولكن يجب أن نحذر منهم لأنهم سيُشكلون الكارثة القادمة على الأرض.

فقام الرجل المُلثَّم والمُسمّى بحكيم الزمان وقال : أما **الذئب الأبيض** فهو يشبه الذئب الأشقر القديم ، وهو يحمل أفكار هذا الدين إن كانت يمينية أو يسارية وفكرة الدين في المفهوم التعصبي هي فكرة توسعية، أما بمفهوم العشق والرحمة فهي دعوة إلى الحب والسلام والعدل والرضا والإحسان والتفاهم ، وتعليم الناس كيف يكونوا جيدين ، وإن في الذئب الأبيض أناسًا غير هؤلاء لو وزنتهم وقارنتهم بالجواهر وأنفس المعادن كانوا أرقى.

وأما الذين قد طافوا على سطح البحر فهم يريدون أن يتدخلوا في النظام الداخلي لفرس النهر، والذئب الأبله، وعصفور التين الصغير، والثعلب الرمادي، والسلحفاة، والكلب الحائر، والسمكة ، وعند الثعلب الودود، وعند الأرنب ، والكلب الوفي الأعرج ، والذئب الذي كُسرت رجلاه .. وله علاقات قديمة مع الأسد ذو الفم العفن .. وهو يُعادي الذئب الذي لا يشبع ومن يقفون معه .. ويحاول أن يظهر بثوب طائر النورس

لأنه لم يأخذ دوره في الأفكار التوسعية كالذئب الأسمر في القديم ، والذئب الأشقر قبل هذا الزمان ، فهو يريد أن يأخذ دوره مائة أو مائتين أو خمسمائة سنة كما أخذ البقية باسم الدين والفتوحات .. والمُسّميات كثيرة.

والعداء بين الذئب الأبيض والأسمر شديد لكنهم لم يتأثروا بل تأثر كل من أيد الطرفين ، علماً أن الذئبين الأبيض والأسمر داخلياً عندهم استقرار كبير فهم يتحركون بالليل والنهار ، ولديهم وسائل الرفاهية والراحة ، ولا يسمعون صوت البراكين ، ولم تصل النيران اليهم ، وهم السبب الرئيسي في انتشار الأدوات المنزلية الحادة في أكثر البلدان ، فترى المتعصبين من الطرفين يستخدمون هذه الأدوات بشكل خاطىء ففشَا القتل والذبحُ في البلدان .

يا ويلهم من رجل التاريخ إنه لا يرحم ، سيكتبُ عن أطباقهم ، وعن أنواع الطبخ الرديء الذي طبخوه فأطعموا الناس فتسمَّمت الأفكار وليس الأبدان ؛ فإن في زماننا الطعام لا يتناول عن طريق الفم بل عن طريق الأذن والأنف كالقطرات والبخور ، إنه التطور سوء منقلب.

والذئب الأبيض يريد نشر الخير في تصوره هُو، ويجب أن نجد رجلاً فاهماً وعالماً بحقائق الأُمور كالذي قُتِل عند الأسد المطرود، وكالعجوز صاحب النَّظارة السوداء الذي مات في بيته قهرًا .. طيب الله ثرى نفسك ونظارتك السوداء يا أُستاذي.

والتسمية بالذئب الأبيض بسبب لون البشرة .. ولكن اليوم هذا الذئب صار لونه مزخرفاً .. واللون الذي على جسده هو اللون الأحمر .. والحروف المكتوبة مشوهة كأن الذي يكتب لا يُحسن العربية فهو الآن قد وضع أصبعًا من أصابعه على رأس فرس النهر ، وعلى رأس الأرنب ، وعلى رأس الذئب الأبله ، وعلى رأس عصفور التين الصغير ، وعلى جانب من الذئب الأسمر ، وهو يحاول أن يضع يده على أطراف الكلب الحائر ، وله قصّاصات الأظافر عند الخنزير، وقد وضع أصبعاً على رأس الكلب الوفي الأَعرج ، وعلى جزء كبير من السمكة ورمى بفضلاته في أرض الثعلب الرمادي ، وعند السلحفاة ودفَنَ بُصَاقهُ في أرض الذئب الذي لا يشبع ، وعند الذئب الهرم ، وعند الثعلب الترابي فهو يكمن هناك ..

والحل : أن **الفاء** الذي يدورُ بشكله ودائرته الصغيرة والنقطة ، وسيطرته الشرعية من هذه النقطة ؛ فالحل هو إزالة النقطة فيصبح الفاء **ميماً** ، والميم حرف مرن ، كأنه يحقق مراد شعب الذئب الأبيض الذي يقف في الطابور الطويل وبيده ورقة استلام الغذاء .. وأمواله تذهب لتصنيع لوازم المطبخ أي الأدوات الحادة ، وتوزع هذه الأدوات عند الذئب الأبله والأرنب والكلب الوفي الأعرج وعلى موائد الذين بيكون زوراً وبهتاناً .. نحن لا نريد بكاءاً بل نريد اقتداءً بأن نتبع الرحمة المهداة ..

فالحل : محو النقطة كي يظهر مُراد قلوب الصادقين على مرآة حقيقة الناطقين لتشرق الشمس على هذه الحضارة العريقة ، وتمحو الأحقاد التي أتت من الفاء هل أنتم موافقون على الحل ؟

الأغلبية : نعم .. فقام صاحب الفروة الحكيم الدرويش وقال :

الذئب الأسمر تحالف يوما وسحب البساط من تحت أقدام خصومه ونال المرتبة وجلس في الحكم منذ سنين طويلة واتفقوا مع بعض أبناء الجلدة ممَّن يُطلقون اللحى لتقسيم المهام .. أنتم عليكم بنشر هذه القراطيس ونحن علينا بحمايتكم .. وهم حلفاء الاسد المطرود منذ العهد الأول ثم دخلوا في حلف قوى مع الذئب الذى لا يشبع ، وقد صنعوا لهم قوة داخلية مع الكلب النائم ، والذئب الأبله ، وعصفور التين الصغير .والثعلب الرمادي والسلحفاة ، وقد أمسكو بزمام السلطة بجميع مفاصلها لهم وحدهم .

أما أبناء الجلدة فيشاركون فى الأمور الصغيرة .. ووضعوا المرأة في القُمقم، ظواهرهم التطبيق وبواطنهم التعليق فقد اتفقوا في الزمن الماضي مع الذئب الذي لا يشبع بإنشاء مراكز للدفاع عن المبادئ ضد الذئب الذي كُسرت رجلاه وقطعت كفاه تركوه، وعندما أرادوا الخلاص ممن عَلّموا ظهرت الطَّامّة .. ودخل الأَمر في القيل والقال، وأصبح الأمر عصيّا، ومجموعة الدفاع قد نقلوا أمتعتهم من جيرة الذئب الذي قد كُسرت رجلاه وذهبوا إلى الذئب الأبيض وقالوا له: أجرنا فأجيروا واستأجروا ضد من أطعموهم ونكلوا بهم ، ومن هنا بدأت قصة العواصف والزلازل والبراكين لأن ماضي فرس النهر هو الذئب المجنون فلما مات تحول الاسم إلى فرس النهر والذئب الأسمر بدأ يتخلى ويريد سحب البساط من تحت أولاده الذين استعملهم في الزمن الماضي وهم سرعان ما تحصنوا

وردوا الصاع صاعين على من علموهم وبهذه الطريقة فإن الذئب الأسمر فقد جناحه العسكري الخارجي، والذئب الأبيض استغل هذه الخطة ونشر ما نشر والقضية إن الذئب الأسمر قد وقع بين شق ناب الذئب الذى لا يشبع ، ومع كل إشراقة شمس يقولون للذئب الأسمر إن الذئب الأبيض سيأكلك فما الحل ؟

أعطنا من صوفك الجميل الأسمر كي نصنع به لفائف تحمينا من البرد ، وهكذا الذئب الأَسمر ينتفُ بشعره للذئب الذي لا يشبع حتى اجربَّ ووقع في شق الناب ، والذئب الأبيض تلوث وخارت قواه وهو يحاول أن يخرج من الرمال المتحركة ..

والحل : تبديل نظام (ف) بنظام (د) الطيبون أهل الثَّريد والسياحة .

وثانيا : أن يقسموا المناصب بينهم وبين أبناء الجلدة ..

وثالثا: من يجلس في الهرم فليرتقي عن الحكم كالأسد المطرود ومن سّن سُنَّته .. هل توافقون .. قالوا: نعم بالإجماع .. ثم ذهبنا لاستراحة الطعام والصلاة وما إن نويتُ الأكل والصلاة ألا وأنا على سطح السفينة والطعام أمامي فأكلت وصليت وأنا أنظر إلى البحر .. وإذا بالشيخ أسامة بجانبي فقال:

قاعدة (٢٨٤)

من الخِدْمة صلةُ الأَرحام ، والدوام على الوِصالِ لمن قَطَعَك ..

وقـــال :

قاعدة (٢٨٥)

البُخْلُ والإِيمَان لاَ يَجْتَمعاَن ، وصلةُ الأَرحام من الكرم ، ولا ترد السائل ، وكن للخير دالاً ، ولا تذكر أحداً وهو غائب ؛ لأَنَّ اللفظ مرن ، والتعريف تحريف للنفوس الواهية ..

فقلــتُ :

قاعدة (٢٨٦)

يا شيخ أسامة : عَلَيْكَ بصلة الأرحَام ، وَعَدَمِ ردّ السّائل ، وعدَم ذكر الناس وتَرْكِ الغيبة ؛ فإنَّها صِفَات الفتوة ..

فقال الشيخ أسامة : وما الفتوة يا سيدي؟
قلت : يا أسامة اسمع بالتدريج :

قاعدة(٢٨٧)

القلْبُ يتقلَّبُ ما بين سَمَاوي وتُرابيّ ؛ فمن دَخَلَ الرياضةَ نالَ الفُتَوة ؛ فسَمَا قلبهُ فيُعطي بلا اعتذار ، ويهْرُبُ ممَّن يشكُرُه ..

فقال أسامة : وما الرياضة ؟؟
فقلتُ :

قاعدة (٢٨٨)

هي البَسيطةُ والوسيطةُ والعَظيَمة ..

الأولى : الجوع ، والثانية : جوعٌ وصوم ، والثالثة : الخلْوة بعد الخلْوة وهى مرتبة كمال الفتوة ..

فقال الشيخ أسامة : نعم يا سيدي المختار الآن فهمت .

وبعد ذلك سلمتُ على أسامة ثم نويت الاجتماع ؛ فما أنا إلاَّ على الكرسي فى قاعة المجلس .. وعندما بدأ الاجتماع قام الحكيم المُعمم ذو العمامة الصفراء ..

وقال : الآن حديثُنا عن **(فرس النهر)** بشكله الصغير وباسمه وهو اسمٌ على مسمّى وهو يملك الأنهر وجمال الطبيعة سهولاً ووديانا وجبالاً وفي الخيرات فالزرع والفاكهة والنخل والأعناب والحدائق والبساتين والروض .

ومن الثروات .. ما فوق الثرى وتحت الثَّرى وما بين الثرى والثريا .. إنه اللغز والمفتاح .. والكل ينظر إلى هذه البقعة ؛ ففي السابق كان اسمه الذئب المجنون فقد قَتَل من أبنائه وأبناء الجيران الكثير .. وعندما مات الذئب المجنون لم يبق من يحكمُه فصار اسمه (فرس النهر) لبقعته وليس لمن يجلس على السُّدَّة .. وهم أقوام وطوائف ومذاهب وأناس بسطاء تستطيع إقناعهم بحفنة من الأرز وبعض الكلمات العاطفية .. مع بعض التهديد والوعيد إذا لزم الأمر .. ولكن تمزَّقوا وصار القط الحائر ينظر إلى القط الذي ابيضَّ ، والقط الذي اسمر ينظر إلى القط الحائر ..

والحائر ينظر إلى الذي اشقرَّ وبينهم قطةٌ صغيرة عمياء .. والكل ينظر إلى من ينتمي (كلوا كلوا .. اشربوا اشربوا .. قوموا قوموا) أليست هذه بلد الأحجية .. وإن الذي حدث عند فرس النهر خلال هذه السنين لم يحدث عبر كل السنين الطويلة عند الأرنب ولا ننسى أن بلد فرس النهر مشهود لها بأنها تُجدد لون تربتها كل فترة من الزمن إلى اللون الأحمر ، والقصص يا حكماء سفينة النية كثيرة من التاريخ ..

فقال الحكيم الدب : وما الحل ؟

فقام الحكيم الضعيف ذو إزار الحج .. الأسمر وقال : الحل في أمرين لا ثالث لهما :

ولايات يتحدّون في الحرب والثروات .. ولكل ولايةٍ قانون ..

والحل الآخر: أن يفترقوا ويُشكلوا إمارات متفرقة مُستقلة وإذا لم يحصل ذلك؛ فإنّ الأدوات المنزلية الحادة ستبقى منتشرة ورائجة في هذه البلاد لتقتيل وتقطيع أبنائها وسيبقون فى دوامة تلوين الجدران والتراب باللون الأحمر؛ فإنّ الأمر عظيم ويجب الضرب بيد من حديد وشوكة من نار على الأيدي التي تلعب بموازين القوى الداخلية وتزيد في النار الحطب ..

هل أنتم موافقون ؟؟

فكانت الموافقة على الاقتراحات بالإجماع .

قال نوح : القُنفذ منزوي ، ومُتَقنفِذ في أطراف الأَرض .. أما الثعلب الترابي فهو قد اتحد مع الذئب الذي لا يشبع وقال : أنا أحد الأحياء في أرضك وتمت الموافقة وقد بنى الذئبُ الذي لا يشبع مقهى في أرض الثعلب الترابي وسَمَّى هذا المقهى بمقهى الأحلام وجميع رواده يعملون بالثراء والغنى والسيارات الفارهة والقصور، وحتى القبور تكون مزودة بأجهزة الكترونية وحوض جاكوزي كي يُداعب جَسَد الميت كي لا يتقرحّ .. إنّه مقهى الأحلام للمتمرّدين .. ولا ننسى أن الذئب الأبيض يملك مقهى كالذئب الذي لا يشبع عند فرس النهر .. وكذلك الذئب الأسمر الكل همه بناء المقاهي والملاهي والثعلب الترابي يؤيد بعض (ف) بوصية الموصي بثلث الثروة والثلث كثير، والمقاهي لها معازف خاصة، أصوات الورق التي إذا عُدّت سلبت العقول .. وجعلت الأفئدة تتجه نحوها من كل فج عميق.

والحل : الانفصال عن الذئب الذي لا يشبع وترك (ف) وهدم المقهى وكفى تدخلاً ليقفوا عند هذا الحد؛ فإن العالم سيتجه لكارثة عظمى عندما تتضخمُ الشمسُ حتى تبتلع جميع الكواكب إلاّ الأرض فإنها تمتد وتتحول من بيضوية إلى مُسطحة بفعل الحرارة .

فقام الزعيم القزم ؛ لأن المجلس كان فيه خمسةُ أقزام زعيمهم هو الأقرع ذو العين الواحدة .

قال: الثعلب الرمادي كالجمرة تحت الرماد، ظاهرهم المودة وباطنهم دق المسمار الأخير في النعش، وهم يقولون نحن أبرياء ولا نفهُم في النِّجارة، والحق أنهم مهندسو اللعب بالبيضة والحجر وإسقاط الثآليل من على جلدة الجبين وهم لا يتحركون إلاّ بإذن من الأسد المطرود والذئب الذي لا يشبع ..

والحل : أن يفترقوا أو يكفوا ويتجهوا إلى الخير ويصنعوا خيم الأَعراس بدل النعش والتابوت .. والسلحفاةُ معهم ومع غيرهم وتقول للكل : نعم .. ولا تبحث عن الضوضاء فهي حكيمة بطبعها الانطوائي وهكذا القضية .

ولحد الآن لم يُطلب منهم أمر حقيقي .. وفي الماضي كانت لهم صولات وجولات مع الذئب الأسمر حتى استقر الوضع عندهم، وطردوا الذئب الأَسمر ، ولا ننسى أن العداوات في القسم الأوسط بين الأول والثالث كثيرة ، فالثعلب الترابي خصم للذئب الأسمر .. والكلب المسعور السمين عدو للأسمر والترابي وهكذا .. وأما السلحفاة فسيبرز دورُها عندما يشيعوا جدَّهم الأكبر.

ثم قال نوح: يا حضرة المختار : إن الكلب المسعور السمين قد تعفّن وتمزَّق حتى صار دولاً داخل الدولة وهم كحبة الخردل .

فقلتُ يا نوح : إنهم قَلَعوا شعرةً من جلدة إبهام قدم الذئب الذي لا يشبع فكيف يرتاحون ، انتظر فالقَتال آت ؛ فنادى العجوزُ الهرم ذو القرن في جبهته : وما هو الحل يا سيدي المختار؟

قلتُ : صُلحُ القبائل أو ضَرْبُ القنابل لا ثَاَلث لهما ..

قلـتُ : وأما الخنزير فقد رحل .. وهم الآن في سكون وإن شاء الله لا تهب العاصفة عليهم فيكونوا في مأمن من المنخفض القادم.

فقال نوح / يا سيدي المختار : ما العمل مع الدُّب ؟ قال حَلُّهم أن يفترقوا ويُكوّنوا دُولاً..

فقامت العجوزة الوحيدة في هذا الاجتماع ؛ فإذا بها العجوز الأُم .. فرفعتُ يدي لها وقلتُ لها يا أمّاه ؛ فقالت : اسكُت يا مختار ليس الآن .. إن الذئبَ الأبله قد تمزّق ما بين الذئب الأَسمر والذئب الأبيض ، والذئب الذي لا يشبع ، وبين الثعلب الترابي وفي السابق الكلب المسعور السمين ، والأسد ذو الفم العفن يتدخل بين الحين والحين ؛ فإنهم يتقاتلون ولا يملكون شيئا ، والنتيجة خراب ودَمَار وجوع وفقر وضياع ولا شيء.

والحل : التقسيم والاتحاد ، اتحادٌ في المال والحرب .. وتقسيم في الإدارة و القانون.

وأما الكلب الحائر وفي السابق كان الكلب الماضي وفي ماضي الماضي الكلب فقط ؛ فالأسد ذو الفم العفن يُريد أن يستقطع منهم أرضًا، والذئب الذي لا يشبع يُريد استعمالهم ، والذئب الأبيض له أطماع .. ويُريد أن يعود فيغسل جَسدهُ الملوث بتُراب أرضه ، والذئب الأَشقر يُريد أن يعمل في صناعة التابوت لهم والثعلب الترابي قد أمسك منشاراً كبيراً بأمر الذئب الذي لا يشبع كي ينشر الكلب الحائر إلى نصفين أو أكثر ، والكلب يحتاج المشورة ويتخبَّط .

والحل: سيدي المختار ..

فقلتُ يا أُمّاه : إنّكِ أعز الناس على قلبي، وما جُلوسي ها هُنا إلاّ بفضل يديك .. يا ليتني أُعفّر خدي بتراب نعليك يا أماه .

الحل: أن يتصالحا الكلب الحائر والكلب الماضي ويضعون المصالح الشخصية جانبا وينظرون إلى الفقير والجائع والمحروم ، ويثبتون العلم ، ومن تسدَّى سدة الحكم نجعل فوق رأسه الحكمة، وأن لا يتدخلوا فى شؤون الكلب المسعور السمين، وأن لا يسمعوا كلام الثعلب الرمادي والذئب الأسمر وليحذروا من الأسد ذو الفم العفن؛ فإنهُ يحتاج قطعة أرض مهمة هناك ..

يا أمَّاه ندعو للكل أن يهتدوا بهداية الأثر وأن يكفّوا عن بعض ويقلعوا أنيابَهم.

يا أمّاه : إن المشكلة في الأسد المطرود ، والنمر السليم ، والذئب الذي أصله قط ، والذئب الذي لا يشبع ، والذئب الهرم.

يا أُمَّاه : إن مشاكلنا أننا لا نعرف الحُقوق .. ودخلنا العقوق .. وها نحن ندفع الثمن..

يا أمَّاه : إن الذئب الذي لا يشبع يعمل في صناعة النعُّوش منذ سنين طويلة، وبدأ يدق المسامير في هذه النعوش.
يا أُمَّاه : الأَسد المطرود كان يوماً سيد العالم ، أَمّا اليوم فهو تحت المظلّة .
أما الذئب الذي أصله قط فقد فعل في الماضي الكثير .. وهو اليوم ليس لديه إلاّ بعض العَويل.

يا أماه : النمرُ السليم يتفرَّجُ من على ربوة ، وفي الماضي قد أجرى أنهراً من الألوان الحمراء والصفراء ، والأسد الأليف يتربَّص لأنه نائم في شكله ويقظ في حقيقة الأمر وعندما يظهر سيظهر بقُوة..
يا أُماه / والبقرة تسمن على حساب صغارها ، والخفّاش يتخبَّط في النهار ، وفي الليل يسير .
يا أماه : والحية قد وقعت بين الذئب الأبيض
والذئب الذي كُسرت رجلاه وحدث فيها ما حدث.
يا أماه .. إنّي متعب واشتقتُ إليك كثيراً ، وإلى السوق .. وإلى يوم الإبريق .. وإلى أولادي وزوجتي .
ويا أماه : إن الكل يبحثُ وراء الكل ، والكُل قد دخلوا التيه والزمان يدور ، فالنمر النائم والنمر السليم والأَسد الأليف هم الذين سيقودون الغَابَة ، وينشرون الرعب إذا لم نقف ونُصحح المسار ونتبع المنهج السليم ...
يا أُماه: دعينا نجلس على سطح السفينة ونشربُ شرابَ الزبيب ؛ فنويتُ فكنتُ أنا وأمي على حافة السفينة .. وأمامنا شراب الزبيب .. وما إن شربتُ إلاَّ وأَنا على راحلتي متجهٌ إلى المدنية المنورة ..

المشكـــــاة

وأنا أسيرُ إلى المدينة على ناقتي الورقاء تذكرتُ تعلقَ الناقة بسيدنا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم ، وتذكرتُ جذع النخلة كيف حنَّ إليه صلى الله عليه وآله وسلم .

وعندما بدأتُ بالاقتراب زادت نبضاتُ قلبي وحدثت لي حالة لم تحدث من قبل ، وَبَدأتُ أرتعشُ وَدَخلْتُ المدينة وأنا على هذه الحال .. وعند الوصول نزلتُ عن ناقتي ، وعَفّرتُ خَدّي بتُراب المدينة الطَّاهر لعلي أحظى بموطأ قدم الحبيب سار يومًا من هنا ؛ فَهَدأتُ واتجهت إلى أماكن المبيت فاستأجرت غرفة ومكانًا لناقتي .. واتجهتُ إلى المسجد النبوي .. وكانوا يُصلون صلاة المغرب ؛ فدخلت في الجَماعة وصلّيتُ وأتممتُ صلاتي ثم توجهتُ إلى مكان خلف دَكّة الصُّفّة .. أي مقابل قدم الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم .. وبَدَأْتُ بالصلاة على الحبيب ودموعي تنهمر شوقا وحُبًّا .. وبدأت أسلم وأصلّى وأنا أتذكر حديث سيدنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : "ما من أحدٍ يُسلّم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام" ..

فأحسستُ بالطمأنينة والسكينة والقشعريرة وكأنَّ نسمة هواء تهُب عليَّ ، أو بلل أصابني من رأسي ورقبتي وأكتافي وصدري وأَذرعي وخاصرتي وأفخاذي وأقدامي وأحسستُ بمسامات جسمي قد تفتَّحت .. والشعر كأنه سنابل القمح وقد فاقت من سباتها ؛ فرأيتُ نفسي في ذات المكان الذي أنا فيه ، وكأنّ رسول الله يجلس على دكة الصُّفة مع أهل الصفة والمكان تراثي قديم .. والحديث عن الصلاة والعبادات وعن من يأمون الناس والخطباء ؛ فابتسم في وجهي فقمت حياءاً وعندما قمت شاهدتُ نفسي في مكاني في المسجد فأخرجت قلمي وقرطاسي كي أكتب ما فهمتُ عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الغَفْوة .. أهي حقيقة أم رؤيا ؟؟

فكتبتُ ما فهمت : هذه القاعدة :

<u>قاعدة (٢٨٩)</u>

صَلاَةُ الفَجْرِ جُزْءٌ مَنِ الْإِمَامِ فِي جَمَاعَةٍ، والخَطِيبُ وَإِن تَخَلّى فَفِي الفَرْضِ يلْتَزِم ؛ فالإمامُ مُعَلِّمٌ وخَطِيبٌ وخَلِيفةُ الْمِشْكَاة ..

ففهمت من القاعدة أنّ الإمام هو الخطيب وخادم المسجد وخادم الناس والأب والقائد في الفروض والصلوات فهو خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أما من امتهنَ الخطابة فلا حرج عليه فهو يُؤدي وظيفة مقابل أجر.

وأما القاعدة الأخرى :

قاعدة (٢٩٠)

نَوَافِلُ وإن اِرْتَقَتْ بِالتَّهَجُّدِ وَالْإِطالَةَ والخُشوع، مَانِعَة لِلْفُرُوضِ كَفَجْرٍ وركعتيها خَير مَنِ الدُّنْيا وَمَا فِيهَا فَإِنَّهَا قَدْ سَقَطَت ..

فهمتُ من هذه القاعدة أن الرجل يصلي الليل ويُسبّح ويقيم ؛ فإذا وصل إلى وقت الفرض الحقيقي الفاصل ما بين الهوى والجد نام ؛ فإن كان لمرة فتُغْتَفر ، وإن كانت عادةً فليس له التهجد وعليه إثمُ الفرض .

والقاعدة الأخرى :

قاعدة (٢٩١)

العباداتُ رُكنُها الزَّمان، والمكانُ شَرطُها،

كالصلاة مواقيت تُودَّى في الأرض المُغتصبَة وتُعاد، وكعرفة زمان، والمكانُ مُباح ..

فهمتُ من هذه القاعدة أن الزمان هو الركن الأساسي للعبادات والمكان يكون حقيقيًّا ضمن الزمان ؛ فجبل عرفة مكان لعرفة عند الزمان وهو وقت الحج المعلوم ، وكذلك الصلاة في الأرض المغصوبة إسقاطُ فَرْض وتلزم الإعادة..

إذاً : نحن ترتبط بالزمان والمكان ؛ فالوقت مهم ، وخارج الوقت ليس مهماً إلاّ أماكن خصَّها الله بالبركة والمباركة وفيها خلاف ..

ولكن الحقيقة أنّ على الأرض بقعًا مباركة خصها تعالى بالبركات ..

وبعد إتمام صلاة العشاء وعند خروجي سَلَّم عليَّ رجل هيئتهُ هيئة التجار فرددت السلام .

وقال : ءأنتَ من العراق ؟

قلتُ : بل من الشام .

فقال : مرحى بأهل العراق وأهل الشام فهم أهل العلم والعلماء ؛ فقال: إنـي أدعوك لتناول الطعام معي، فقبلت دعوته، وذهبنا إلى بيته وفي الطريق سألني : ما تقول في السير والسلوك ؟

فقلتُ : السلوك : الاتباع والالتزام والأخلاقُ والخُلُق الحسن

والسير : هو التوجه إلى الله في تحقيق الاسم لا الرسم .

فسألني : وما الرسم .. وما التحقيق ؟

فسألته : يا حاج سِرْنا مع بعض ، ولم تسألني عن اسمي ولم أسالك ..

فقال: أنا الحاج جمال ..

فقلت : وأنا رفيق ، فقلت يا حاج : هل عندما قلتَ جمال أو رفيق وجدتَ صعوبة ؟

قال : لا ..

فقلت هكذا اللفظ يُصوّر الشيء .. ولا يُعّرف الشيء بالكلية .

فعندما قلت : أنا رفيق لم تعرفني .. لكن عندما قلتُ : أنا رفيق وكنتُ أعمل تاجراً ولي وظيفة وعرفتك بنفسي وأحوالي ونسبي وحسبي فإن الصورة قد تكتمل ، ومعرفة الصفات والالتزام بالأوامر والنواهي والتأمل والتفكر في **خَلْقِه** دون ذاته أول التحقيق.

فظهرت الابتسامة على وجه الحاج جمال وقال : بارك الله لكَ يا شيخ .. والله توسمت فيكَ الخير ..

ونحن نسير باتجاه بيت حاج جمال كانت البيوت بعيدة عن بعض كأن الطرق تفصل بينها وهي بيوت من طين .. طابق واحد .. سقوفُها من عمدان الخشب ، وقد خرجت مسافة ذراع إلى الشارع مغطاة بالحصير ، ، وقد ثُبتت بالطين ، والأبواب من ألواح الخشب .. ولا يمكن التمييز بين البيوت كأنها تتشابه .

وصلنا إلى بيت الحاج جمال فطرق الباب كأنه يخبر أهل البيت أن معي ضيوفًا .

فدخلنا البيت وإذا بساحة كبيرة في نهايتها عدة غرف ، وفي وسط الدار مظلة دائرية الشكل من الحصير وبعض عمدان الخشب ، فرحب بي وأجلسني تحت المظلة ومازال يُرحب .

ثم اتجه إلى غُرف البيت ، وفي بناء البيت وتحت المظلة وأركان البيت قناديل للإضاءة وهي تُضيءُ المكان .. ومنظر الدار جميل جدًّا .. والقناديل موجودة حتى في الطرقات بين البيوت .

ولم أشاهد هذا النظام والترتيب لا في الشام ولا بغداد ولا مكة ولا المدينة إلاّ في هذا الحي (حي التجار) .

وعاد الحاج جمال وجلسنا قليلاً ثم أحضر الطعام فأكلنا ثم صلينا العشاء في مسجد قريب على الدار ، ثم عدنا إلى البيت ، فقلتُ للحاج جمال : يجبُ أن أذهب إلى البيت ، فقال : نتسامرُ ويأتي بعض الأصحاب بعد قليل فجلسنا قليلاً وأثناء الجلوس أكملنا الحديث عن السير والسلوك والتحقيق ..

فقال لي : كيف يصلُ المرء إلى التحقيق ؟

فقلتُ : يا حاج :

قاعدة (٢٩٢)

إِفْرَاغُ القلب، وَكَفُّ اللِّسَانِ عَنِ النَّاسِ ..

ثم قال : زدني .. فقلت له اسمع :

قاعدة (٢٩٣)

الْعَزْمُ فِي الْفَرَاغِ شُغْلٌ،

وَبدونِهِ بَلِيَّة تَنْقِصُ وتُقَصْقِصُ مَا بَنَيْتَ ..

واسمع وانتبه :

قاعدة (٢٩٤)

فَرَاغُ القَلْبِ لِلعَاشِقِ نِعْمَة ..

فسأل الحاج جمال : كيف نسير في طريق الحقيقة ؟ وهنا طرق البابَ ثلاثة أشخاص فدخلوا ورحبنا بهم وجلسوا .. وأحضروا لهم صحنًا من الفاكهة .. وصحنا من الحلوى.

ثم قال لي الحاج جمال : لنعد إلى الحقيقة .. والسير في طريقها .. فقلتُ له :

قاعدة (٢٩٥)

تَلْبِيَةُ النِّدَاءِ وَدَوَامُ الْفُرُوضِ وانتِظَار النَّوَافِلِ

عَيْنُ الحَقِيقة ..

فتكلم أحد الرجال الثلاثة وهو الأسمر ذو اللحية البيضاء وكان يحمل معه مَسْبَحة ، وما إن جلس إلا ويسمعنا وُيسبِّح وعند الترحيب قال لي : اسمي النُّوري .. وكانوا ينادونه بالشيخ فقال : الذي يسيرُ في طريق الحق فليطبق هذه القاعدة فإنها مفتاح طريق الحقيقة :

قاعدة (٢٩٦)

ذَمُّكَ سَبَبُ تَرْقِيَتِكَ ،

فإنْ حَزِنْتَ فإنَّ الدُّنْيا قَدْ نَالَتْ مِنْكَ ..

ثم قال : اعلمـوا :

قاعدة (٢٩٧)

بَيْنَ الْفُرُوضِ فَرْضُ التَّفَكُّرِ بِهِ ، لِصِفَاتِهِ لَا لذاته فَعَدَمُهُ جِنَايَة ، وَالتَّمَادِي كُفْر ..

ثم قال الحاج رفيق واسمهُ على اسمي وهو من تجار السوق .
قال : سمعت من شيخي وهو من العُرَفاء :

قاعدة (٢٩٨)

القَلْبُ والوَقْتُ وَاحِد ،

دقةٌ بدقة ؛ فَمَن وَافَقَ وَقْتُهُ طَاعَةَ ؛ فَقَلْبُهُ السَّاحَة

فقلنا بصوت واحد : الله الله الله ، فوالله هو كلام دقيق لا يخرج إلا عن صاحب التحقيق .

ثم قلتُ لهم : سمعتُ يومًا من أهل السبيل وأنا في سفري سألني : من أين لك هذا الثوب الذي كنتُ أرتديه فقلتُ : هو مِلْكي ..

فقال : أخْطَأتَ .. فَالكُلُّ في مُلْكِهِ مِلْكُهُ .. وقال :

قاعدة (٢٩٩)

مَنْ جَزَّأَ فِي مُلْكِهِ بَاسمه وَلَوْ بقميص مَا صَفَا قلْبُهُ إلاّ الكُلُّ مِلْكُهُ ..

فقال الشيخ النوري : لماذا يتهمون أهل الطريق بالحلول ؟؟

فقلت لَهُ : يا شيخ إن الناس من أهل الغلو لا يفرِّقون بين الحلول وعين الجمع، فالحلول كفر محض ما من رجل يقول به إلا وهو ليس منا ولا

علـي أمرنـا وقد خـالف الكتـاب والسـنة ، ولكـن عـين الجمـع هـو أن تُفْنِـيَ نفسكَ في البحث وجمع السُّنة والتطبيق والجوع والسَّهر والسير والسياحة والجذب والوله والعشق والنطق والسماع فقد تفرقت بين هذه الأمـور .. إذا أنتَ جمعتَهَا ثم تجلس للوعظ فقد وصلتَ عينَ الجمع واسمع القاعدة:

قاعدة (٣٠٠)

الْحُلُولُ وَعَيْنُ الجَمْعِ مُتَنَاقِضَانِ مُتَضَادَّانِ لاَيَلتقيان ،

الْأَوْلُ : الْكفرُ الْمَحْض ، وَالثَّانِي : التَّنْزِيهُ وَالتَّوْحِيدُ بِعِلْم ..

فقال الحاج أحمد ثالثُ الثلاثـة : إنـي سمعت مقولـةً تُنسب إلـى الشيخ محيي الدين بن عربي وهي : **(بسيطُ الحقيقـة كـل الأشـياء)** ويقولـون إنـه دليل على إيمانه بالحلول.

فابتسمتُ وقلتُ : أين سمعته يا حاج ؟

قـال : كُنّـا فـي مجلـس .. وقالـه أحـد المشـايخ الـذين يتكلمـون فـي علـم الرِّجال.

فقلت : يا حاج اسمع :

قاعدة (٣٠١)

كُلُّ الْأَشْيَاءِ حوادِثَ، وَاللهُ لَيْس بِحادِثِ ..

واسمع :

قاعدة (٣٠٢)

بَسيطُ الْحَقِيقَةِ الدَّليلُ بِهِ إِلَى كَامِلِ الْحَقِيقَةِ ؛

فَمَنْ تَعرَّفَ على الْآثَارِ فَقَدْ عرف نَفْسَهُ وعرف رَبَّهُ ،

وَهوَ الْمُؤَثِّرُ الحقيقيُّ فِي كُلِّ الأَشياء ..

وبالحقـائق البسـيطة تتكـون الحقيقـة كـي نصـل إلـى التنزيـه ، وذكـر الـشيء يعني الدنيا، وما فيها، وما حولها من هذا الطبق الذي أمامك من الحلوى إلى النجوم العوالي، والله ليس شيئًا من الأشياء **..**

فمـن يـتهم الشـيخ فهـو مـتهم .. وعلمـه نـاقص فقـد تعلـم نقدَ الآخـرين ونـسي نفسه.. واعلموا :

قاعدة (٣٠٣)

أَنَّ مَعْرِفَةَ الرِّجالِ بِالشَّرَفِ وَالْمَقَام، وَمَكَانَتُهُمْ بِالشَّغَفِ وَالْحال ..

وإنّي سمعتُ من أمي العجوز مُرشدتي وصاحبة القنديل في هذا الدرب وحكيمة الحكماء في مجلس الحكم قالت :

قاعدة (٣٠٤)

مَنْ كَفَّ نَفْسَهُ المطالبَ،

كَانَ عِنْدَ الْبَابِ ، إذا دَقَّ دَخْلَ ..

فقال الحاج رفيق : عندي سؤال عن النَّذر ولا أقصد نذر الصوم والعتق والنحر بل من نذرَ نفسه لله ..

فقلتُ : اسمع يا رفيق : سمعتُ من أهل السبيل يقول :

قاعدة (٣٠٥)

النَّذْرُ عَهْدٌ خَطِيرٍ ، وَعَدَمُ الْوَفَاءِ بِهِ نَقْضٌ ؛

فَمَن اضطر لِنَقْضِ الْعَهْد فَهُوَ لَيْسَ من الرَّجال ..

فبكى الحاج رفيق وتألم كثيراً ، ولم نسأله عن سبب البكاء ..

ثم سأل الشيخ النوري : من هو المُريد ؟

فقلتُ له :

قاعدة (٣٠٦)

الْمُرِيدُ يَسْمَعُ وَلَا يَتَكَلَّم ، وَيَصْحَبُ الْمُصْلحينَ ، وَهَمُّهُ الاقْتداءُ ، وَيَزُورُ الْقُبُورَ، وَيَتَذَكَّرُ الآخِرَةَ ، ويكونُ فِي دَوامِ الْخِدْمَةِ، وَشُغْلُهُ الذِّكْرُ، وَيَأْخُذُ حَظَّهُ من الدُّنْيا ..

فقال الحاج جمال /

هل المال والجاه يمنعان الوصول ؟

فقلت له :

قاعدة (٣٠٧)

من كان ذو مال وجاه ؛ فتَواضَع وزَهِدَ وأنصفَ بالحُكْمِ رفعهُ اللهُ وأَطعمهُ وكَسَاهُ وألبسهُ ثوبَ الهيبة .

الشيخ النوري : ما هي العلاقة بين العلم والعمل والتوفيق والأدب والإخلاص.
فقلـتُ :

قاعدة (٣٠٨)

العِلْمُ بلا عملٍ كالنقْشِ على الماء لا على الحَجَر ، والتوفيقُ دون إخلاص كلمسِ النَّارِ بلا إحْسَاس ، والإخلاصُ بلا أدَبٍ كالوَلَدِ بلا نَسَب ، فالإخلاصُ أدَبُ العلم وتوفيقُ العمل ..

وبعد هذه الجلسة المباركة .. وهذا الحوار الشيق استأذنتُ من المجلس لأعود إلى الخان .. وفي طريق العودة مررتُ بجوار المسجد النبوي وسلمتُ على الحبيب ، وبقيت أردد الصلوات حتى وصلتُ غرفتي وآويتُ إلي فراشي .

طالب

بغداد / يوم الجمعة / بعد صلاة العصر

طرقتُ البَابَ ، ولكنَّها لم تكن مُغْلقةً فسمعتُ صوت السيد يقول : تَفضّل يا بني ففرحتُ بهذه الكلمة.
فقال : اصنع الشاي .. فلديَّ أوراد ما بين العَصْر والمغرب ، إنه يومُ الجُمُعة يوم الصَّلوات.
وأنا أصنع الشاي كان السيد يذكر ولكني لا أفهم الكلمات ؛ فالصوت كالهمس ، وكأن الحروف تُلامس هواء الغرفة فلا أسمع إلاّ كأزيز المَاء عندما يبدأُ بالغَليان .. ثم قال : إننا اقتربنا من نهاية الحكاية .. وأُريد منكَ

أن تكتب قواعد العشق كـي تُتم مراحلَ أهل العرفـان لعل الأيـام القادمـة تُفرِّق بيننا .

قال اكتب : ثم قال / رحم الله (سَمْنون) وقرأ الفاتحةَ ثم قال :

قاعدة (٣٠٩)

إِصْلاحُ الْعَيْشِ، وَدَوامُ الصِّحَّةِ بِتَرْكِ الْمَعَاصِي، وَرَاحِلَةُ الطَّرِيقِ العِلْمُ، وَالثّباتُ بِالنِّيَّةِ، وَالظُّهورُ بِالْعَمَلِ،

والكُلُّ تَحْتَ مَظَلَّةِ التَّوْفِيقِ ..

يا بنـــي :

قاعدة (٣١٠)

إنّي أتبرأُ منَ الشيء، وأتخلّى عن كُلِّ شيء،

وأتحلّى بالطّاعةِ للذي ليس كمِثْلِهِ شيء ..

يا بنـــي :

قاعدة (٣١١)

لا تَطلب الاخْتِبَارَ حَتىَ وَلَو كُنْتَ فيَ مْرحَلَةِ الأخيار ؛

فإنَّ التَّجرِبَةَ ضَياع ،

حتى وإن كُنتَ في سَنَام الأمر ..

يا بنـي :

قاعدة (٣١٢)

الأَمرُ صَعْبٌ، وَالطَّرِيقُ يحْتَاجُ إلى رَفيقٍ وَتَدْقيقٍ لِلأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ؛

فَمَنْ أرادَ النّجاةَ غَسَلَ ثَوْبَهُ مَنْ عَلائَقِ الدُّنْيا ،

فَإن فَعَلْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ تَحَقَّقْتَ ..

واسمــع :

قاعدة (٣١٣)

الدَّاعِيَةُ يُصّورُ الدّينَ عَمَلًا لَا قَوْلا ؛

فَإِنَّ الْعَيْنَ تُثْبِتُ مَا ترى ، والأُذُنُ سُرعَانَ مَا تَمْحو .

يا غُلام الجفا :

قاعدة (٣١٤)

احْذَرْ مِمَّنْ نَال من الدِّينِ فَاتْرُكْ مَجْلِسَهُ ، وَلَوْ بَذَلْتَ نَفْسَكَ رَخيصَة ؛ فَإِنَّه كَمَالُ الْإِيمَانِ ..

يا بنـــي :

قاعدة (٣١٥)

الْعَاقِلُ يَتَصَبَّرُ وَيَجْعَلُ الصَّبرَ دَيْدَنًا لَهُ كَالْشَّهِيقِ وَالزَّفِير ؛

فَللغَيْبِ مَفَاتِيح ، وَلِلأَخْبَارِ أبْواب؛

فَأَخْفَى اللّهُ الْمَفَاتِيحَ ، وَأَظْهَرَ الأَبْوَاب،

وَمِفْتَاحُ الدُّخُولِ الصَّبْر ..

واعلم أنَّ في هذه القاعدة سرًّا :

قاعدة (٣١٦)

لا تَدْخُلْ في الفتنة، وَلا تُظْهِر عَيْبًا؛ فَإِنَّ من أُصولِ الخِدْمَةِ السَّتْر والإِعْرَاض وتعطيلُ الحواس ..

ثم قال لي : اسقنا الشاي ..

وأنا أقدم الشاي قال السيد: تذكرتُ طفولتي عندما كنت أجلس في مدرسة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ثم أنتقل إلى مدرسة الشيخ الخلاني وما بين المدرستين كان بيت الحاج عطاء صاحب القراءات ، وكنت أعمل في تغليف الكتب في سوق قريبة من ساحة معروف الرصافي ...

فكنتُ عندما أجلد الكتب أقرأ ما يُمكن لي منها وقد قَرأتُ أكثر من (٣٠ ألف) إلى (٤٠ ألف) كتابًا في مختلف الفنون ، وجَلَسْتُ في المدرستين وسمعتُ من الحوزتين ، فما ذقت حلاوةَ الإيمان إلا عندما صفا فؤادي ، وغسلتُ خلجاتي بماء وضوء السماء فما توضئتْ السماءُ لتؤدي تسبيحتَهَا إلا ووقفتُ تحت الضوء رافعًا يدي متجهًا إلى القبلة قائلاً : اللهمَّ طّهرني ...

وأردد : إن السماء تُسبِّح ؛ فعندما يأيتها الحال تصرخ بالّرعد ، وعندما يزيد الحال تنكشِفُ لها العوالم بضوء البرق .. ويا بني : إياك أن تُمّزق الدين بين الملل والطوائف واحفظ عنّي كلماتي فالكل سيرحل إلى عالم البقاء ويترك هذه الفانية .. آه ... يا بني إني لفي شوق إلى اللقاء ثم قال وهو يرتشفُ من الشاي .. اكتب:

قاعدة (٣١٧)

من أصولِ العُرَفَاء عيادةُ المريض، وزيارة الأخيار، ورفقة المتقين، والسيرُ مع أهل السَّبيل، وأن تبتعدَ عن القُلُوب القاسية ؛ فإنهم كالسَّيْل يُحطم القريب، ويقلعُ البعيد، ولا يترُكُ في الأرض إلاَّ الدَّمارَ والفزع والهَلَع ..

يا غلام العلـم :

قاعدة (٣١٨)

الظَّالِمُ ظِلُّهُ النَّارُ يَجَعلُ الأَرضَ الخَضْراَء جَرْدَاء،
وأَهْلَ الرِّفْعَةِ أَذلاّء،
وَأهلَ العِلْمِ كالدُّمَى يُحَرِّكُهُم بالمالِ والسَّيْفِ؛ فإيّاكَ من هذا الظل ..

واعلــم :

قاعدة (٣١٩)

طَلَبُ الرِّزق أصلُكَ وأصلُ فروعكَ ؛
فإن طابَ ففروعكَ مُزدهرة ، والذي خَبُثَ لا يخرجُ إلاَّ نَكِدًا ..

وشربَ من الشاي وهو يحدثني عن **الشيخ عطاء** ؛ فقال إن الشيخ قد نصحَهُ فقال له:

قاعدة (٣٢٠)

من بنى حَجَريْنِ على بعضهما بالحُبِّ فقد شيَّدَ منازِلَ الصِّدق ،
والزمانُ لهُ شاهد ،

ويوم القيامة لكل حَجَرٍ لسان ؛ فإيَّاك من الضِّرار ..

وقد قال لي :

<u>قاعدة (٣٢١)</u>

من بَذَلَ النَّصيحَةَ كانَ تحتَ النَّظر، وليتأمل أنَّ الاختيارَ منهُ قريب .

وكان الشيخ عطاء يحذرني ثم يحذرني ويقول :

<u>قاعدة (٣٢٢)</u>

من وَقَفَ على أبواب السَّلاطين طمعاً للدُّنيا ضاقَتْ عليه الأرضُ قبل رحيلهِ إلى الآخرة ..

يا بني : إن الشيخ عطاء كان يُشجعني ويقول :

<u>قاعدة (٣٢٣)</u>

الطَّلَبُ من أهلِ الصِّدْقِ حقٌ ؛

فالنَّاسُ معَادن ، وأهلُ الصِّدْقِ جواهر ،

ومن خَرَجَ عن الصِّدْقِ بخَسَ معدنُه ، والطَّلَبُ منهُ ذُل .

وقال : اعلم علمَ اليقين :

<u>قاعدة (٣٢٤)</u>

الدُّنيا أسَاسُها الرَّتْق ثم الفَتْق ، فَمَا كانت ثَابِتَةً ؛ فإن مِلْتَ إليها فَلَكَ نَابِتَة ..

إن الشيخ عطاء كان دائم الذكر وما إن تأمل إلاَّ وكانت دموعُهُ تسيل على خديه دون صوت وكان يقول لي :

إن أنهيت العلمَ فلا تنظُر في قرطاس ، ولا تذكر للناس أنك نلتَ الإجازة وجالستَ الشيوخ وفحول أهل العلم .. واركن إلى ركن متين (الزهد عن الدنيا) ، فإن فعلت ما أمرتُك كانت لأقوالك وأفعالك من العبادة طعماً وستثمر يوماً بأنواع الثمار، وكان الشيخ عطاء يواصل الصلاة وبين كل صلاة وصلاة .. ويتصل بالذكر وكان مجلسهُ مجلس الأُنس للآخرة .. ومن يذكر أمور الدنيا لديه يقولُ له : خُذ أحمالك وتهنأ

بها فإنّنا في غنى .. وما كان يسمح لكائن من يكون أن يدخل مجلسه ويتحدث بأمور الدنيا ؛ فأن غضب يقول :

قاعدة (٣٢٥)

ابلعْ لِسَانَكَ ؛

فإنَّ الأرضَ تبْلَعُكَ يوماً ، وتُنسى إلاَّ من العمل الصَّالح ..

ثم سكتَ السيد طالب وبدأ يشرب الشاي فقلت له : لقد برد الشاي يا سيدي هل أسخّنهُ لك ؟

قال : كلا .. إن البركة في الطعام البارد .. والحار من فيح جهنم .

فقلت يا سيدي : ألا تكمل لي الحكاية ؟

قال : هل أنت في شوق أن تعرف عن رفيق أو مختار ؟

قلت : أريدُ الحكاية يا سيدي .

قال : سأحكي لكَ غداً إن شاء الله لأني متعبٌ اليوم ، وقد سمعتُ بخبر آلمني وهو تهجير وترحيل بعض الناس بحُجة أنه ليس لديهم وثائق تُثبت أنَّهم من هذا البلد .. إنَّ هذا الأمر مهزلة ؛ فقد رأيتُ الأطفال والنساء يحتجزونهم في جانب .. والرجال في جانب آخر من سجن كبير ثم يأخذون الرجال والشباب إلى جهة مجهولة ، أما النساء والأطفال فيتم ترحيلهم إلى الحدود البعيدة .. وتُسلب أموالهم وبيوتهم وتجارتهم .. كأن الأيام تدور على أبناء الجلدة ، والبارحة على أناس كانوا يعيشون على هذه الأرض منذ مئات السنين ثم أخذوا منهم ما يملكون وأخرجوهم بثيابهم وتقاسموا الأموال .

هذه البلدة أحوالهم متغيرة كأنها الفصول الأربعة في اليوم الواحد ، وكأن التاريخ يجتمع ويجدد الصور في هذه البلدة ..

كنت يومًا أبحثُ عن صُرَّة الأرض .. هل هذه البلدة هي صرة الأرض ؟!

لأنّ الحكاية تقول : إن كل أحداث الأرض تدور في صرة الأرض .. كجسم الإنسان كل أعضائه ترتبط بصرته .

يا بنـــي :

قاعدة (٣٢٦)

إِيّاك والظُّلم ومعاشرة الظالمين وأهل الظلم ، وأن تسمعَ ما فيه الظلم،
أو تسمح لنفسك أن تنطقَ بلفظٍ فيه الظُّلم والظلام ،
وكُن نقياً طاهراً ..

والآن اتركني .. وغدًا سأكمل لك الحكاية ....

واستقبَلَ القبلةَ وهو يُصلي على النبي والآل وبدأ باهتزازةٍ بسيطة من يمينه إلى جهة قلبه .. وهو يصلي على النبي ثم خرجتُ من عنده وأنا أسير إلى البيت وكأنني كبرتُ خمسين سنة...

الـفُـرسان

ذات يـوم مـن الأيـام سـألتُ السيد طالـب : كيـف الخـلاص مـن الأنفس التي كان قد ذكرها لي سابقاً ؟؟

فقال السيد : يا بني إنَّ حروف اللغة العربية لها ترتيب رقمي : (فأبجد هوز حطـي) مراتـب الآحـاد مـن الواحد إلـى العشـرة ، (وكَلِمُن سَعْفَص) مرتبـة المئـات مـن عشـرين إلـى تسـعين ، (وقرشـت ثخـذ ضـظغ) مرتبـة الألوف من مائة إلى ألف .

الله حروفها (٦٦) ولـدينا قاعدة المثلث حيث العدد يطـرح منـه الـرقم (١٢) ويقسم الناتج على (٣) رمز المثلث ، والباقي هو المفتـاح ، فنرسم شكل المربع ونقسمهُ بخطـوط الطـول والعرض إلـى تسـع مربعـات داخل هذا الشكل المربـع ، ونضـع الـرقم البـاقي مـن الطـرح والقسمة فـي أسفل المربع ، في المربع الصغير المتوسط بين المربعين الصـغيرين ثم نزيد عليـه واحـداً ونكتـب الـرقم فـي أعلـى المربـع فـي الـركن اليمـين ثـم نكتـب بزيـادة واحـد الـرقم الثالـث فـي الجانـب الأيسـر مـن المربـع فـي المربـع الصـغير الوسـط ثـم نكمـل المربـع الـذي فوقـه بزيـادة رقـم واحـد وننـزل بميلان إلى آخر المربـع ، وكـل مربـع صـغير يزيـد رقـم واحـد ، ثـم نكمـل المربع الصـغير الذي فوق آخر المربع ، ثـم الجانـب الأيسـر لأول رقـم قد وضـعته فـي المربـع الصـغير ، ثـم آخـر المربعـات الصـغيرة فـي الأعلـى ومنـها الرقم الأخير بزيادة (١) وهـذا المثلـث إذا لـم يكـن لـديك أرقامًـا مـن أسماء فإنك ستضع فيه في العدد (١) إلى (٩) بنفس الترتيـب دون تكـرار الرقم .. وتكون جميـع الإضـلاع عرضـاً وطـولاً وميلانًـا تسـاوي : العـدد (١٥) وعندما نضـع بالترتيب الرقم الباقي من لفظ الجلالـة أي رقـم (٦٦) طرح (١٢) ÷٣ = (١٨)

ثم تزيد رقماً واحداً في كل خانة فيكون بعد (١٨) العـدد (١٩) وهكـذا ، وتكمل المربع المقسم فـي داخلـه إلـى تسـع مربعـات صـغيرة ويجـب أن تخـرج جميـع الأضـلاع تسـاوي الـرقم (٦٦) ؛ فـإذا ضـربت عـدد الضـلـع الواحد في الضلع الآخر في آخر الأعداد وهو المغلاق ستخرج عندك قوة رقم الذكر أو ضرب الضلع في الضلع الآخر في بداية الأرقام قوة أخري لهذا الذكر ؛ فأول الأرقام (مفتاح) وآخره (مِغْلاق) وجمع الضلع ضابط /

فضرب الأضلاع الثلاثة المحيط وقوة جوهر القلب ، والعدد (٦٦) إذا جمعتُه يعني ٦+٦ = ١٢ شهراً / ١٢ برجًا ...

فالأعداد مهمة يا بني .. والنبي صلي الله عليه وآله وسلم كان يستغفر (٧٠) مرة ، والله ذكر في القرآن (عليها تسعة عشر) ، والسنين والأيام والمنازل والهداية بالنجم (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) فهذه إشارات للعلم الحسابي والأرقام والعلاقة بينها.

يا بني : إن لكل نَفْس اسم ؛ فالأنفس اثني عشر : الأولى (الجبّارة) ، ذكرها (الله) ، ثم الجامعة (يا حي) ، ثم الأمّارة (لا اله إلا الله) ثم المنتقلة (يا عزيز) ثم المنتفلة (الله الصمد) ثم اللّوامة (يا خبير) ثم الصّوامة (يا جبار يا الله) ثم الملهمة (الله الأحد) ، ثم الملزمة (يا ذا الجلال والإكرام) ثم الساكنة (يا حق) ثم التامة (الله احد) ، ثم المطعية (جبار شكور) .

واعلم أن الأعداد إذا كانت فيها كُسور فَهُناك قواعد أخرى غير المثلث مثل المربع والمسبع والمُسدس ، ومخمس خالي الوسط ، ومثلث خالي الوسط ، ومثلث خالي الجنب وسر التداخل بين الحروف والأسماء ، ولكن أبسط الأشياء هو المثلث ؛ فإذا أخذت اسماً وجمعت الحروف وطرحتَ وقسَّمت وخَرج في الناتج كسور أي لم يخرج عدد صحيح فخذ قاعدةً أبسط : اجمع العدد الذي يخرج مع بعضه الآحاد والمئات والألوف ثم اضرب العدد الخارج في العدد الكلي في أربعة (الطبائع الأربعة) أو (ثمانية) أبواب الجنة ، أو (١٢) (مدار السنة) ، فيخرج عندك في **الطبائع** قوة الرسم .. وفي **أبواب الجنة** قوة الجوهر ، وفي **الأشهر** قوة الرسم والجوهر وهي أقواها .

وهذه يا ينى أمور بسيطة .. وخوفي من الإطالة فإن الإنسان عدو ما جهل ، ونحن أمة كثيرة الاعتراض على بعضها .. وما رأيتُ قصّاباً يرضى عن قصّاب ولا بقالاً عن بقال ، ولا الباعة المتجولين يرضون عن بعض ولا المتسولين ، فنرى الصيدلي هو الطبيب والمشخص وصاحب التحاليل والأشعة ، ويصف الدواء وكل هذه الأمور في (٥) دقائق ، كذلك الفقهاء فالعمائم مرتبطة بالمناصب وساسة الزمان والمذهب ؛ فلهذا عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدي المساوئا فالإنسان يجب عليه أن يجتهد بهذه القواعد ويبني مملكته

الإنسانية من ذاته إلى عَرَضه كي يصل إلى الكمال البشري .. والكمال لله وحده .

واعلم يا بني أن بعد الأنفس هناك المنازل ثم بعدها الأحوال ، وبين هذه المراحل الخلوة مهمة بالتكرار من الأدنى إلى الأعلى ، والسياحة والسفر والبحث عن الحقيقة في أعماقك وأعماق الكون ..

واكتب هذه القاعدة :

قاعدة (٣٢٧)

الدَّرَجاتُ والبلاءُ يسيران جنباً إلى جنب ؛

فطريقُ البلوى مع الصبر والرضا وصول ، وخلوةُ من البلاء مُحال ..

واكتُب هذه الكلمات لا في قرطاس :

قاعدة (٣٢٨)

مَنْ ذَاقَ حَلاَوَةَ الإيمان وَالصّدقِ والإخلاص نَجَا مَنْ هَوَى الْادِّعَاءِ وَدَخل الْفُتُوَّةَ،

فَلا يَعْرِفُهُ إلا الفتى ويكون بينهم التفاوت في زيادة الخِدْمة ..

واعلم يا بنـــي :

قاعدة (٣٢٩) :

من كشَفَ الحيلةَ خَطَّ خطاً من الحقيقة التي خُطوطها كأشعة الشمس لا تُعد بل تُحصى بصدق اللِّسَان ، وإخلاص الجنَان ، وكَسْر النَّفس ، وإخفاء ماحققهُ بإظهارِ عكْسه .

يا بني : إن رفيق صاحب حكايتنا لم يصل إلى هذه الدرجة إلا لأنه كان يملك القلب السليم ، وعرف الحيلة والحقيقة واسمع هذه القاعدة :

قاعدة (٣٣٠)

الحيلةُ والحقيقةُ تُطفىءُ إِحداهما الأُخرى

فمن صَادَفَ كلامُهُ أمراً مِنَ الأخبار سَقَطَ في الحيلة ، إِن فَرِحَ بها أَضَاعَ الحقيقَة، وإن استغفر حَقاً نَالَهَا ..

يا تسعيــن :

قاعدة (٣٣١)

إن جَلَسْتَ للوَعْظ فَسَاوِي بين الأنفُس، وطَهّر القُلوب، فإنْ لم تَفْعل فاترُك الوَعْظَ ..

فسألته : يا شيخي كثيراً ما أسمعك تقول : الفتوة والفتيان والفتى ، فمن هم الفتيان؟ .. قـــال :

قاعدة (٣٣٢)

النَّصِيحَةُ دَيْدَنُهُمْ، وَيعْذُرُونَ الخَلْقَ، و يَقْبَلونَ البَرَّ والفَاجِر ، وَلَا تشْغلهُم الدُّنْيا إِنْ أقبلَتْ أَوْ أدْبَرت ، وَيَحُثُّونَ النَّفْسَ بالتقصير ..

يا بنـــي :

قاعدة (٣٣٣)

أَحْمَالُ الطريق يَحْمِلُها الفتوة ،

والأَحداثُ لَهمُ الثيابُ البرَّاقة، فَصَاحِبهَا اترُك .

يا بني : النظرُ والتلقي والأخذ والسماع والجلوس بين يدي الشيخ مهم جدًّا .. هكذا الطبقات من الصحابة والتابعين وأهل العرفان الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا كل الفَرْق في النظر واكتب هذه القاعدة :

قاعدة ٣٣٤

فَرْقُ الصَّحَابَةِ عَنِ التَّابِعِينَ النَّظَر، كَذَلِكَ مَرْتَبَةُ الطريق بِالنَّظَر ..

والمهـــم هذه:

قاعدة٣٣٥

النِّسْبَةُ العَظيمةُ الرُّؤْيَةَ، ثُمَّ الصُّحبةَ ثُمَّ التلقي وَالدَّرْس، وَقَبُول التَّحَمُّلِ وَالإعْطَاءَ ..

وها أنا جالس على **سفح جبل المقطم بالقاهرة** .. أتذكرُ السيد طالب الذي عاش زمنًا في بغداد .. والزمن لم يحدد لكنه عاش أكثر من نصف قرن وهو على هيئته لم يتغير .. وقد مات السيد في ظروف غامضة ..

وقيل إنهم قتلوهُ / يا أهلاً بالشهادة، وأما المُلا نجم فكان يقول : أتزوجُ في سن التسعين فلمّا أتم التسعين مات في بغداد (قهوة شُكُر)

إنهُ السيد طالب الفقيه الأصولي صاحب علم الحرف والكلام والحساب والخط وغيرها من العلوم .. والدفن سيكون في مقبرة الغزالي / شارع الشيخ عمر والسيد طالب له علامة بل لهُ رمز في مقبرة في أطراف بغداد تسمى (مقبرة محمد سكران).

وأما **السيد حسن** فكذلك قَتَلوه .. لأنه كان صاحب كلمة حق رغم تقدمه في السن .. ودُفن في مقبرة النجف الأَشرف.

وأما **السيد عَبْد** لغز الحكاية فقد اختفى .. وغاب عن الأنظار .. وعندها تفقدهُ الناس وقد كسروا الغرفة ودخلوا للمكان ووجدوا مكتوباً على جدران الغرفة النظيفة جدًّا المفروشة بأكياس الإسمنت الورقية وجرة بسيطة للماء في ركن الغرفة .. وطاق صغير لكن لم يكن شباكًا كأنَّ الحجارة وُضِعَت فأغلقت الشباك ، وجدوا مكتوبًا :

"سيعودُ هولاكو من قبره الرخامي وبيده السيف .. ومع السيف طلقة نارية رحمة لأُناس قد تركوا الله وفرّوا إلى الدنيا، إنّي أرى الدماء في الطرقات "

إنهم أصحاب الفتوة .. إنهم قناديلُ بغداد .. ابتعدوا عن الأنظار والنظر.. وانفردوا بالله تعالى في خلواتهم .. إنهم أهل الدعاء وأهل الكشف والكرامة والاستقامة والنُّبل والطهر ؛ فرحم الله الفتوات الذين نبذوا التفرقة وكانوا يقولون : " القُربُ من الله بالقلب السليم "

وليس بالمذاهب ولا الطوائف والقومية والنَّسَب: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ"

الرحيلُ أو الفراق

في يوم ممطر من أيام بغداد وبعد صلاة العشاء كنتُ في البيت فلم أستطع النوم فخرجتُ أتمشَّى في المطر مُتجها إلى بيت السيد طالب ؛ فوصلتُ عند الباب .. وانحرفتُ شمالاً فبدأتُ أسير وكأنني أتجه إلى شارع رأس الساقية وقبل العبور من الشارع الرئيسي من طرف المدرسة الجيلانية إلى الطرف الآخر شاهدتُ السيد طالب يحمل في يده كيسًا فاتجهتُ نحوه .. وسلمتُ عليه فرد السلام وهو غاضب وقال لي:

لم أنتَ لحد الآن في الشارع في هذا الوقت .. وقت النوم؟

فقلتُ : يا سيد لم أستطع النوم .

السيد : هل الأَطفال يحملون الهُموم ؟ فلم أرُد ثم قال هيا بنا لإيصال هذا الكيس.

فاتجهنا بعكس اتجاه السيارات من جهة شارع الكفاح متجهين إلى ساحة الفردوس، وعند الساحة دخلنا إلى أحد الأفرع فوصلنا إلى أحد البيوت القديمة وكان بابها مكسورًا .

فنادى السيد : يا حاجة زكية .. وبدأ يطرق الباب فخرجت أمرأة عجوز .. فقلتُ في نفسي إن روايات السيد وأحواله تدور حول العجائز ؛ فسلَّم الكيس وأخرج من جيب ثوبه رُزمة من النقود الورقية (فئة ١٠ دينار) ، وفي تقديري أنه كان مبلغًا ضخماً أنذاك.

ونحن نقف في المطر والبلل قد أصابني من رأسي إلى أخمص قدمي، والسيد كأنه رجل المطر ولم يظهر عليه أثر الأنزعاج .. وبعد تسليم الأمانة عُدنا أدراجنا حتى وصلنا إلى دكّة باب الضيافة مقابل المدرسة الجيلانية.

فجلسنا وقال السيد:

قاعدة (٣٣٦)

لا تقل وَاللّٰه ،

واو المعية والتَشْريك مَعَ اللّٰه أَحدًا ، فإنهَّا الإثنينية وهو الشّرك؛ فطريقُ العُرفَاَء توحيدُ الواحد الأَحد ..

وكان همّي أن السيد يُكمل لي الحكاية رغم أني كنتُ في حالة صعبة؛ فقد ابتل ثوبي بالمطر وأصابني البرد وأحسستُ بالجوع والتعب، لكن إصراري على سماع الحكاية أمدني بالقوة كأن البلل هو ماء الحياة عندما تُسقى زهرة قد مُنع عنها الماء.

فقلتُ : يا سيد ألاَ تُكمل لي الحكاية ؟

فقال: لمّا آوى رفيق إلى فراشه كأنه عرف بحالنا أننا لم نستطع النوم فلم يستطع هو أيضًا؛ فقام ولبس الخرقة وعَلّق الإطار .. وبدأ ينظر ورأى الضوء من بعيد ، وهكذا حتى دخل الزوبعة فرأى نفسه في غرفته وعلى فراشه في السفينة .. فنظر إلى ساعة فَوَجَد الوقت وقت الضحى فَقَامَ ونوى التهيؤ للوضوء والصلاة ، وإذا به فوق سجادة الصلاة وقد اغتسل وغيَّر ملابسه .. ووقف على مكان الصلاة المُخصص وبدأ يصلى صلاة الضحى.

ثم يقول رفيق : ولمّا أكملتُ الصلاة نويتُ الصعود إلى ظهر السفينة ، وهذه المرة نويت مؤخرة السفينة وإذا بجموع من الناس في باحة كبيرة وعليها موائد والناس يجلسون حولها ومجاميع على أطراف السفينة يتكلمون ؛ فسلّم عليَّ رجل قصير القامَة باللغة العربية الفصيحة قائلاً : مرحبًا يا مختار فقلتُ مرحبًا ..

وكوني أعمل في سوق الحميدية منذ فترة طويلة فقد مر عليَّ أشكال من البشر ، فعرفته من ملامحه ولكنني رددتُ سلامه وقلتُ :

من أي البلاد أنت؟

قال من بلاد الصين .. وقد التحقتُ بسفينة النية كي أُدافع عن هذا الدين بالكلمة الطيبة والقول الحسن ، والرفق بأنفسنا والناس.

فقلتُ : ما عملُك يا أخي ؟

قال يا سيدي المختار : أنا اسمي محمد وكنتُ أعمل مؤذنًا وخادمًا في مسجد (تشنجياو) ويعني بالعربية (العنقاء) وهو في مدينة (هانتشو)

ويا سيدي إن المسلمين موزعون هناك على عشر قوميات هم" (الأويغور) ، (القازان) و (شينج يانغ) و (الأوزبك) و (الطاجيك) و(التتار) و (الهوي) و (السالار) و (دونج شيانغ) و (باوان) شرقي الصين.

والمسلمون في الصين يتزايدون لكن حرياتنا مكبوتة .. ونحن فقراء .. والدولة لا تعتمد علينا .. ونمارس الشعائر الاسلامية بحذر .. ومن يطالب بالحقوق فصوتهُ يُكبت، ونحن نُناشد الدول الأسلامية التي لها علاقات جيدة بالصين ولديها من ثروات الأرض أن تتدخل للدفاع عنا وأخذ حقوقنا ، أليس الناس شركاء في الماء والكلأ والنار؟؟

يا سيدي المختار : أرجو منكم الدعاء بأن يجعلنا الله أمة قوية ؛ فإني رأيتُ في المنام كأن الصين على شكل حوت أزرق كبير حجمهُ بقدر ثلث البحر/ فغضب الحوتُ وفتح فمهُ وشرب البحر.. فقمتُ من منامي مفزوعًا، وعندما قصصتُ رؤياي على شيخ المسجد قال لي:

يا بني : إن الصين ستصير يومًا سيد العالم ومن هنا يخرج الجنود لنصرة هذا الدين وحينها تذكرتُ غُرفتي في السفينة .. كان مكتوباً على أحد جدرانها المختار وجنب المختار لوحة خضراء مكتوب تحتها بالصيني بلغة لم أفهمها .. ولكني رأيتُ تحت الكتابة جنود أشكالهم أشكال أهل الصين ـ وتحت اللوحة مكتوب : (ق) همُ الجنود .

وبدأتُ أتمشى في السفينة فسلّم عليَّ رجل يتكلم العربية بصعوبة وأراد أن يُقبل يدي فقلتُ : أستغفر الله يا بُني.

فقال اسمي مغوار .. وأنا من اليابان .. والتحقتُ بسفينة النية منذ سنين .. وعندما التحقتُ بالسفينة كان المختار الذي قبلك قد توفي واسمه الشيخ شمس الدين وحللتُم محلهُ ، وأنا سعيد بلقائكم لأنكم أقطاب أهل العرفان على الأرض.

فسألته: ما أحوال المسلمين في اليابان ؟

فقال : يا سيدي المختار : إن اليابان لم تعرف الإسلام إلاّ منذ سنين قلائل، وكان ذلك من سفينة تركية زارت جزر اليابان كزيارة مودة وفي طريق العودة تحطمت ، فُقمنا بدورنا لإنقاذ الأحياء من أهل السفينة وحملناهم بسفينةٍ يابانية وأوصلناهم إلى إسطنبول .. وانتشر الإسلام .. ونحن الآن في أواخر القرن الثامن عشر .. وعدد المسلمين خمسون ألفًا وهو في تزايد .. والشعب الياباني شعب محافظ متمسك بالجُذور والجدود .. ولكننا لمّا تعرفنا على الإسلام وجدنا المبادىء والأخلاق والقيم والطهر والتوحيد فأحببنا هذا الدين .

ثم قال مغوار : أرجو الدعاء يا سيدي المختار..

فدعوتُ له وقلتُ : اللهمَّ اجعل اليابان بلدًا إسلاميًّا فإنهم أشداء ومخلصون ، وبقيتُ أفكر في اليابان .. إنهم قوم أشداء سيغيرون مجرى التاريخ يومًا"

ثم وأنا أسير التقيتُ بفتاة في عقدها الثالث فسلمت عليَّ فرددتُ السلام.

الله ... ما أبهى شكلها بالزي الإسلامي المحتشم وهي تقول لي.

يا سيدي المختار : نحتاج الدعاء ، فنحن في فرنسا قد أصابنا جور الساسة المتشددين؛ فهم يُحاربون الإسلام بطريقة خفية ، وبحجة أنهم يريدون السيطرة على الأمن القومي للبلاد ، وهم يحاربون الزي الإسلامي ، وبنفس الوقت الحكومة المركزية توفر الأراضي لبناء المساجد ..

فسألتُها : كم عدد المسلمين هناك ؟

قالت : يا سيدي نحن قرابة المليون نسمة ونحن في تزايد..

فقلتُ : اللهم اطرح فيهم البركة يا رب واجعل لهم كلمة.

فقالت: يا سيدي إن أصواتنا لا تُسمع ، وهناك أقليات من أديان أُخرى يؤثرون على القرار السياسي للبلاد .

فقلتُ لها : يا ابنتي لا تخافي فإن الله يُدافع عن الذين آمنوا .. وإن هذا الدين في تزايد وأن الأرض يرثها عبادي الصالحون .. فشكرتني.

وقالت: يا سيدي .. إنّي أشعر بالسعادة ولكَ كل الاحترام فسلّمتْ وانصرفتْ.

ثم أكملتُ المسير على متن سفينة النية فالتقيتُ بفتى في الخامسة عشر فقَّبل يدي وقال:

يا سيدي المختار ، لقد حضرتُ إلى سفينة النية باختياركم لأطلب العلم..

فقلتُ : من أي البلاد أنت؟

قال: من أمريكا .

فقلتُ : وكيف حال المسلمين هناك؟

قال: يا سيدي إن الإسلام دخل دولتنا منذ القرن السادس عشر ونحن في تزايد ولدينا مراكز علمية لتعليم الدين.

فقلـــتُ:

قاعدة (٣٣٧)

الخَيْرُ في سَلاَمَة الصُّدور ، والنِّعمةُ الكُبْرى في القَلْب السَّليم .

فقال الفتى : زدني يا سيدي المُختار .. وقد احمرت عيناه

فقلـــتُ:

قاعدة (٣٣٨)

مَنْ كان أُنسُهُ بالقُبُور وَكَثْرة الشُّيوخ وَمُصَاحَبَة الأَسْمَاء اللاَّمِعَةِ فَهَذا انقِطَاع ؛ لأَنَّكَ آنَسْتَ مَعَ الله أنيساً ..

واللهُ غيور .

واسمع يا ولدي ؛ فإنكَ في عمر الورود

والورود نُحبُّ شكلها وعطرها :

قاعدة (٣٣٩)

الوقوفُ أمام المرأة .. والإعجاب بالنَّفْس بابُ الحَسَد والغيبَة والاشتغال بالناس وبعيوبهم .. وَمَن كَسَرهَما ظَهرت عُيوبهُ فَكَفَّ وتَأَدب وَتَركَ النَّاس وَبكى على مَا فاتَ ،

وبَنَى جِدَاَر الحقِّ بيْنَهُ وَبيْنَ النَّفْس وَالَهوى وابليس والدُّنيا ..

اسمع يا بني واحفظ عنّي فإن استقامتك اليوم وصلاحك وإصلاحك للناس فخذ عني :

قاعدة (٣٤٠)

مَنْ جَعَل بصْمَةَ الموافقاتِ في كل يومه، ومَحَا المُخَالَفَات، فَقد جَعَلَ سِتَاَر الحق بينهُ وبين أمّارتِه.

يا بني كُن من المتوكلين .. عسى الله أن يستعملك .

فقــال : يا سيدي وما التوكل؟؟

قلـــتُ:

قاعدة (٣٤١)

الاعترافُ بالعجز والافتقار ، وأن لا حول ولاقوة لكَ ؛

فصاحِبُ الأمر إليه : وكلتُ أمري يقيناً .

ثم سلمت عليه وبدأت أَمشي، فالتفتيتُ برجل فى عِقْده الرابع ، جميل الهيئة أشقر الشعر كأنه من العَمَالقة ، فسلَّم عليَّ بانحناءة بسيطة دليل الأدب وهو يقول : مرحبا سيدي المختار ..

فقلتُ له : أهلا وسهلاً ومرحبًا ..

فقال : يا سيدي ... أني أتيتُ السفينةَ منذ أشهر وطلبت لقاءكَ فقالوا : سفينة النجاة اللقاء فيها بالنية .. والمختار سيختار الوقت وتلتقي به ، وها هي أمنيتي قد تحققت بعد أشهر من الصبر يا سيدي ؛ فأرجو الدعاء لبلدي لأنهم لا يتحملون سماع كلمة مسلم ويظنّون بعد الظنون السوداء فى أن المسلمين هم سبب نكباتهم التاريخية

فسألته : من أي البلاد أنت ؟

قال : أرمينيا ..

فسألته : كم عدد المسلمين هناك ؟

قال : ياسيدي .. إن بالغتُ أقول إنهم ما بين (٧٠٠-١٠٠٠ نسمة) من مجموع البلاد الذي يُقارب الثلاثة ملايين .

فقلتُ : ولماذا هذا النفور من الاسلام ؟

قال : بسبب جرائم ارتكبت بحق الأرمن خلال العهد العثماني حيث قتلوا العلماء والمثقفين .. وهنا عندما كان يتحدث السيد طالب نقلا عن رفيق تذكرت أحوال العراق وما وقع فيه من قتل العلماء والمفكرين وأهل العلم والكفاءة والمهندسين والأطباء والطيارين وعلماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات خاصة بعد الغزو الأمريكي (عام ٢٠٠٣م)

وأيضا كيف كانت الحكومة السابقة قبل الحرب تقتل آلآف الناس من الجنوب ومن الشمال وتجعلهم في المقابر الجماعية ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم عدتُ إلى الأرمني وهو يتحدث فقال : نعم يا سيدي إنهم كانوا يأخذون أهل العلم والمفكرين بحجة أنهم مطلوبون للدولة لإجراء تحقيق معهم ثم يساقون إلى جهات مجهولة .. ولا نعلم هل قتلتوهم أو عذبوهم .. لكن كل الذي نعرف أنهم قيد الاعتقال .

وقد هجَروا الكثير من بعض البلدان كأنَّ الدولة العثمانية والتي شعارُها الإسلام ونشر السلام كانوا يظنون أَّن الأرمن هم العقبة الوحيدة

أمام نشر هذا الدين ، ولذلك قتلوا الألوف في بطن الألوف ، ولا يوجد إحصائية دقيقة لهذه المجازر البشعة في حق الإنسانية .

وخلال سرد هذا الأرمنّي للقصة وما حدث من مجازر تذكرت مجزرة **صبرا وشاتيلا في لبنان** .. حاصَروا الفقراء وقتلوهم لأنهم فقراء عُزَّل من السلاح .. قتلوهم لأنهم يؤمنون بالإنسانية .. ولأنهم يؤمنون بالحب .. وكانت هذه المجزرة في عام ١٩٨٢ م .. وراح ضحيتها الآلآف من الأطفال والنساء والشيوخ العزل .

لقد قُتلوا بأيدي مشتركة، وكان (شارون) حامل الراية وكتائبه .. والذين يقولون إننا مظلومون وقد قتلوا مِنَّا الكثيرَ في محارق هتلر ، وشارك معهم من شارك من أبناء الجلدة وفي نفسي أسألهم / هل وقع الظلم عليكم يوما فأحببتم الانتقام من البشر ؟ .. والتاريخ لا يرحم ...

وتذكرتُ المجازر المتتالية في الجزائر والتي بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (فكانت بلد المليون شهيد) وبلادي بلد الملايين من الشهداء؛ لأن القتل في بلدي على ما أتذكر بدأ من سنة ١٩٧٠ إلى وقت كتابة هذه السطور من (٣-٥ مليون قتيل) والله أعلم هل يزيدون !!

أما رفيق ظل يتمشى على السفينة المدينة ، وهذه المرة التقى برجل أسمر طويل نحيف وجهه مُضيء ، ذو لحية خفيفة ناعمة فسلّم

وقال : السلام عليكم سيدي المختار ؛ فرددت السلام

وقلت : يا مرحب بالوجه المضيء فبادرته بالسؤال :

ما اسمك ؟

قال : عبدالرحمن .

قلتُ : من أي البلاد ؟

قال : جيبوتي .

فسألته : كيف حال المسلمين في جيبوتي ؟

قال : يا سيدي إن الغالبية العظمى في جيبوتي يدينون بالإسلام .. ويحبون أهل العرفان والسير والسلوك .. ولكننا فقراء يا سيدي ؛ فبلادنا تحتاج إلى بنية تحتية ؛ فنحن لا نملك شيئاً .. والأمراض والجهل تفشّى فينا ؛ فنرجو الدعاء يا سيدي .

فقلت له اسمع هذه القاعدة :

قاعدة (٣٤٢)

التَّقْوَى خَيْمَة عَمُودُها الإِرَادَة ،
إن صحَّتْ لكَ أَقَمْتَ تَحْتَ خَيْمة البَرَكة ..

وقلت له :

قاعدة (٣٤٣)

مَنْ لم يعرف رزاقاً غيره فهو في نِعْمة الشكر ؛
فَمَن زَلَّ فالاستدراجُ مُهْلِكُه ..

واعلم يا عبد الله:

قاعد (٣٤٤)

إنَّ من عَلامَات اليَقينِ صِدْقُ الحَدِيث ، ودَوَامُ الأُنسِ بِذِكْرِه ، واستقرارُ القَلْبِ في الأَوامِرِ وَالنَّواهي، وَإيثَار حَظِّ أَخيكَ عَلَى حَظّك.

ثم تركْتُهُ وأنا أَسير .. وإذا بجمع غفير يجلسون ويَذْكرون بذكر " **الله الله الله ما لنا مولًى سوى الله كل ما ناديتُ يا هو قال يا عبدي أنا الله"**

فجلستُ بينهم وأنا أذكر .. والأشواق تأخذني كموج البحر وهو يحمل السفينة ويهبط بها .. إنه شعور جميل ؛ فالبحر ينقل نسمات معطرة بروائحه .. وسفينةُ النية تحمل أهل القلوب النقية الطاهرة السليمة ..

الكلُّ يحب الكل من الغرب والشرق ، كأنَّ الأمصار قد تَدَاخلت في هذه السفينة فصارت بلدةً واحدة ..

وما إن انتهى الذكر إلاّ وسلموا عليَّ وقالوا مرحبًا يا زعيمنا المختار .

فقلتُ : مرحبًا بكم .

فقالوا : يا سيدنا .. حدثنا عن أهل العشق .

فقلت : اسمعوا .. يا من اجتمعتم في الله وتحاببتُم في الله .. واستعملكم الله في سفينة النية :

قاعدة (٣٤٥)

الْعَابِدُ أَفعالٌ ، وَلِسَانُهُ فِي قَلْبه ..

واسمعوا بأعينكم .. وانظروا بأسماعكم .. فما إن استنشقتم إلا وخذوا هذه الكلمات كي تسري في عروقكم ..

واعلموا :

قاعدة (٣٤٦)

أولَ طَريق المَعْرفَةِ حيرة ؛ فَمَنْ أَشَّرَ فقد أَشْرَكَ ،
والتفكرُ في الذَّاتِ كُفْر ،
ومِنَ الجَهل أن تُشير إلى الذَّات ولَو بالنِّية .

يا أولادي :

قاعدة (٣٤٧)

الأَمرُ بِالدُّعَاءِ لامْتِثَالِ أمْرِه،
فَتَأَدَّب فِيمَا تَدْعُو، بِلَفْظِكَ وَمَا تُخْفِي .

وخذوا هذه القاعدة معياراً لعبادتكم :

قاعدة (٣٤٨)

لا تَسْرق الوَقْتَ للصَّلاَة ، بَل اشتَرِي الوَقْتَ لِشراءِ الحيَاة ..

واعلمــوا :

قاعدة (٣٤٩)

مَنْ آمنَ بِالمكْتوبِ تَوجَّهَ لِعِبَادَتِهِ لاَ لِعِبَادِهِ، وَلَن يَرْجُو مِنَ الدُّنيا؛ لأَنَّ المشيئة قد سَبَقَت

وتعلموا المقاصد؛ لأن الشرع مقاصد وخذوا هذه القاعدة :

قاعدة (٣٥٠)

قَصْدُ المقصود يحتاجُ إلى علمٍ تعملُ بهِ ، وفكرٍ تذكرُ به ، ووجْدٍ تُروضُه للطَّاعة ..

يا أبنائي :

قاعدة (٣٥١)

الدُّنْيا كَالْسَّهْمِ، مَا تَقْطَعُهُ بِرَمْيِكَ؛ فَوجهتُكَ لله ، وَسَهْمُكَ العلم، وطَريقهُ الْفرارُ إلى اللهِ، والمُبْتغى الرِّضَا .

أتعلمون يا أولادي : لماذا هذا الدين محارب والكل ضده وما إن تدعو أحدًا إلـى الـدين إلا ويقـول : أنـتم أهـل الـدم ، وأهـل التزمـت والعصـبية ، والفرقـة بيـنكم ، لا تعرفـون إلا التنـاحر ، أصـلحوا أنفسـكم ثـم آدعـوا الآخرين .

وكل الإعلام في أصقاع الأرض صار ضد اللحية والعمامة والمسبحة والعصا أتعرفون لماذا ؟

لأن الذين يقدمون الدين يقدمونه ويعرضونه بصورة سيئة ؛ فأنت إن كنتَ جائعًا مثلاً .. وقدموا لك لحماً نيئًا عليه بعض الدم .. أو قدموا لك وجبة طعام وقد اختلط بالقيح والدم فإن النفس لا تشتهيه .. كذلك الدين يجب أن تُقدمه بأبهى صورة وبالحب والموعظة الحسنة .. وأن نُبعد مظاهر العصبية والتعصب .

وخذوا هذه القاعدة :

قاعدة (٣٥٢)

إِظْهارُ خُلُقِ السُّنة فِي مَعَالِمِ شَخْصِكَ الإِنَسانية ..

فسألتُ أحدهم : ما اسمك ؟

فقال : اسمي (مَنْخي) .

قلت : من أي البلاد ؟؟

قال : من الكويت

فقلتُ له : وما الحال عندكم في الكويت ؟

فقال : والله يا سيدي .. إننا خرجنا للمعركة بيننا وبين وقبيلة بني كعب مـن الأهـواز فـي معركـة تسـمى بمعركـة (الرقـة) وهـي منطقـة مـا بـين جزيرتي (فيلكا) و (بوبيان) .

وسببُ المعركة أن أمير الأهواز طلب بنت أمير الكويت لابنه فرفض أميرنا ، و بدأ بنو كعب بالتجهيز بالرجال والعدة والسفن الكبيرة لقتالنا .. ولم يكن لدينا نحن إلاّ سفن صغيرة .. وكان أكثر المقاتلين من قبيلتي وهي قبيلة العَوَازم ..

ومن حسن حظنا أن شواطئنا طينية ؛ فهذه السفن عندما اقتربت غرست في الطين ؛ فأحرقناها وقتلنا منهم الكثير .. وكانت بعض السفن في الخلف فنَجَا من نجا منهم .

ويا سيدي ..

إن النزاعات الداخلية مزقتنا ؛ فأمير الأهواز قتلوه؛ لأنه أراد القتال مرة أخرى من أجل مريم بنت الأمير .. ونحن أهل عصبية تغضبنا الشوكة والجوع والشتم والقبلية وغيرها .
فقلت له : يا عبدالله / كل من دافع عن أرضه وعرضه ودينه فهو شهيد . ومن يبغي على الآخر في داره فهو طاغٍ وأفاك .
يا عبدالله : المسلم الحقيقي يتركُ العصبيةَ لأن النبي صلى الله عليه وآله قال: "دعوها فإنها مُنتنة" .
واسمع هذه :

قاعدة (٣٥٣)

إن أثقَلْتَ على الخلْق فقدتَ مُروءتكَ، وإن لم تكشف عنهم فمروءتُكَ غائبة ..

يا عبدالله اسمع واسمعوا أنتم :

قاعدة (٣٥٤)

كَثْرةُ النَّدَم في الحيَّاة مُتعبٌ للقَلْب ومُشْغِل للفكْر، و مُثبِّط للعَزْم ؛ فإن كُنتَ كذلك فطريقُكَ ليس طريق القوم ..

ثم سألت آخر فقال : إني من ألمانيا وآخر من روسيا وثالث من سويسرا ورابع من الجزائر وآخر من إيران ومن السودان والفلبين ومن الكونغو ومن أندونيسيا ومن بورما .
وهنا قال تاج الدين وهو من بورما :
يا سيدي .. إننا قوم مستضعفون يقتلوننا ويحرقوننا
يا سيدي / إذا دخل مسلم إلى حي من أحياء القوم وأحسوا به فإنهم يجعلونه تسلية لهم ، فهذا الذي يضربه بالحجارة ، وهذا الذي يطعنه بسكين ، وذاك الذي يفقأ عينه أو يشج رأسه بالفأس ، ثم آخر المطاف يتم إحراقهُ ، وفي بعض الأحيان يا سيدي فإنهم يربطون الأيدي والأقدام ويسحلون الضحية ويسلخون جلده حتى يُفارق الحياة..
يا سيدي .. إن النَّاس قد فقدوا ألسنتهم بأن ينصرونا ولو بكلمة .
يا سيدي : ليس لنا إلاّ أن نقول : يا غيَّاث المُستضعفين أغثنا .. يا أرحم الراحمين ؛ فبكيتُ على حال الأمة بكاءاً شديداً ... ثم قمت وأنا أسير حتى وصلت إلى أطراف السفينة ؛ فسقطتُ في الماء ، فوجدتُ

نفسي أمام الإطار واقفًا ، وبقيت في غرفتي ولم أستطع إكمال يومي وأورادي وصلاتي إلاّ في غُرفتي .. وبقيت على هذا الحال ليومين ثم خرجتُ في اليوم الثالث فجراً إلى المسجد النبوي .. وبعد الصلاة التقيتُ برجل لا يرتدي زيًا معروفًا فهو يرتدي قبعة كالباخرة على رأسه وقميصًا أزرقًا وسروالاً أبيضا فسلّم عليَّ فرددتُ السلام ، وجلسنا أمام الصُفَّة مقابل قبر الرسول من عند قدميه الشريفتين .

فسألني الرجل : من أي البلاد ؟

قلتُ : من الشام .. وأسكن دمشق

فقال : وماذا تعمل ؟

قلت : كنتُ تاجراً .. واليوم طالب علم أجوب البلاد لطلب العلم .

ثم قلتُ : وأنتَ ؟؟

قال : أنا طالب علم وأبحث عن العلم وأريد أن أدخل الخدمة .

فقلت له : من أي البلاد أنت ؟

قال : أستراليا وعاصمتها (كانبيرا)

فقلتُ له : إني سمعت بها لكنّي لا أعرف الكثير عنها فصف لي هذا البلد .

قال : بحر تيمور وأرافورا ومضيق تورز من الشمال ، وبحر كورال وتسمان من الشرق ، ويحيطها جنوبًا المحيط الهندي ، وإن جدي قد حكى لي أن سفينة النية قد رست يوماً على سواحلها ، ونزل منها رجل اسمه المختار **(شمس الدين)** ، وكان رجلاً مهاباً طيب القلب علم الناس مبادئ الدين الحنيف ، وكان من تلاميذه جدي أنذاك وقد دخلنا الإسلام ومن جدي لأبي، وقال أبي لي : ابحث عن المختار فإنك ستجده يومًا ما بين مكة والمدينة .

فقلت في نفسي : يا إلهي إنه ليس بيني وبين ما يقول الرجل سوى الاعتراف بأنّي أنا المختار .

فقلتُ له ما اسمُك ؟

قال : زيد .. فقلت له : يا زيد إنّي سمعت أن المختار في سفينة النية يتم اختياره من مجلس الحكماء والعرفاء .. وإن هذا المختار يلتقي بالناس ولا يستطيع اختيار أحد منهم .. وما من مختار إلا وقد اختير منذ الطفولة ؛ فإن فيها حساب ساعة الولادة على الأرض والساعة الموافقة لساعة

السماء الأولى بالمرتبة والدرجة والدقيقة والثانية ، ويقولون : يجب أن تكون فيه علامات .. ومن علاماته القلب السليم .. أو شامة زرقاء .

ويقولون إن المختار الأخير ستكون له غلاصم كغلاصم السمك تحت إبطه يستطيع أن يعيش في الماء كما في البر .. ويحمل القلب السليم وله شامة خضراء ، فتعجبت من نفسي وأنا أتكلم ؛ فأسكتني الرجل بشدة وقال : بالله عليك كيف عرفت هذه الأمور ؟!!

فقلت : سمعتُ من أمي العجوز ذلك .

فقال : انصحني .

قلت : سأعطيك درسًا فأحفظه واكتبه وألزمه وانشره في بلادك ، فما من رجل تمسك به إلاّ ونال التوحيد بالتحقيق .

اكتب معي هذه القواعد :

قاعدة (٣٥٥)

مُراقبة النَّفْسِ مُرَاقبَةَ حُضُورِيَّةً فِي حالِ الْعَمَلِ وَأَدَاء الخدمةِ، والمحافظة على النَّفْس منْ جميع مَا يدورُ فِي الخاطر ..

واكتب :

قاعدة (٣٥٦)

النَّظَرُ مَا بَيْنَ القدمين، فَإِنَّهُ حِصْنٌ لِغَضّ الْبَصَر، وَمِنْ غَضَّ بَصَره سَلِمَ قَلْبُه،

وَإِيَّاكَ والنَّظَر بِاسْتِقامَةٍ فَإِنَّه يُوَلِّدُ الشَّهْوَةَ من مَظَاهِرِ الدُّنْيا .

واكتب :

قاعدة (٣٥٧)

تَرْكُ الْأَدْنَى لِلأعْلَى، وكن من أهْلِ الْغِبْطَة كَيْ تَقْتَدِيَ بِمَن اتقى، والزم الصُّحبةَ .

قاعدة (٣٥٨)

الْخَلْوَةُ فِي الْجَلْوَةِ، الظّاهِرُ مَعَ النَّاسِ، وَالْبَاطِنُ الأُنُسُ لاَنَاس .

قاعدة (٣٥٩)

الْحُضورُ فِي دَوامِ الذكرِ بالقَلْب .

واسمـع :

قاعدة (٣٦٠)

التخليةُ أي: تزكية النفس من الخواطر السيئة، والمُحاسبة على الصغيرة والكبيرة،

وبعدها التحلية : أن تُحلي نفسكَ بمكارمِ الأخلاق والتقوى والصِّدق والإخلاص، تبتدأُ بالنفي والإثبات (لا إله إلا الله) بالحُضور .

قاعدة (٣٦١)

حفِظُ الخوَاطِرِ، وَالخاَطِرُ إلى اللهَ .

واسمع يا زيد :

قاعدة (٣٦٢)

الخوْفُ مَنِ اللهِ، وَالْبَحْثُ عَنِ الصَّفَاءِ والنَّقَاءِ فِي عُمْقِ طُهْرِكَ ..

واكتـُب :

قاعدة (٣٦٣)

الْوَقْفُ الْعَدَدِيُّ هُوَ التَّوحِيدُ وَتَحْقِيقُ الاسم (اللهُ) أَيّ أعمالك الدنيوية لله، وكُن وِتراً في أفعالِك .

وقلـت لـه :

قاعدة (٣٦٤)

الوَقْفُ الزَّمَانيّ: احتِرَامُ أوقَات الفُروض والنَّوافِلِ وَسَاعات الاستجَابَة ، وابْحَث عن الزَّمان الذي تُستجابُ فيه الدَّعْوة ..

واسمـع :

قاعدة (٣٦٥)

الْوَقْفُ الْقَلْبِيُّ : دَوامُ التَّحْقِيقِ بِالذِّكْرِ بالقَلْبِ، وراقِبْ عددَ الذكْرِ وِتْرًا لاَ شَفْعاً ..

واكتـب :

قاعدة (٣٦٦)

دوامُ السلام على النبي وآله كأنَّكَ في زمن الصُّحبة ..

واكتب :

قاعدة (٣٦٧)

اجعل الَّدمَ يَسْري إلى رأْسِكَ في حالة القَبْض أي الضيق؛ لأَن دوام الفكر دوام الذكر ، ودوام الذكر صُحبة ، والصحبةُ أدب ، والأدب عجزُك عن معرفته ، والعجز عن معرفتِهِ معرفة ..

وقلت له : يا زيد اكتب :

قاعدة (٣٦٨)

إيّاك والمُعاوضة أو المُعارضة :

الأولى عليكَ السعي والرِّضا بحالك فهو اختبار الله لكَ دون اعتراض وضَجَر، والثانية: إيّاك أن تعبد وتطلب على العبادة رزقاً أوجاهًا أو دُنيا، فإنك في الحالتين خرجت عن الحُدود ..

يا زيد : إن أردتَ أن تسير في طريق العُرفاء ؛ فأقرأ قوله تعالى **(هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**

يا زيد : خذ هذه /

قاعدة (٣٦٩)

الصُّحبةُ بيْنَ الْمُرِيدِ وَالْمُرادِ ؛ بِأَنْ يَرَى الْمُرِيدُ الْعَيْبَ من الْمُرادِ وتَدومُ الصُّحْبَةُ ..

وَشَرْطُهُ : أَنْ لَا يكون من الكَبَائِرِ ، وَيَعْمَل بأقصى جُهْدِه لِمَعْرِفَةِ الحُدود ..

يا زيد :

قاعدة (٣٧٠)

الطَّمَعُ والحَسَدُ طَرِيق أهل الدُّنْيا ؛

الْأَوْلُ يَدْفَعُكَ .. وَالثَّانِي : يمْنَعُكَ، وَالدَّفْعُ لِلشَّكِّ أَنَّ اللهَ لَايرزقك، وَالْمَنْعُ أَنَّ اللهَ لاَ يَزِيدُ الْمَالَ مَنْ صدقةِ ..

يا زيد اكتب :

قاعدة (٣٧١)

دينُ الْعوام أَسَاسُ قِيَامِ دِينِ الْبَلَدِ ؛

فَإِن صَلَحوا أَصْلَحوا الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ ، وَإِن فَسَدوا أَقَامُوا دَوْلَةَ الجَهْل .

فقال لي زيد : يا سيدي إنّي كنتُ أبحثُ عن الصُّحبة فاجعلني في صحبتك.

فقلت يا زيدُ : إنّي لا أعرف وقتي ومتى الرحيل لكنّي مادمتُ في مدينة الحبيب فنحن في صحبة .

فافترقنا وكان موعدنا العصر عند مدرسة الشيخ الساعاتي .. كي نَذهب إلى مُحاضرة ما بعد صلاة العصر ؛ فالتقينا بعد العصر وذهبنا إلى المدرسة .. وكان الشيخ الساعاتي على منبره المتواضع وهو يتكلم عن الذوق والعشق والوجد والتوحيد وعندما وصلنا كان الشيخ يقول :

قاعدة (٣٧٢)

الخِدْمةُ أن تَخْدمَ نَفْسَكَ / وَمَنْ حَوْلكَ، وَ لاَ تَقُل اسقني وَنَاولْني؛ فالَاتكَالُ يقطعُ الخِدْمَة .

وقال أيضًا:

قاعدة (٣٧٣)

الْوَصْفُ يلْحَقُ المِهْنَةَ والعِلْمِ وَالمَقَامِ وَالْحالَ ؛

فتقول نجار وَحدادٌ وَفَقِيهٌ وَأُصولِي وَعَارِفٌ وَأُهِل المحبة وأهل التَّنزيه وأهل التَّفْرِيد وَأهل التَّوْحِيد،

فاعلموا : أثرُ التَّوَجُّه يمْحُو الْوَصْف؛

فَلا وَصْفَ مَحْض، وَلَادَليلَ معين، وَالْحُرُوفُ والكلمات لَاتفي غَرَضَ الْقَصْدِ من علم الْإشارَةِ؛ فَنَحْنُ فِي مَقَامِ الْكَشْفِ وَحَال الْجَذْبَ ..

فقام رجل من الجالسين : وقال إني لم أفهم شيئًا من القاعدة ، فقال الشيخ الساعاتي:

عندما تجلَّى اللهُ للجبل وَخَّر موسى صَعِقا فهذا التجلي لا نستطيع أن نصفه بوصف مُعين .. هل نور أم نار أم ريح أم قوة .. ولا من جهة مُعينة .. ولفظ التجلي ورد الفعل دك الجبل .. وخرَّ موسى صعقًا .. كذلك الحال عند الكشف والجذب لأهل الطريق ؛ فإن مقام الكشف وحال الجذب الكلمات لا تفي بالغرض.

ثم قــال:

قاعدة (٣٧٤)

السؤالُ منح الاختيار ،

والجواب بدون الأدب طَرْد ..

فرفعتُ يدي وقلتُ : يا سيدي من هم العُرفاء ؟ .. فقال الشيخ:

قاعدة(٣٧٥)

القُرآنُ لِسَانُهُمْ، وَهُمْ على الْعَهْدِ لَا يَغْفُلُونَ عَنِ اللهِ بطَرْفة عين،

وقلوبهم بذكره مطمئنة، ومقاعد الصدق عند مليكهم لا خوف عليهم، يُحاسبون حواسَّهُم كما أهل الدنيا يحاسبونُ بالفلس والدينار ..

فقام أحدهم .. وقال : يا شيخ / رجال الطريق وأهل العرفان كالحلاَّج والسَّهروردي فدوا أرواحهم في سبيل هذا المسلك فقد تكلموا بإشارات الحقائق وكثير منهم قد سُجنوا ، وكان لأهل الطريق أقوال ورموز وشطحات تعبر عن عالم الحقيقة ، أما في هذا الزمان فلم نر صوفياً يُسجن أو يقتل شهيداً أوله أقوال من عالم الرمز؛ فأكثرهُم يعيشون في ظل الحُكَّام ، وعلى موائد الرحمن يملئون البطون .. فقال الشيخ الساعاتي : ما كان هذا سؤالاً .. كان درسًا لنا .. وقال آخر : يا شيخ إن الله ذكر القلب

فهل القلب يذكُرُ حقًا ويصدأ ؟..

فقال الشيخ :

قاعدة (٣٧٦)

اللسانُ مرآةُ القَلْب، والإخلاصُ يُسكّن المُضْغَة، فإن سَكَّنَها سَخَت نفسُهُ، وعَظُم خُلقهُ، ودام لهُ حُسن الأَدب رفيقاً، واعتراضُهُ نعم، يَقْبلُ العُذْر قبل الاعتذار، رؤوف رحيم يقبل الأَخيار والأشرار ..

وقال الشيخ :

قاعدة (٣٧٧)

الصُّحْبَةُ تُؤثر، وهي أساسُ السير، ومفتاحها الرؤيا الصالحة برؤية الحبيب، وقوله : من رآني فقد رآني حقاً ..

فانتهينا من مجلس الشيخ .. وافترقنا أنا وزيد .. ثم حدث لي شُعور غريب بأن أخرج خارج المدينة لأُصلي صلاة المغرب .. وأنا أسير حلَّ وقتُ الغُروب وأنا في إحدى الوديان .. وما إن سلمتُ إلاّ وأنا على متن سفينة النية .. فجاءني الشيخ أسامة وقال :

بعد قليل حَلْقةُ علم .. وأنتَ سيد الحلقة وما إن أكمل الشيخ أسامة إلاّ ونوينا وكنا في الحلقة فقام أحدهم وقال :

قد انتهت فترة السياحة ، ويجب أن تعود إلى دمشق .

وقال الآخر: يا رفيق .. فاستغربتُ أنهُ لم يناديني .. يا مختار ..
قال: إن زوجتكَ قد وقع عليها الاختيار بأن تحمل الأمانة بعدك لتسلمها إلى المختار ذو الشامة الخضراء .. والمختار الأخير يسلم الأمانة إلى القائم المختلف في اسمه ووصفه .

وقال آخر : يا رفيق إن زوجتك لها باع طويل في هذا المجال في السير والسلوك فإذا رجعت إليها فاحكي لها قصة سفرك ورحلاتك..
وقام آخر فقال : يا مختار /

<u>قاعدة (٣٧٨)</u>

العبادةُ مَعَاُمَلَةَ مَعَ اللهِ كالمُعاملات مَعَ الخلق بالأخْذ والعطاء ، فاحرصْ أن لا تَلْتَفِتَ وَلا تنظُر .

يا مختـــار :

<u>قاعدة (٣٧٩)</u>

مَنْ تكَلَّمَ في الذَّوْقِ وَمَذَاقهُ الدنيا فَهُو مُدعي ..

يا مختـــار :

<u>قاعدة (٣٨٠)</u>

مَنْ تَكلمَّ فِي الْأَحْوالِ عِنْدَ أَهْلِ الدّْنيا تُكلِّم في جِدارِ قَلْبِهِ ، وَالْأَحْوالُ سِرٌ ، فَلاَ تُبح بِهَا إلا عِنْدَ أَهْلِهَا ..

يا مختـــار :

<u>قاعدة (٣٨١)</u>

من حُسْن النِّية أن تأتيَ بها في وقتها ، لا أن تكون مصحوبةً بالأمل في أُمور الدُّنيا ..

يا مختـــار

قاعدة (٣٨٢)

لا تعشْ في الحياة طعامٍ ونومٍ وكلامٌ وحَرْث؛
فإنَّ القُلُوبَ بالطَّعام تصدأ ، وبالنَّوم تغفُل ، وبالكلام تقْسو ، وبالحَرْثِ تُشْغَل ..

وقال آخر :

قاعدة (٣٨٣)

إدْخَالُ السُّرُورِ إلَى الْقُلُوبِ سُنَّة ،
وَالنَّوَافِلُ عِنْدَ الاجْتِمَاع تُقَدِّمُ السُّرُورَ ..

وقال يا مختار : أتعرفُ ما الإخلاص في العبادة ؟

قاعدة (٣٨٤)

أَنَّكَ تُسَرُّ بِهَا لَا تَطْلُب قَضَاءَ حاجَةٍ ، وَإِنْ جَلَسْتَ للذكر لَا تَلْتَفِتْ ..

ثم قام آخر وقال :

يا مختار: إن هذه القواعد هي الأخيرة فاسمعها جيداً وانقلها إلى أهل العِشْق، فمن تَمسّك بها وصل.

واسمــع هــذه :

قاعدة (٣٨٥)

الانشغالُ بالكرامة والأولياء شِرْكٌ خفي يحتاجُ إلى توبة ؛
فاشغل نفسكَ بالله ..

وقــال :

قاعدة (٣٨٦)

كل الأمْرِ الأوامِرِ والنَّواهي ، وبعض الأمر حظ الدُّنيا ؛
فلا تُغير قَدَراً ، ولا تُضيع ما قد طُلِب ..

يا رفيق اسمـــع :

قاعدة (٣٨٧)

دُخُولُ إبراهيم النَّار تَجْرِيدٌ لَا سَبَب، وانفِرادٌ بِالتَّوْحِيدِ لَا علاقة ؛ فَالْعَمَلُ بِالتَّجْرِيدِ وسيلةُ الفتوة ..

فقام أكبر الجلساء وقال لي : هل سمعت؟

قلتُ : نعم

قال الآن تهيأ وانوي الرحيل والعودة إلى البيت.

فنويتُ .. وما إن أكملتُها إلا وأنا مع راحلتي وكيسي على كتفي أمام البيت وأنا في حيرة من أمري وأتذكر كم مضى من الوقت وأنا في سفري .. وما بين التذكر والتفكر طرقتُ الباب .. وما هي إلا بُرهة وخرجت زوجتي .. فما إن رأتني إلاّ وانتابتها حالة من البكاء الشديد ؛ فضممتها وقبَّلتُ رأسها واعتذرتُ منها كثيراً ؛ فقالت : لا تعتذر .. فإنَّ الشغل لله غايتنا .. فأدخلتُ راحلتي مع كيسي ، وضممتُ أولادي وقبلتهم وقلتُ لزوجتي : أتعرفين أن الأولاد قد كبروا بسرعة خلال فترة رحلتي ؟!!

فقالت وبكل أدب: يا شيخي إنك قد غبتَ عنا ثمان سنين ، فاندهشتُ لذلك!!

ثم جلسنا وتسامرنا وبدأتُ أحكي لزوجتي ما حدث لي فقالت / إني رأيتُ الشيخ شمس الدين في المنام وقال لي: لا تخافي يا رقية إنكم على خير.. ولقد رأيتُ في المنام أيضًا كتلة من النور تكلمني وتقول :

إنكِ ستُكملين الطريق ... ثم بعد أيام خرجتُ إلى المسجد والسوق ، ورأيتُ الأصحاب ، ورجعتُ إلى دكاني ولكنني قلتُ لهم: لا أعمل بل سنبقى على الإيجار.. وبدأتُ في إعداد حلقات الذكر والعلم في مسجدٍ قريب من بيتنا حتى اجتمع حولي المُحبون الذي يُريدون التخلية والتحلية ، فأمليتُ عليهم بعض القواعد:

فقلتُ:

قاعدة (٣٨٨)

صُحبةُ الله بطاعتهِ وذكْرِهِ ؛ فأهلُ الطريق كثرة طاعة ، والاختلاطُ بالخلْقِ للمعيشة ساعة .

واعلموا :

قاعدة (٣٨٩)

الصُّحبةُ أعلى مرتبةً من الوعظ والنُّصح،

الأولى عملية، والثانية لفظية؛ فمن لم ينفعهُ العمل لم يُؤثر فيه اللفظ .

وخذوا هذه القاعدة:

قاعدة (٣٩٠)

الأَدَبُ مَعَ اللهِ الاعتراف بالعَجْز ،

وَهَذا العَجْزُ مَعْرِفَة ..

واكتبوا هذه :

قاعدة (٣٩١)

الغَفْلَةُ نِعْمَة إن سَخَّرْتَهَا في النَّواهي والشُّغل تَمّة في مَحَلِهِ للأَوَامر ..

وخذوا عني:

قاعدة (٣٩٢)

الأَحْوالُ تَنْتَقِلُ كالمَواريث ،

والنَّسَبُ فيها الصُّحبة والصِّدق والإِخلاص ..

فقام أحدهم وقال : يا شيخ لم نفهم ...

فقلتُ: يا بني .. إن ما يصل إليه الشيخ من الحال وانتقاله في المقامات يستطيع أن يورث هذا الحال لأحد أولاده في الطريق من صُلبه أو لا؛ فالنَّسب بين المراد والمريد : الصحبة والصدق والإخلاص ، وخذوا هذه :

قاعدة (٣٩٣)

دخولُ الباب بالأُنس ، والزَّلةُ غَلَقٌ وحَجْب؛ فوردُ الآثار حسرة ، وتذكُرُ الدُّخول مُر ، والشوقُ يخفقُ بالعُقول قبل القُلوب؛

فبزلَّتِكَ فارقْتَ وأغلقْتَ فعزَّ المُلتـــقى .

فقام أحدهم، وقال : يا شيخ وضّح لنا بعض الإشارات ..

قلتُ: يا بني ويا أولادي اسمعوا : إن نالك الأُنس وتلذذت بالعبادة ثم أصبح عندك كشف ثم بعد ذلك دخلتك الغفلة، وهاجمتك الخواطر وكانت

ميولك للدنيا، فقد ضيعت الكشف وأنسك اختفى؛ فتأخذك الحسرات وتندم على ما كنت فيه وما أنت عليه..

واسمعــوا :

قاعدة (٣٩٤)

الذَّوقُ الكَامِلُ فِي الذِّكْرِ وَجْد، وتحقق الوَجْد السُّكْر التَّام ..

فقال أحدهم : أليس السُّكْرَ حرامًا؟

فقلتُ: يا بني السكر من الدنيا ومتاعها غير سكر اللذة بالذكر .. غيابٌ عن الوعي وما في قلبك إلاّ الله.

واسمعوا وتمعنوا في هذه القاعدة:

قاعدة (٣٩٥)

التَّوحيدُ دعوى وتمكين؛ فإرشادُ النَّاسِ دون العمل به دعوى، والعملُ به ودوامُ النفي والإثبات تمكين .

فقام طالبٌ أشقر الشعر طويل القدِّ ذو انحناءة يُبَان عليه أثر الزهد ، وجهه مضيء ، وهذا دليل على صلاة الليل.

فسألني: يا شيخ هل نرى الله ؟

فقلتُ: في نفسي : هي مسألة خلافية .. هل أجيب أو لا ؟ هل أرضي الشرق أم الغرب؟

ثم قلتُ: أقول الحق .. وليغضب من يغضب .. وقلتُ :

يا بني .. هذه مسألة خلافية .. والجدل بين علماء الكلام منذ سنين طويلة والكل لديه دليله من الكتاب أو السنة فمنهم من يقول : رؤية الله في الدنيا جائزة وفي الآخرة جائزة ، ومنهم من يقول : لا تجوز في الدنيا بل تجوز في الآخرة ، ومنهم من يقول : لا تجوز في الدنيا ولا في الآخرة ، وهم متناحرون والمسألة تتعلق بالخالق والقصد والنية ، فمن كانت نيته تنزيه الخالق بالكلية عن الشبيه والنظير والجهة والمكان والشيء والحجم والمثيل والتجزي والافتقار والعجز فهو على صواب، وأما إن كان قصده عدم التنزيه أو يشبه أو يُجسم أو يقول بعكس ما يقوله الطرف الآخر ، فهذا لا يجوز وهو انتقاص من الخالق ، ويدخل في باب نقص العقيدة.

فقال لي: يا شيخ .. وما هو الصواب ؟؟

قلتُ : الكل أدلتهم (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (القيامة: ٢٢-٢٣)

والرأي الثاني (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الانعام: ١٠٣) .

فيقولون في الآية الأولى: إن المؤمنين سيرون ربهم يوم القيامة، والرأي الآخر قال: (ناظرة) يعني منتظرة وليس ناظرة بالإبصار، والذين يقولون بهذا حجتهم الآية الثانية .. أما أهل الرأي الأول فيقولون : لا تدركه الأبصار في الدنيا وليس في الآخرة .. والكل يرجح رأيه حسب اجتهاده في اللغة .. ولكل طَرَفٍ أحاديث من السنة النبوية وكل طرف يُضعف الآخر.

والخلاف شديد ، ونقول لهم ولكم يا أولادي :

لو أن رجلا نام .. ورأى في المنام اللهَ بشكله وحجمه .. وحسب ثقافة هذا الرجل سيرى الله ؛ فهل نقول لهذا الرجل إنك كافر وملحد ويجب أن تُقْتَل ..

فمنهم من يرى الله على شكل جبل في المنام أو على شكل إنسان كبير ، ومنهم من يراه على أنه نور ، وكل هذه الرؤى بالعين ، والخالق في جهة ، ولكننا لا نجزم بشركه ولا بكفره ولا عليه الحد ؛ فمجال الرؤيا ههنا بالذهن والفكر والإدراك الكوني الخاضع في حكم الشيء وفي الزمن الكوني الذي نحن فيه ؛ فإن آلآت هذا الزمن تختلف عن الزمن الآخر ، والأيام بالتوقيت الزمني السماوي تختلف عن أيامنا .. هنالك يوم بألف سنة .. ويوم بخمسين ألف سنة .. والله أعلم يوم بمائة ألف ويوم بخمسمائة ألف وهلم جرا ...

إذًا : ما دامت الأزمان غير ثابتة لا نستطيع بالقياس ولا بالعقل أن نُقارن بين العالمين؛ فالعقلُ يبحث عن العلة المشتركة والقياس يبحث عن العلة الجامعة ما بين الأصل والفرع .. وهذه لا تنطبق على هذا التفاوت الكوني ؛ فمائة سنة من السجود على الأرض عبارة عن دقيقة ونصف لعبادة الملائكة في السماء .. وقس يا بني على هذا التفاوت ..

نعود إلى جوهر القضية ما بين قضية حدثت لسيدنا موسى (التجلي ، وخرَّ موسي ، ودك الجبل)

ما المفهوم من التجلي؟ والقضية الأخرى (الناظرة) و (لا تدركه) ، الكل يفسر هذه الكلمة بما يؤيد مذهبهُ في علم الكلام .

فمحورُ القضية يدور على أن العين الإنسانية الباصرة إلى الشكل والحجم والجهة قاصرة عاجزة عن إدراك (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

وكلمة الوجوه تعني **(العين الثالثة)** الموجودة في جبين الإنسان، قوة المخيلة التي بها نستطيع التصور الذهني وتخيل الأشياء، والرؤيا الصادق الإخبارية بالأحداث ورؤيا الأضغاث والمنام الاعتيادي النابع عن التعب والجوع والعطش ..

وهذه العين حقيقية؛ لأن الله جعل القربة في السجود لقوله تعالى: (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) .. وهي غير مرئية لمشاهدة غير المرئي، وزمنها زمن غير كوني بل سماوي ، لهذا ترى الرؤيا الطويلة هي عبارة عن جزء من الثانية ، أو رؤيا عبارة عن ثواني، كأن زمن هذه العين قريب إلى زمن السماء فالرؤيا بالعين الموجودة في الوجه تجسيم لله وهذا غير جائز ..

وعدم معرفته ورؤيته كذلك مثل الرأي الأول غير جائز ..

أمَّا رؤية الله بلا جهة ولا جسم ولا تجسيم ولا شبيه ولا خيال ولا أي شيء يتعلق بالشيء في الكون والذهن والتصور والإدراك .. وكانت الرؤية بالعين التي تُبصر لا إلى جهة ؛ ففي هذه الحالة جائز ، وإكرام بفضله على من نهى النفس عن الهوى والتزم الأوامر والنواهي.

ومن الأحسن يا بني أن تسمع الآخر وأن تجلس معهُ وتنقل رأيه دون تحريف، فاليوم الكل يتصيد من الكل، فيأخذون بعض الحديث، حديث طويل أو جملة من كتاب أو حرف من كلمة كي يشهروا بها ، ويؤلفون الكتب من أجل الدفاع عن المذهب ، وتركوا بيضة الدين وحوزته تُنهب وتنتهك من أعداء الدين ، ونحن في الفُرقة المذهبية و الطائفية المقيتة البغيضة .

واعلم يا بني أن المذاهب سياسة الزمان ؛ فمثلا :

لو أن صاحب المذهب الموجود في البلد الثاني انتصر في أحد معاركه في البلد الآخر فإنه ينشر مذهبه في هذا البلد.

إذاً : المذاهبُ انتشرت وبقيت على حالها خلال حروب بين هؤلاء وهؤلاء ، والمنتصر سطا على المكان .

فلا تجوز هذه النظرة العقيمة ، ومن الأحسن أن يتجهوا إلى العلم والتطور ورباط الخيل وإعداد العدة ، والابتعاد عن الخرافات والأوهام ، وعن حب النفس المؤدي إلى التزمت وعدم سماع الآخر .

والفرق بين الأمم التي نبذت التناحر وبين الأمم المتناحرة هو التطور الملحوظ ما بيننا وبينهم ؛ فنحن أمة لحد الآن نُقدّس البشر ونجعل منهم ألهة

..

وهم تخلّصوا وأخلصوا في العمل ..

وأقول يا بني : السَّتْر السَّتْر أن أحد هذه الدول المتطورة تدين بالإسلام وتطبق الكتاب والسنة فنرى أنفسنا نعمل في بيوتهم عبيداً.

اللهمَّ وحِّد كلمة المسلمين ، اللهمَّ انتقم من الذين يُفَرِّقون الدين، ويسفكون الدماء باسم الطائفية والمذهب ..

ونلتقي غداً بعد صلاة العصر لإكمال الدرس .. إن شاء الله.

وعدتُ إلى البيت بعد الدرس .. ولم أخرج إلى المسجد بعدها.

وقد أتممتُ صلواتي في البيت .. وأحسستُ إحساسًا غريبًا كأن شيئًا يسري في جسدي.. فعلمتُ وشككت .. وكان شكي إلى اليقين أقرب أنَّها علامات الفِراق ..

أمانةُ الزَّوجة

بعد وفاة الشيخ رفيق (مختار سفينة النية) بدأت الشيخة **رقية** مشوارها في استكمال الطريق والحفاظ على الأمانة ؛ ففتحت منزلها لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس الأولاد في النهار .

وبعد العصر كان لتعليم الناس آداب السلوك والسير ، وقد سَكَن في الحي جار جديد يعمل في شركة بَحْرية لنقل البضائع ، وكان من بلدة أجنبية بعيدة في قارة أخرى ، ولديه ولد صغير في العاشرة من عُمره وكان يحضر دروس القرآن ، فعلم أهل الحي أن هذا الرجل مُسلم ، واسم الصغير **جمال الدين** وكان جميلاً كاسمه ، اسم على مُسمى ، ذو شعر إلى الأكتاف مضيء الوجه فصيح اللسان يحفظ القرآن ويحضر جميع صلواته في المسجد .. وكان هَمُّه حفظ القرآن والسنة النبوية وأقوال الأئمة والصالحين ، وكان يسأل كثيراً في أمور دينه وكانت الشيخة رقية تدرس النساء في حلقة ما بعد العصر ، وتشرح لهم ما تعلمته من زوجها الشيخ رفيق من قواعد العشق الالهي وآداب السير والسلوك .

وكانت تقول : يا بناتي وأخواتي ، اسمعن هذه القواعد جيداً والتزمن بها ، ومن تفعل ذلك منكن تنجو من فك الدنيا ويكون فرارها إلى الله .. وقالت:

قاعدة (٣٩٦)

الْمُرِيدُ يَسْلُكُ طَرِيقًا وَاحِدًا قَاصِدًا إلى اللهَ حتى الْوُصُول، فكُلّما غَيَّرهُ تَغَيَّر، وَبَدَأَ مَنْ أول الطَّرِيق وَلَرُبَّما يُخَطِئُ .

وقالت :

قاعدة (٣٩٧)

إذا النَّفْسُ لَم تُطَاوِع فَأَشْغِلْها بِالعَمَلِ، حتى لَو تَنْقِل المَاءَ بالغِرْبَالِ قَبْلَ أن تَشْغَلَك.

واسمعـن هذه :

قاعدة (٣٩٨)

تَحدثوا فيما بَيْنَكُمْ بالُودِّ والحُبِّ والتَّسَامُحِ،

والْزمْنَ اللِّسَانَ عند الواحد الأحد كي لا يَحِيد .

واعلمن يا سيدات الطريق :

قاعدة (٣٩٩)

القُرْبُ نورُ الموافقات ، ينبعُ من عين القلب إذا نَقَت الأجساد ، وصَفَتْ الأرواح ، وجعلْتَ الدُّنيا طرفاً ، وغضضتَ الطَّرْفَ عن الطَّرَف .

واسمعن وانتبهن :

قاعدة (٤٠٠)

كُلُّ الجسَد قلْب، والطَّاعةُ وقت، والأمرُ حُضُور ، والعلاقةُ العقل ؛ فمن ضيَّع وقتَهُ فَقَد قلبَهُ عند الحُضُور ، فأشْغَلَهُ عقْلُهُ بما أضاعَ فضاعَ .

وبعد الدرس بدأت أقرأ في أوراق زوجي الشيخ المختار .. وأتذكره .. وأتذكر الرحلة الطويلة وسفينة النية .. والأمانة التي عندي .. وكيف الوصول إلى التسليم .. فقرأتُ في إحدى القصاصات وصية :

زوجةٌ رفيق تحمل المهمة مثل الأم العجوز لأنَّها لها الخدمة في السير والسلوك .. و عليها بحفظ الأمانة والتسليم إلى المطلوب بشرط أن يكون تحت المراقبة من الطفولة إلى الشباب إلى دور الرشد .. وهو صاحب الشامة الزرقاء يأتي من أرض بعيدة فيحمل القنديل ويزكي الأنفس ، ويرث الأرض عبادهُ الصالحون .

يا رقية : راقبي صاحب الشأن ثم بدأتُ أقرأ بعض القواعد :

قاعدة (٤٠١)

مَنْ حَرَصَ عَلَى وَقْتِه ؛ فَلْيَحْذَر بَابَ الغفْلَة وبَابَ الخوَاطِرِ ، فتَرْكُ بَابِهِمَا فَسَادٌ للقلب.

وقـرأتُ :

قاعدة (٤٠٢)

الجوعُ والذكْرُ يجتمعان عند أهْل العِرْفَان،

لأنَّهما أعظمُ الأبواب لدُخول باب الزَّاهدين والعَارفين ؛ فطوبَى لهُم ..

وكان مكتوباً علي هذه القاعدة (مهمة) وهي ميزان :

قاعدة (٤٠٣)

الظَّاهِرُ الالتزامُ بالشَّرْعِ ، والباطنُ فِكْرٌ وذِكْرٌ ؛

فهذه علاماتُ علية القوم .

وقــرأت :

قاعدة (٤٠٤)

لزومُ الأَوَامرِ والنَّوَاهي، والإيمانُ بما جاء كله، ونقَاءُ السر والتخلي عن الكون، والتحلي بما طُلِبَ منكَ عَلاماتُ أهل الجادَّة ..

وقرأت أيضًا في أدب الطالب .

قاعدة (٤٠٥)

الشَّرَهُ إلى الطَّعَام دَفْنُ القلْبِ في مقْبرَة اللئام؛ فَلا لكَ بصيرةٌ ولا أنتَ من أهل النَّظَر ..

ومكتوب في قصاصة أخرى: من أراد أن يُميط اللثام عن الحقيقة فليعلم هذه:

قاعدة (٤٠٦)

السَّهوُ والغَفْلَةُ والهوى واللغو مَنْ تجرَّدَ عنها تَرَكَ السَّببَ فنالَ التَّوكلَ ، وكانت خطوتهُ وأمرهُ بالنية ..

واعلـــم :

قاعدة (٤٠٧)

من تعلَّقَ بالكَسْبِ والرِّزْق فليعمل حتى يَخْرجَ خاطِرُ الكسبِ من نفسِهِ ؛ فإن لم يُخْرِجْهُ فليترُك الطَّريق ..

ثم تأملت وقلت : ما أعظم هذه الرحلة التي سار بها زوجي .. إنهُ الاختيار أن الله استعمله للخدمة ؛ فدعوت ربي أن يستعملني لما يُحبه ويرضاه من خدمة ..

وأنا ما بين درس الأطفال والنساء ..وتحفيظ القرآن والتسبيح والذكر فبدأتُ أتكلم بالقواعد وإنهم قد علموني فقلت :
يا نساء الطريق : اكتبنَ :

قاعدة (٤٠٨)

الكَلاَمُ قُوةُ القَلْب، فَتكلَّم لِحَاجَتِكَ لاَ لِلْحَاجَتِكَ ؛ فإِنَّها دَائِرةُ السُّوء ..

وقالت :

قاعدة (٤٠٩)

الأَفْعَالُ مَنْبَعُ عِلْم الرِّجال، وَ الأَقْوالُ فُقْدان الارتِجَال ..

وقلتُ لهنَّ احذرن من هذه :

قاعدة (٤١٠)

التَّمني يُسْقِطُ الهمَّة،

وعَدَمُ الالتِفات ميزان الوُصول ..

قاعدة (٤١١)

طلَبُ الدُّنيا فتْنَة والتَّبرك بك فِتْنَة،

الأولى بالزُّهْدِ الخَلاَص ، والثانية السُّمْعَة السَّيْئة ؛ فاخْتَر ما تُريد ..

واعلمن يا نساء السير والسلوك : وتمعنَّ في هذه الآية :
"ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ " " التوبة : ١١٨"
واكتبن هذه :

قاعدة (٤١٢) :

مَنْ كَانَ غَرِيَباً عَنَ زمَانه

فَلْيعْلَم أنهُ أَحَدُ أَمرِيْن : ضال أَو طَالِبُ حَق ..

واسمعنَ بأذُن العين وتَلقفنَ بالشم :

قاعدة (٤١٣) :

الخِدمةُ ليس لمن تَخْدِم، ولا رجاءاً في العلم،

بل المقصودُ الحق ..

قاعدة (٤١٤) :

وَزْنُكَ وَقَدْرُكَ مَعَ مَيْلك، فَكُن مَا تُرِيد، فَالميزَانُ يَعْلمُكَ مَنْ أنت، فَالطَّالِبُ للدُّنيا يَدْنو ، وَطَالِبُ الآخِرَةِ يَعْلو ..

واعلمـــنَ :

قاعدة (٤١٥) :

مَنْ قَسَا قَلْبُهُ طُرِدَ مِنَ السَّاحَة ، وَعَلامَته لِسَانُهُ ، يَسْتَعْمِله للطَّعْن وَالإِفْكِ على أولياء الله ..

قاعدة (٤١٦)

أَجْمَلُ الأشياء عِلْمٌ بفَهْم، والفَهْمُ بالتَّأني والبَحْث ..

قاعدة (٤١٧)

رُؤْيةُ النبيِّ بالاعتقاد نَجَاةٌ مِنَ النَّار، وَالرُّؤيَةُ أنهُ من جنس البَشَر حَشْرُهُ كأبي لهب .. فالصُّحْبَةُ رُؤْيةُ و مُجَالَسَةٌ ونَسَب ..

فسألت إحدى النساء وقالت : **يا مولاتي** .. لم أفهم.

فقلتُ : أبو لَهَب رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فما كانت من رؤيته إلاَّ إنه ابن أخيه، وأما الصحابة فرأو النبي رؤية حق فَسَمِعوا والتزموا وأطاعوا .. واكتبْن هذه :

قاعدة (٤١٨)

كم تُحِبُ بها تَقْتَرِب ..

واسمعن :

قاعدة (٤١٩)

الحَذَرُ من الذُّنوب كالحَذَر من الغَرَق، والحَذَرُ من العُيُوب كما تسترُ عورةَ الجُيوب، وفـــرِ إلى الله بكل جوارحكَ ..

واكتبـن :

قاعدة (٤٢٠)

ذلل نفسَكَ على حُبِّ اللهِ، فإن لم تستطع فكُن مَعَ أهل الله ..

واكتبـن :

قاعدة (٤٢١)

التكبرُ بحِفْظ القُرآن والعلْم على أهل المَعَاصي أشد من العِصْيان ..

واعلمـن :

قاعدة (٤٢٢)

الجَمَال والكَمَال ما بَيْنَ القَوْل والفِعْل ..

واكتبن بدماء الأنامل على صفحات الصُّدور :

قاعدة (٤٢٣)

التَّوكُلُ نيَةٌ لا قَول ،

الأول معنى الحق ، والثاني دَعْوى مُدعي ..

واسمعْنَ : مَن وَصَل إلى مِنْبر الإرشاد فيلزم هذه القاعدة :

قاعدة (٤٢٤):

الأَدَبُ مع الشيخ قَبْلَ المريد

كي يَتَعلم الأدبَ ومَعْرفة القَدْر ..

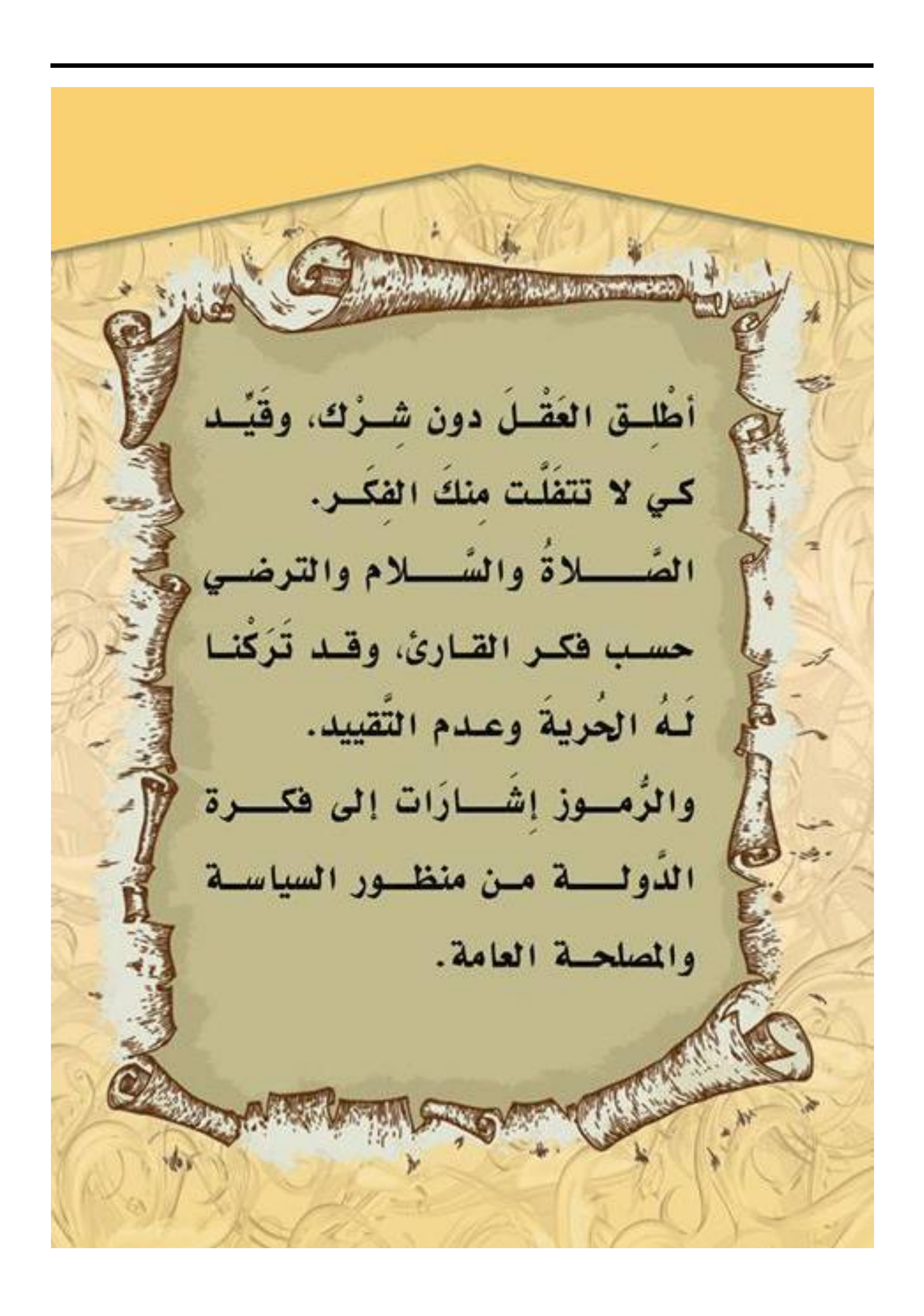
وانتهيتُ من درس النساء .. وفي اليوم التالي وأنا أدرِّس الأَطفال لَمَحْتُ على كتف الطفل الغَريب شامةً زرْقاء.

- وبعد انتهاء الدرس سألته :
-
- من أي البلاد أنت ؟
-
- فقال: من أستراليا ..
-
- فقلتُ له : وما عَمَلكمُ هنا في الشام ؟

قال: إن أبي لهُ هنا شركة نَقْل، وقد أحبَّ الشَّرقَ .. وأحَبَّ دمشق لِصَاحبٍ التقى به يومًا في بيت الله الحرام .. فكلمهُ عن الشام ثم اختفى .. وها نحن اليوم في الشام يا مولاتي .

فتذكرتُ أنّ زوجي رفيق تكلَّم لي عن صاحب القُبعَة كشكل البَاخِرة ، وصاحب الثوب الأزرق ؛ فَعَلمْتُ أين أضَعُ أمانتي .. وأنا الأنَ أراقبُ وأنظرُ وأنتظرُ الوقت **....الكُلُّ في الزَّمَان ....**

الفهرس


أطْلِق العَقْلَ دون شِرْك، وقَيِّد
كي لا تتفَلَّت مِنكَ الفِكَر.
الصَّلاةُ والسَّلام والترضي
حسب فكر القارئ، وقد تَرَكْنا
لَهُ الحُريةَ وعدم التَّقييد.
والرُّموز إِشَارَات إلى فكرة
الدَّولة من منظور السياسة
والمصلحة العامة.